

تأليف: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي
دراسة و تكملة: عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

مقام إبراهيم
عليه السلام

مقام إبراهيم
عليه السلام

هذا الكتاب

يُعرّف بمقام إبراهيم عليه السلام، ويذكر الخلاف في المراد به، مرجحًا أنه الحَجَرُ الذي كان يقوم عليه إبراهيم - عليه السلام - لبناء الكعبة المشرفة لما ارتفع جدارها، كما يبين صفة المقام من خلال اطلاع المؤلف مباشرة عليه بنفسه سنة ١٣٦٧هـ، كما يتحدث عن موضعه في الجاهلية والإسلام، ونَقْل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - له مخافة التضييق على الطائفين، كما يتناول تطويق المقام بالذهب والفضة خشية عليه من التفتت والتلف نتيجة ازدحام الطائفين.

وإلى جانب ذلك يتناول الكتاب موضوعات ذات صلة بالمقام، مثل بناء الكعبة المشرفة، وصفة بنائها، وأشهر بُناتها على مرّ التاريخ، ويذكر الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف، ويبيّن حدود الحرم وفضائله، والزيادات الحاصلة في المسجد الحرام، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بتاريخ المسجد الحرام.

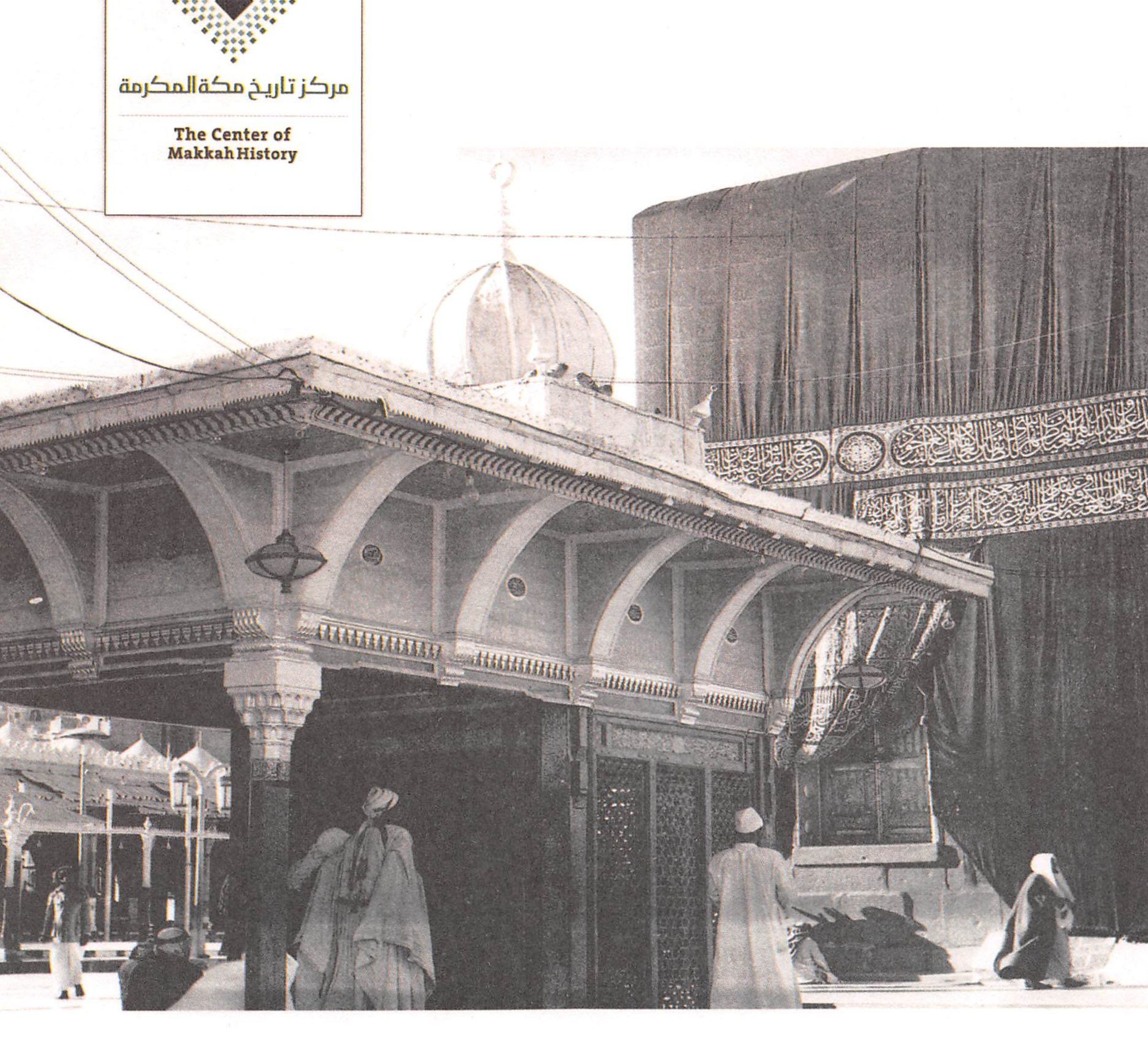
إصدارات مركز تاريخ مكة المكرمة ٠٠٧

ISBN: 978-603-90212-4-7
9786039021247
ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٢١٢-٤-٧

مقام إبراهيم
عليه السلام

تأليف: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي
دراسة و تكملة: عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

مركز تاريخ مكة المكرمة
The Center of Makkah History



مقام إبراهيم عليه السلام

ⓒ مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الكردي، محمد طاهر

مقام إبراهيم عليه السلام. /محمد طاهر الكردي- مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ

٣٤٠ ص؛ ٢٤X١٧سم

ردمك: ٧-٤-٩٠٢١٢-٦٠٣-٩٧٨

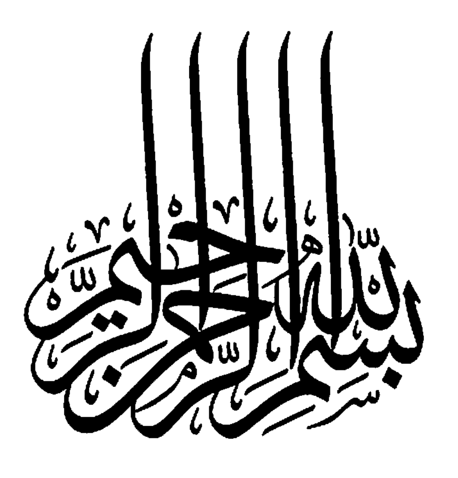
١- مقام إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)   ٢- المسجد الحرام

أ.العنوان

ديوي ٢١٥,١٢   ١٤٣٣/٤٠٢٢

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٤٠٢٢

ردمك: ٧-٤-٩٠٢١٢-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن الله قد رفع مكانة مكة المكرمة، وعظم شأنها، وفضلها على غيرها من بقاع الأرض، ففي رحابها الطاهرة كان مهبط الوحي القرآني، ومبعث النور الإسلامي الذي غمر الكون بالأمن والإيمان، وموئل المسلمين الذين يقصدونها لأداء الحج أو العمرة.

وتتعدد الأماكن الطاهرة في مكة المكرمة، ويأتي في طليعتها المسجد الحرام، الذي يعد أول بيت وضع لعبادة الله تعالى، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، وكلف خليله إبراهيم عليه السلام أن يطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأمر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بأن يولوا وجوههم شطره، وأن يجعلوه قبلة لهم في صلاتهم.

وفي رحاب المسجد الحرام آيات بينات، ومعالم واضحات، منها مقام إبراهيم عليه السلام الذي أمر الله الطائفين بأن يتخذوا منه مصلى، إعلاء لشأن هذا المقام الذي ارتفع عليه الخليل عليه السلام في أثناء بنائه البيت المعظم.

ويُعَرِّف هذا الكتاب الذي نقدم له بمقام إبراهيم عليه السلام، ويذكر الخلاف في المراد به، مرجحًا أنه الحَجَرُ الذي كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة المشرفة لما ارتفع جدارها، كما يبين صفة المقام من خلال اطلاع المؤلف مباشرة عليه بنفسه سنة ١٣٦٧هـ، كما يتحدث عن موضعه في الجاهلية والإسلام، ونقل عمر بن الخطاب رضي الله عنه له مخافة التضييق على الطائفين، كما يتناول تطويق المقام بالذهب والفضة خشية عليه من التفتت والتلف نتيجة ازدحام الطائفين.

وإلى جانب ذلك يتناول الكتاب موضوعات ذات صلة بالمقام، مثل بناء الكعبة المشرفة، وصفة بنائها، وأشهر بناتها على مر التاريخ، ويذكر الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف، ويبين حدود الحرم وفضائله، والزيادات الحاصلة في المسجد الحرام، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بتاريخ المسجد الحرام.

وقد سبق طبع الكتاب في مصر قبل أزيد من نصف قرن، وانطلاقًا من رسالة مركز تاريخ مكة المكرمة المتمثلة في خدمة تاريخ هذا البلد الأمين، والعناية بمصادره المتنوِّعة، والمحافظة عليها، والسعي نحو نشر الدراسات والمؤلفات المتصلة بهذا التاريخ الشريف، رأى المركز إعادة طباعة هذا الكتاب ونشره مرة أخرى، مضافاً إليه دراسة في أوله وتكميلات في آخره بقلم الأستاذ الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان، ومضافاً إليه تعليقات وتخريجات لبعض الأحاديث، وفهرسة فنية تقرّب مادته للقارئ؛ كل ذلك شعوراً من المركز بأهمية ما يقدمه هذا الكتاب من معلومات عن جزء مهم من المسجد الحرام، وهو مقام إبراهيم ﵇، آملين أن يكون فيه النفع والفائدة لكل من يتطلع إلى معرفة تاريخ هذا المقام وصفته.

مركز تاريخ مكة المكرمة

المحتويات

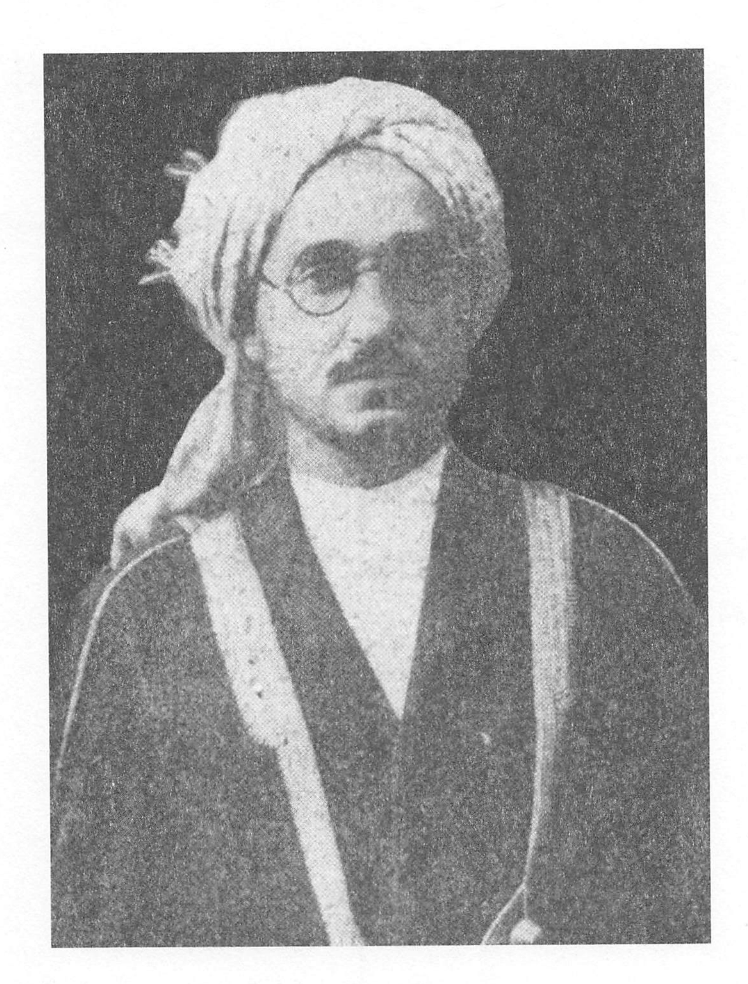
خاتمة المؤلف

القسم الرابع: لواحق: تكملة كتاب (مقام إبراهيم)

فهرس الرسومات والصور

القسم الأول

ترجمة المؤلف الشيخ
محمد طاهر كردي الخطاط
١٣٢١-١٤٠٠هـ (١٩٠٣-١٩٨٠م)



مؤلف الكتاب

ترجمة المؤلف الشيخ محمد طاهر كردي الخطاط
(١٣٢١- ١٤٠٠هـ)

ولادته ونشأته:

ولد - رحمه الله - سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م بمكة المكرمة، وتخرّج في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ثم سافر إلى مصر سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، لطلب العلم بالأزهر الشريف، ثم التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، في سنة افتتاحها، سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م.

يتحدث - رحمه الله - عن ابتداء تعلّمه فن الخط بقوله: «ولم يخطر ببالي أن أكون يوماً معدوداً في مصاف الخطاطين، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، فأخذت في المدرسة المذكورة خط الثلث، والنسخ، والرقعة، وجلي... وكذلك أخذت الخطوط المذكورة للخط الفارسي، والخط الديواني، وفن التذهيب، والرسم والزخرفة...».

وظائفه:

بعد أن عاد إلى البلاد عيّن موظفاً بالمحكمة الشرعية الكبرى سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، وفي مطلع سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، انتقل إلى حقل التعليم، فعيّن مدرساً بمدرسة الفلاح بجدة.

وفي سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، سافر إلى مصر مرّة ثانية، فأقام بالقاهرة عاماً كاملاً، وبالإسكندرية عاماً آخر، وكانت مدة حافلة بالنشاط العلمي والتأليف والاتصال بالعلماء.

وفي سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، عاد إلى المملكة، وعمل بمدرسة الفلاح بجدة مدة قصيرة، ثم اختارته مديرية المعارف - آنذاك - للتدريس بمدارسها، فدرّس في المدرسة السعودية أولاً، ثم في العزيزية الابتدائية[١] ثانياً.

وعندما افتتحت مديرية المعارف مدرسة لتحسين الخط وتعليم الآلة الكاتبة عيّن مديراً لها، وعلاوة على ذلك فإنه كان يعمل خطاطاً بمديرية المعارف، ثم اختير مستشاراً في الجهاز الإداري لمشروع توسعة الحرم المكي الشريف، فكان نعم المعين؛ لمعرفته بتاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف.

وفي سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، أُصيب بمرض ألزمه الفراش، فأثّر في حواسه، وظلّ معه سنين، ثم منّ الله عليه بالشفاء منه، ولكن مع اعتلال وملازمة للعلاج، وكان مصاباً بمرض السكر الذي لازمه حتى الموت.

صفاته الخَلقِية:

كان «قصير القامة معتدل الجسم، ناتئ الجبهة، تشوب بياضه صفرة خفيفة، تزيّن وجهه لحية سوداء، حليق شعر العارضين، في عينيه حول خفيف تستره نظارة للقراءة، يرتدي الجبة الحجازية ويعتمّ بعمامة تستر الرأس والأذنين، وهو بهذا يتخذ سيماء العلماء المكيين»[٢].

(١) تقع في الشامية، تحتها بازان ماء، دَرّس بها كبار المدرسين، أمثال الشيخ محمد مرداد، والشيخ عبدالرحمن الصباغ، والشيخ محمد الساعاتي، والشيخ عبدالله دردوم - رحم الله الجميع - وغيرهم من الأساتذة النابهين، وقد أزيل مبنى المدرسة مع توسعة الساحات الشمالية للحرم الشريف، سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

(٢) المغربي، محمد علي، أعلام الحجاز (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ج٢، ص٣١٥.

صفاته الخُلُقية:

اشتهر – رحمه الله – بعفّة النفس، والاعتزاز، وهو أَبِيٌّ يأبى الضيم، سخي يكرم الضيف، بشوش الوجه، أنيق الملبس، جميل المظهر، حاد الطبع.

غادر الحياة، وقد عاشها عيشة السلف الصالح، الزاهدين المتقشفين، مع أن الفرص كانت مهيأة الأسباب له للثراء؛ إيثاراً منه للحياة الأخرى الباقية على العاجلة، فكان محل تقدير المجتمع وحبه.

نشاطه الاجتماعي:

لم يكن – رحمه الله – منزوياً عن الحراك الاجتماعي، بل شارك في عدد من الأنشطة الاجتماعية ذات العلاقة بالمجتمع المكي، ومن أهم مشاركاته:

وضع حجر الأساس لتوسعة الحرم الشريف، وهو أهم عضو مسؤول في توسعة الحرم الشريف سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، كما كان له شرف وضع الإطار الفضي للحجر الأسود، والإشراف والمشاركة في ترميم الكعبة، وتجديد سقفها في التسعينيات.

كتابه التاريخ القويم وما حواه من معلومات علمية، واجتماعية مهمة، واتصاله بالجهات الرسمية، وأفراد المجتمع دليل على مشاركته المؤثرة في بناء المجتمع، وتوجيهه.

اهتماماته العلمية والفنية:

كان – رحمه الله تعالى – إلى جانب اشتغاله بالتعليم صاحب اهتمامات علمية، وملكات أدبية وفنية، أبرزها وأهمها:

أنه مفسر:

تجلى هذا في تفسيره للقرآن الكريم، والعناية به شكلاً بنسخه مصحف مكة المكرمة، والتأليف في بعض موضوعاته، مثل: تاريخ القرآن وغرائب

رسمه، وحكمه، فقد أمد الوسط العلمي بعدد من المؤلفات المهتمة بالقرآن الكريم.

فقيه شافعي:

ألف في علم المناسك كتاب «إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة»، يكتسب تأليفه هذا أهمية خاصة؛ وذلك لخبرته الكاملة بالمشاعر، والتأليف فيها تشريعاً، وتاريخاً.

مؤرخ:

دوّن أهم كتاب في تاريخ مكة المكرمة في العصر الحديث وأكبره، وقد اهتم بتاريخ مكة المكرمة، وتحقيق كل ما يتصل بها من آثار، وأولى الحرم المكي من نتاجه العلمي والفكري عناية خاصة، ندر أن يكون لها مثيل، فوثق كل ما يتصل به من دراسات، سواء بطريق الرواية، أم بالصورة الفوتوغرافية.

لم يغب عنه الاهتمام، والتوثيق التاريخي لمكة المكرمة حتى في أحرج الظروف والأوقات، فعلى الرغم من إصابته بمرض السكر، الذي نخر عظامه، ولازمه ما يقارب العشرين عاماً، فأصاب جسمه بشلل نصفي، ظل محافظاً على صلته بالكتاب، والكتابة، فكان – رحمه الله – يطلب من أولاده، وبخاصة ابنته الكبرى فاطمة - حفظها الله - تدوين ما يطرأ على باله، أو يحدث في المجتمع – مما يروى، له أو يقرأ – حتى الأمور اليسيرة، يرصدها بحاسة المؤرخ، وفحص الخبير.

كتابه «التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم» موسوعة تاريخية، واجتماعية، وأدبية عن مكة المكرمة، جمع فيه معارف شتى، في ستة أجزاء، طبع منه أربعة أجزاء، على نفقة السيد أحمد هاشم مجاهد – وكيل وزارة الحج والأوقاف سابقاً – والجزآن الآخران موّل طبعهما معالي الأستاذ الدكتور عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، حفظه الله.

تحوي هذه المدونة التاريخية مادة علمية جيدة، أرّخ فيها ما أغفله التاريخ، وهي صالحة لأن يستخرج منها رسائل علمية متعددة الجوانب، خصوصاً في النواحي الاجتماعية للبلد الحرام، ليس من المبالغة في شيء حين يقول رحمه الله تعالى:

«هذا الكتاب أعظم تاريخ ظهر إلى اليوم في الوجود لبلد الله الأمين، مكة المكرمة، وبيته المطهر الشريف، ولكل ما له تعلّق بالمشاعر العظام، وغيرها، منذ عهد إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – إلى اليوم، وهو كتاب مزيّن بالخرائط المهمة، والصور الفوتوغرافية، والرسوم اللطيفة، للأماكن المقدسة، والمواضع الأثرية، والرجال البارزين، والعلماء المؤرخين، وتراجم كل منهم، وفيه من المباحث والمسائل ما لم يذكر في أي تاريخ، وفيه من مسائل الحج، والمواضيع المتنوعة الشيّقة...، وفيه من التحقيقات والتدقيقات... ولم نترك شيئاً من المسائل إلا ما يتعلق بالحروب والفتن التي وقعت فيما مضى من الأزمان، وسيصبح هذا الكتاب – إن شاء الله – قاموس التواريخ، يرجع إليه العلماء، والفضلاء، في كل ما يتعلق ببلد الله الأمين، وبيته المقدّس، وجوهرة عزيزة فاخرة، فالحمد لله على إتمامه، والشكر له على إنعامه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

وقد زخر كتابه بنماذج فنية رائعة لبعض الأشكال، والخطوط، وصور بعض العلماء والأعيان، والحكّام المعاصرين.

من آثار اهتمامه الخاص بالحرم المكي الشريف أنه رَسَمَ سطح حجر مقام إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – وفيه أثر القدمين.

أديب:

– نظم الشعر في أغراض مختلفة، وألف في الحكم، والأمثال.

– ألف في بعض الموضوعات الاجتماعية مثل:

تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد، وكتاب: أدبيات الشاي والقهوة والدخان، وكتاب حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة.

آثاره الفنية:

فن الخط والزخرفة الإسلامية من أبرز اهتماماته العلمية، له في هذا المجال آثار مهمة متعددة، تَوَّجها بكتابة القرآن الكريم، يعدّ هذا الأثر مفخرة البلاد، لقي انتشاراً وإقبالاً، وأطلق عليه «مصحف مكة» وهو يشهد له بالدقة والكفاءة العالية في هذا المجال حتى أصبحت نسخ هذا المصحف نادرة، بل معدومة من الأسواق.

من أهم ما قام به في هذا المجال: كتاب «تاريخ الخط العربي وآدابه» وهو كتاب ذو قيمة علمية كبيرة، جمعه من أهم المصادر، وحلاّه بأنواع الخطوط العربية، وضم فيه تراجم أشهر الخطاطين، وهو من الكتب النادرة في موضوعه.

وممن أشاد بأعماله الفنية الأستاذ الدكتور عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش – حفظه الله – بخصوص رسمه لسطح حجر المقام قائلاً:

«لوحة فنية نادرة لمقام إبراهيم عليه السلام، ومقاس اللوحة الأصلية هو٢٢,٥×١٦,٢سم، هذا العمل لم يسبق لأحد أن قام به في العالم الإسلامي قاطبة، وعلى مر عصور التاريخ الإسلامي المجيد، يظهر لنا من هذه اللوحة الدقة، وحسن التصميم، وهذا يدل على براعة الشيخ محمد طاهر الكردي، وحسن اختياره. ولقد طبعت هذه اللوحة في سنة ١٣٨٢هـ الموافق ١٩٦٢م»[١].

---

(١) محمد طاهر الكردي الخطاط، حياته وآثاره (الرياض: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ت. د.) ص٧٥.

ابتكر رسوماً خاصة لأشكال بناية الكعبة المشرفة، على مر العصور، ومنظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة.

لم ينقطع الشيخ محمد طاهر كردي المكي عن القراءة والتأليف إبان مرضه ما استطاع، وقد فقد بصر إحدى عينيه عاماً قبل وفاته.

وفاته:

في الساعة الثالثة والنصف، صباحاً بالتوقيت الزوالي من يوم الاثنين، ٢٣ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٠هـ، الموافق ١٠ من مارس عام ١٩٨٠، انتقل المؤرخ الكبير العلامة الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي إلى رحمة الله، بعد مرض أسلمه إلى الفراش لمدة عشرين يوماً.

وبوفاته فقدت المملكة العربية السعودية رائداً من رواد التعليم والفكر في العصر الحاضر، الذين قامت على أكتافهم، وبجهودهم، النهضة العلمية الحديثة في البلاد، فخرّجوا أفواجاً، وأجيالاً من المتعلمين، أصبحت بأيديهم قيادة البلاد.

ذرية فضيلته:

خلّف - رحمه الله تعالى - من بعده ذرية طيبة هم: ابنه عبدالرحمن، وابنته فاطمة، وكوثر، ومصباح.

وخلف ابنه عبدالرحمن - رحمه الله تعالى - من الأولاد الذكور والإناث: أيمن، ونزاراً، وأحمد، ونهى، وإيمان، وأسامة، ومحمداً.

رثاء العلماء والأدباء للشيخ محمد طاهر الكردي الخطاط:

كان لوفاة الشيخ محمد طاهر الكردي الخطاط صدى كبير من الحزن والألم في الوسط العلمي، والأدبي، من المناسب عرض بعض ما جاء في مقالات بعضهم تعبيراً عن مشاعرهم:

الأديب السعودي الشيخ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله تعالى:

«... وبعد، فإن من حقك على التاريخ أن يذكرك عالماً درس في الأزهر (في الرواق العباسي كما حدّثتني) وفناناً خطاطاً، من مدرسة الفنون بالقاهرة، ومعنيًّا بالتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاتك فيه، وأديباً شاعراً، تكتب في طرائف الأدب، وتنظم في الحكمة وتجارب الدهر.

ولقد كانت لك اهتمامات تدخل في باب الاختراعات، ولا يبعد عن الخاطر تفكيرك في حل مشكلة ازدحام المطاف، بمطاف علوي، (دور ثانٍ) يجري تركيبه أيام الموسم، ثم يزال ليعاد استعماله كلما حل موسم جديد... وقد جعلت لهذا الأمر تصميماً بارعاً اطلع عليه - فيما أعلم - بعض المسؤولين... ولك في هذا الباب أكثر من بادرة، منها بلورة مقام إبراهيم... وأحسب أن الحديث معك وعنك يطول بي، لو أردت أن أستعرض تلك الجوانب الكثيرة التي أعلمها من خلالك الخيّرة - وكلها خيّرة - ولكني أجتزئ اليوم من الحديث ما أستطيعه، عسى أن أتحدث عنك في يوم آخر قريب حديثاً مستفيضاً.

وسلام عليك في جنات واسعة إن شاء الله، وفي نعيم مقيم مع الصالحين والصدّيقين»[1].

نعي الصحف فضيلته:

نَعَتْهُ بعضُ الصحف السعودية متحدثة عن نشاطه العلمي، والأدبي، والتاريخي، وعبرت عن الفراغ العلمي الذي تركه، من هذه الصحف: ملحق الأربعاء بصحيفة المدينة المنورة، وقد جاء تحت العنوان الآتي:

---

(١) الكردي المكي، محمد طاهر بن عبدالقادر، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ج٥، ص٨ - ٢١.

«ملحق التراث يشاطر العالم الإسلامي في مصابه بالخطاط المكي محمد طاهر الكردي كاتب مصحف مكة المكرمة.

كان علَماً من علماء العهد الماضي، ورائداً من روّاد العلم، وحملة القرآن الكريم، وداعياً من دعاة الشريعة، والحق والخير، قضى حياته راضياً مطمئناً في النفع، والتثقيف، ونشر العلم، وبذل وقته وجهده وماله - بلا نصب ولا تعب - قارئاً مستقرئاً، كاتباً مستكتباً، لا يريد مالاً، ولا جاهاً، ولا رياء، ولا سمعة كفاء ما يقرأ، أو يكتب، أو ينشر من العلم والتقوى، والقدوة الصالحة، وإنما يبتغي وجه الله تعالى، ويطلب أن ينفع الله بما يعمل، ويكتبه به من العلماء المخلصين المقبولين، ويحشره مع الذين أنعم عليهم من النبيين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ولم يزل على هذه الحال مورداً عذباً للظامئين من طلبة العلم، ومعيناً لا ينضب بعلمه الغزير، وسلوكه القويم، ونبراساً لشباب هذا الجيل الصاعد وما يليه في الصمود على الحق، والجلد في طلب العلم، والصبر على مشكلات الحياة، وصحة العزيمة على فعل الخير، وإسداء النفع للآخرين، حتى لقي وجه الله تعالى، في جدة، مساء يوم الأحد، قبل الفائت، ودفن - في مكة المكرمة - بعد صلاة العصر من اليوم التالي.

إنه المرحوم الشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط، كاتب مصحف مكة المكرمة، والخطاط بمديرية المعارف العامة بمكة المكرمة - سابقاً - والشاعر المبدع صانع المنظومة المشهورة للكعبة الشريفة، ووصفها، في مئة وتسعة وثلاثين بيتاً، والمؤلف الفذ صاحب التصانيف الكثيرة في فنون متعددة، من أظهرها فن الخط، ورسم القرآن الكريم، وتاريخه، وحكمه، وجمعه، وكتابته، وترتيب آياته، وسوره، وضبطه وتصحيحه، وهي فنون دقيقة فتح الله - سبحانه وتعالى - بها عليه،

بعدما تجرّد لكتابة المصحف الشريف، فكانت هذه الفنون جميعها – بحق– من بركة هذه الكتابة.

من أعماله المشهورة – رحمه الله –: أن وفّقه الله تعالى لكتابة القرآن الكريم، بخط يده، كاملاً، كتبه على وفاق رسم المصحف العثماني، نقلاً عن المصحف الذي طبعته الحكومة المصرية، سنة ألف وثلاثمئة واثنتين وأربعين للهجرة (١٩٢٣م)، تحت إشراف مشيخة الأزهر، ومشيخة المقارئ العمومية.

وقد انتهى – رحمه الله – من كتابة هذا المصحف الشريف، في ختام سنة ألف وثلاثمئة واثنين وستين للهجرة، فتألفت لجنة من العلماء، في المملكة، للعناية بتصحيحه، وهم السيد أحمد حامد التيجي، والشيخ عبدالظاهر أبو السمح، والسيد محمد أحمد شطا، والسيد إبراهيم سليمان النوري، والشيخ علي محمد الضباع، فطبع باسم «مصحف مكة المكرمة»، فكان أول مصحف يكتب، في مكة المكرمة، في العصر الحديث، وأول مصحف يطبع أيضاً في مكة المكرمة، أوائل سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م.

ومن مؤلفاته:

- تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه، وهو يبحث في التعريف بالقرآن الكريم، وما يتضمنه من الإعجاز والشمول في الأحكام، والآيات، وفي جمعه، وكتابته، وترتيب آياته، وسوره، وضبطه، وتصحيحه، وفي غرائب رسم كلماته، وحكم اتّباع رسمه، وسبب نقط حروفه، وتشكيلها، وهل رسمه توقيفي أو لا؟ وقد طبع هذا الكتاب طبعتين، في شركة مصطفى البابي الحلبي للطباعة في مصر، غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) وصيف سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م).

- مقام إبراهيم عليه السلام ويتناول بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة: بناء إبراهيم الخليل عليه السلام وبناء قريش، وبناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، مزداناً بصور مبتكرة للكعبة المشرفة، في هذه البناءات الأربعة

وفق ما ورد في كتب التاريخ المعتمدة. وقد طبع الكتاب في القاهرة طبعة واحدة، سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م).

- منظومة في بناء الكعبة المشرفة، وهي منظومة لطيفة في وصف بناء البيت الحرام، في أدواره الأربعة: بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، وبناء قريش، وبناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وضعها المؤلف لاعتقاده بأن النفوس المهذبة تستحلي سماع الشعر، وإنشاد القريض، وأن الطلاب الأذكياء ترسخ في عقولهم الأبيات الشعرية أكثر من النثريات، وبخاصة ما كان منها سهل الوزن لطيف المعنى. نشر المؤلف هذه المنظومة مرتين، مرة في الهند أوائل سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م)، ومرة في القاهرة سنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢م).

- حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة، وهو تأليف مستقل في الخط، وأدوات الكتابة، يأتي على أنواع الخط، وأشكاله، وما ورد فيها من أقوال للسلف الصالح، وفي وصفها، وذكر محاسنها، نثراً وشعراً، ويأتي على أدوات الكتابة المختلفة، ظهورها، وتطورها وما جاء فيها، من شعر، ونثر، في أقوال السابقين. وقد طبع الكتاب في مصر، سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م).

- مجموعة الحرمين: كراسات في تعليم خط النسخ، كان المرحوم الشيخ محمد طاهر الكردي قد وضعها للناشئين والراغبين في تعلم الخط النسخي؛ استجابة لرغبة المعارف العامة بمكة المكرمة، وقد طبعت هذه الكراسات في مصر غير مرة.

وله - رحمه الله - عدد آخر من المؤلفات المخطوطة، التي ما تزال في انتظار الطبع والنشر، منها:

- الموعظة الحسنة في عدم اليأس والصبر والتفويض.

- إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة.

- تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد.

ومن شعره:

قوله:

كم عاقلٍ فاضلٍ تلقاه مضطرباً ... وجاهلٍ خاملٍ تلقى به طربا
هذا له الحظ في الدنيا وذاك له ... عزٌّ من الله في أخراه قد وجبا

وقوله:

لقد استراح من الحياة وكدّها ... ومن الهموم ورؤية الأهوال
من مات أو من جنّ أو متبتل ... لزم القناعة صادق الأحوال

وقوله:

دع الأمر تحت القضا والقدر ... فما ينفع العقل لا والحذر
فمن رام سخطاً على ما جرى ... فذاك الكفور وشر البشر
ومن سلّم الأمر نال المنى ... وما يبتغيه ونال الظفر
فصبراً جميلاً على ما قضاه الـ ... إلاه عساه يزيل الضرر
ولا تتركنّ الدعا والطلب ... فإن اللطيف به قد أمر
ولا تركبن بحار الهوى ... فإن المعاصي قرين الخطر

وقوله:

زدني بفرط الابتلاء تصبّرًا ... والطف بما قدرته فيما جرى
يا من له عنت الوجوه جميعها ... رحماك فالعبد الذليل تحيّرا
إن لم يكن لي منك لطف شامل ... أو فضل إحسان علي مكررا
فمن الذي أرجو لكشف بليتي ... أو من إليه أميل من بين الورى
والكل مفتقر إليك وسائل ... من فيض جودك نقطة أن تقطرا
لا أرتجي أحداً سواك وأنت لي ... نعم الملاذ ومن رجاك استبشرا
إني سألتك والهموم تراكمت ... والدهر عاند والزمان تنكّرا
حاشا تُخَيِّب من رجاك مؤملاً ... مهما جنى أو كان فيك مقصّرا

وله – رحمه الله – في باب النثر حكم وأمثال مبتكرة، منها:

– حركات المرء تدل على عقله.
– حفظ المعروف من المروءة.
– لا تهدِ شيئاً لمن لا يقدّره.
– تقدير الأعمال يزيد نشاط العمّال.
– مراعاة إحساس الأصدقاء تقوي حبل الصداقة.
– العزيز إذا افتقر هان.
– دوام العزلة يميت النشاط والهمّة.
– الاعتراف بالإحسان من كمال الإنسان.
– إذا افتقر العاقل تعرّض للزلل.
– الاستبداد والقسوة يورثان البلادة والجفوة.
– هضم الحقوق موجب للعقوق.
– لا ينهض المرء بفقره.
– الكريم إذا ضاقت به الأحوال لم يختلط بالناس.
– المال أساس النجاح.
– المال يستر العيوب.
– الكريم بلا مال كالشجاع بلا سلاح.
– الأحمق واللئيم يضيع معهما المعروف.
– كثرة الخضوع نفاق.
– لا يشقى من حالفه الحظ.
– لا تحتقر ضعيف اليوم فقد يصبح غداً عظيماً.
– لا تتودد إلى من لا يعتبرك.

- الفوضى عاقبتها الفشل.
- الصبور إذا انتقم بطش.
- الانهماك في العمل يؤدي إلى الملل.
- من احترم غيره فقد احترم نفسه.
- الوظائف تكيف الرجال، والرجال تنهض بها.

فلله هذه النفس العالية، وفضائلها الجليلة، ولله هذا التكوين الموسوعي المحبب في ثقافة الرجل، ولله هذه الهمّة الأدبية، والجلد العجيب في خدمة كتاب الله الكريم ولغته، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وتغمّده بفضله وإحسانه»[١].

(١) مقال نشر بصحيفة المدينة، العدد ٤٨٦١، يوم الخميس ٣ من شهر جمادى الأولى ١٤٠٠هـ ص٩.

دراسة كتاب:

مقام إبراهيم ونبذة من ترجمة إبراهيم الخليل وتاريخ الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وفضل مكة المكرمة

تأليف العلامة الشيخ محمد طاهر كردي الخطاط

الدراسة:

لا يخفى أن الاهتمام بالمشاعر المقدسة تدويناً، وتاريخاً، وتشريعاً أحد أهم الموضوعات التي تشغل فكر المثقفين كافة في العالم الإسلامي بعامة، والمكيين بخاصة، فقد أبدعوا في التأليف فيها أيما إبداع[1].

المؤلف المكي العلامة الشيخ محمد طاهر كردي المكي أحد الأعلام الذين أنجبتهم مكة المكرمة، تنسموا عبير قداساتها الطاهرة، لا جرم أن يكون له ولأمثاله من المكيين الاهتمام الكامل بمقدساتها: مشاعرها، ومعالمها.

كتابته عن مقام إبراهيم بخاصة، والبيت الحرام وتاريخ مكة المكرمة بلده الذي ترعرع في رحابه الطاهرة، شرف الانتساب إليها دَين في ذمة كل مكي، يقضيه الوفاء أن يسهم في انبعاثها، علماً وديناً، وثقافة وفكراً.

من هذا المبدأ تنطلق كتابات الشيخ محمد طاهر كردي المكي عن مكة المكرمة وآثارها، ومآثر أهلها الكرام.

موضوع هذا الكتاب أصالة (مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام) أحد المشاعر المقدسة بالمسجد الحرام، وهو من الموضوعات التي ندرت دراستها وبحثها موازنة بما كتب عن سواه من المشاعر المقدسة، ومعالم مكة الطاهرة، فقد بين المؤلف في المقدمة أهمية موضوع الكتاب، وأنه

(١) (إبداع الفقهاء في فقه المناسك) موضوع تحت الإعداد لمؤلفه عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان.

الأول من نوعه، والفريد في بابه؛ إذ لم يقف على رسالة خاصة في هذا البحث الجليل، إلا ما دونه العلماء في كتبهم من تفسير، أو حديث، أو تاريخ، وذلك في عبارته الآتية:

«فعلى ما أعلم أنه الأول من نوعه، والفريد في بابه؛ إذ لم أقف على رسالة خاصة في هذا البحث الجليل، اللهم إلا ما دونه العلماء في كتبهم من تفسير، أو حديث، أو تاريخ»[١]. وقد أضاف إلى هذا العنوان:

(نبذة من ترجمة إبراهيم الخليل وتاريخ الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وفضل مكة المكرمة)

قد وفى المؤلف - رحمه الله تعالى - بجميع عناصر العنوان كتابة وبحثاً، ولابد من مناقشة ما كتبه عن هذا الموضوع في المقدمة.

أما أن هذا الكتاب الأول من نوعه فهذا صحيح، على ما أحاط به علمه - رحمه الله تعالى - وكما هو معلوم فإن عالم التأليف واسع سعة الزمان والمكان؛ وهذا ما تصعب الإحاطة به، خصوصاً أن العالم الإسلامي يشغل مساحة واسعة من خريطة العالم قديماً وحديثاً، وعلى قدر اتساعه زماناً ومكاناً فإن الله جل وعلا منحه قدراً وافراً من العلماء، والمؤرخين، والأدباء، والمفكرين في كل جزء من هذا العالم الفسيح، في كل علم وفن، لا يحيط بأعدادهم ونتاجهم العلمي إلا خالق الكون جلّ وعلا.

لم يصل إلى علم المؤلف - رحمه الله تعالى - أن من المؤلفين من أفرد مقام إبراهيم عليه السلام بالتأليف عبر الزمان، وله العذر في ذلك؛ إذ لم تكن الإمكانات لمعرفة هذا وأمثاله متاحة، كما هي في الوقت الحاضر.

من الذين أفردوا مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالتأليف:

---

(١) (مقدمة المؤلف) لهذا الكتاب.

١- العلامة ابن الجزري الشافعي، محمد بن محمد بن علي بن يوسف أبو الخير شمس الدين العمري الدمشقي، ثم الشيرازي، المتوفى سنة ٨٣٣هـ «له مؤلف أفرده بذكر المقام»[١].

٢- العلامة الشيخ علي دده البوسنوي - رحمه الله تعالى - المتوفى سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م، ألّف رسالة بعنوان: (تمكين المقام في المسجد الحرام رسالة مقامية في فضل المقام والبيت الحرام) طبعت سنة ٢٠٠٨م بتحقيق أحمد جمعة عبدالحميد، الناشر له المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة، وقد خص المؤلف - رحمه الله تعالى - كما هو واضح من العنوان مقام إبراهيم عليه السلام بالدراسة والبحث.

أُتيح للعلامة الشيخ علي دده البوسنوي - رحمه الله تعالى- أن يتولى أمر عمارة مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام «حيث قام بأمر السلطان العثماني مراد الثالث (ت ١٠٠٣هـ) بترميم المقام الإبراهيمي، والذي لم يكن رمم من أكثر من أربعمئة عام...»[٢].

يقول محقق هذا الكتاب في بيان خصائص هذا المؤلف:

«وهذه الرسالة تتميز عن المصنفات التي كتبت حول الحج والشعائر الدينية والآثار التاريخية في مكة المكرمة؛ حيث إنها تسجيل لحدث تاريخي لشعيرة من أهم الشعائر، وأثر من أهم الآثار الموجودة في مكة المكرمة، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن هذه الرسالة كتبت مِنْ قِبَل من قام بالحدث، ومن كلف بالترميم...

---

(١) السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، الطبعة الأولى، تحقيق جميل عبدالله محمد المصري (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ج١، ص٥١٨.

(٢) تمكين المقام في المسجد الحرام، رسالة مقامية في فضل المقام والبيت الحرام، ص٣.

ومن الجانب الفني أيضاً أن هذه الرسالة كتبها بخط يده...»[(١)].

أراد المؤلف علي دده البوسنوي - رحمه الله تعالى - أن يوثق هذا الحدث في كتابه حيث قال في مقدمته:

«فاستخرت الله تعالى أن أجمع رسالة مقامية مكية في فضل المقام والبيت الحرام؛ شكراً لله بحصول المرام بأن الله تعالى أنعم وأحسن على أفقر الورى، وأحقر عبيده حيث أقامه في تعمير المقام، وتجديده على يده، كان الله له فيما يرضاه.

فرتبت رسالة المقام على سبعة مشاهد، وخاتمة، عدد الطواف بالبيت، وعدد السعي بين الصفا والمروة؛ لأن السبع أس الأعداد ومجمعها ومحتداها...»[(٢)].

لعل المستقبل يَكشَف لنا عن مؤلفات أخرى كتبت في هذا الموضوع، ولم تصل إلى علمنا.

من المصادفات العجيبة أنّ مباشرة العلامة الشيخ علي دده البوسنوي عمارة مقام إبراهيم وتكليف الخليفة العثماني إياه ذلك في مطلع القرن الحادي عشر الهجري تكاد تتماثل هي وحقيقة تدوين فضيلة الشيخ محمد طاهر كردي المكي الخطاط، رحمهما الله تعالى؛ ذلك أن الشيخ محمد طاهر كردي مؤلف هذا الكتاب كان له الإشراف المباشر على ما جرى في هيكل مقام إبراهيم القديم من تطوير في العصر الحديث، وأخذ رسوم القدمين الشريفين ومقاساتهما بشكل دقيق، نشرت منفردة، وضمن هذا الكتاب، وكتابه الموسوعي (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم)[(٣)]

---

(١) البوسنوي، علي دده، تمكين المقام في المسجد الحرام ص٤.

(٢) تمكين المقام في المسجد الحرام ص١٦.

(٣) الطبعة الأولى (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)، الجزءان ٥ و٦ سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).

فقد كان عضو اللجنة التنفيذية لمشروع توسعة الحرم المكي الشريف، متفرغاً للإشراف على أعمال ترميم الحرم الشريف، مكّنه هذا ـ بحسه العلمي الدقيق ـ أن يؤلف هذا الكتاب، ويكتب كتابة موثقة عما كان عليه الحرم الشريف قبل التوسعة السعودية الأولى في كتابه (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم).

لما كان المؤلف – رحمه الله تعالى – قد ألّف هذا الكتاب قبل التوسعة السعودية للحرم الشريف سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، ومن حسن الحظ أنه أحد المعينين من العلماء للإشراف على عمارة المسجد الحرام، وكان – رحمه الله تعالى – عضواً فاعلاً في لجنة الإشراف، فأعطي صلاحية واسعة في التوجيه، والإشراف، والتوقيع للأمكنة، فكان – رحمه الله تعالى – عيناً ساهرة على عمليات الهدم، والبناء في أعمال التوسعة مع غيره من العلماء الكرام، وقد دوّن هذا بالتفصيل في كتابه الموسوعي (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم).

حرصه الشديد – رحمه الله تعالى – على حرمة المقدسات، ومحافظته على الآثار الإسلامية في مكة المكرمة باديان ظاهران فيما دَوّنه من حقائق تاريخية، وصور فوتوغرافية أبقتها في الذاكرة على مر الأجيال.

والذي أحاط به العلم أنه ألّف في العصر الحديث عن مقام إبراهيم تبعاً:

١– العلامة المؤرخ الشيخ عبدالله حسين باسلامة – رحمه الله تعالى – (١٢٩٩– ١٣٦٤هـ) بعنوان: (تاريخ المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم وغير ذلك).

٢– الأستاذ الدكتور سائد بكداش – حفظه الله – بعنوان: (فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلق بهما) في طبعته الأولى سنة ١٤١٦هـ (١٩٩٦م) أي: بعد تأليف كتاب فضيلة الشيخ طاهر كردي – رحمه الله – بتسعة وأربعين عاماً على الأقل.

أما المؤلفات التي تحدثت عن مقام إبراهيم في نهاية القرن الرابع عشر الهجري فهي دارسات عرضت لبحث مشروعية تحويل المقام عن مكانه لتفادي زحمة الطائفين، وقد اختلف فقهاء العصر بين مؤيد ورافض لتحويله عن مكانه، وألّفت في هذا الموضوع عدة رسائل، من أهمها:

١- تحقيق المقال في جواز تحويل المقام: تأليف فضيلة الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود -رئيس المحاكم الشرعية بقطر - الدوحة.

٢- مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، هل يجوز تأخيره عن موضعه عند الحاجة لتوسيع المطاف؟ تأليف عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني - أمين مكتبة الحرم المكي.

٣- نقض المباني من فتوى اليماني، وتحقيق المرام فيما تعلق بالمقام: تأليف سليمان عبدالرحمن بن حمدان.

٤- نصيحة الإخوان ببيان بعض ما في نقض المباني لابن حمدان من الخبط والخلط والجهل والبهتان: تأليف صاحب السماحة مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.، ويليها: الجواب المستقيم في جواز نقل مقام إبراهيم لسماحته أيضاً.

ضم إلى العنوان الرئيس (نبذة من ترجمة إبراهيم الخليل وتاريخ الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وفضل مكة المكرمة)، وهو موضوع يتصل بالمنهج.

منهج المؤلف:

(مقام إبراهيم) المشعر المقدس هو الموضوع الأساس في كتاب الشيخ محمد طاهر الكردي المكي، درسه المؤلف - رحمه الله تعالى - بمهارة العالم المدقق، ذي الأفق الواسع، والحس الديني الحضاري.

عود على بدء أعني الكلام على عنوان الكتاب ومحتواه:

بدأ المؤلف – رحمه الله تعالى – أول ما بدأ بعرض (ما ورد في القرآن في فضل البيت الحرام ومقام إبراهيم عليه السلام)، وهو استهلال مناسب جداً.

وبأعمال إبراهيم عليه السلام بالحرم الشريف حيناً، فتحدث عن:

١– بناء إبراهيم الكعبة المعظمة.

٢– قصيدة شعرية عن (البيت الحرام) لأمير الشعراء شوقي بك.

٣– صفة بناء الكعبة المعظمة، كيفية بناء إبراهيم عليه السلام.

٤– كيفية بناء قريش.

٥– كيفية بناء ابن الزبير.

٦– كيفية بناء الحجاج الثقفي.

٧– سبب بناء الحجاج الكعبة.

٨– كيفية عمارة السلطان مراد الرابع.

أتبع هذا برسوم مختلفة للكعبة المشرفة حسب تصوره «على صفة ما جاء في كتب التاريخ» في إطار فني جميل من رسمه، مدوناً تاريخ كل بناء، وهو – رحمه الله – بهذا التصور للكعبة المشرفة في مختلف العصور يعد رائداً في هذا الموضوع لم يسبق إليه.

أتبع ما سبق من تاريخ الكعبة عبر العصور بنظم من تأليفه يحكي ما سبق من التاريخ نثراً، فقد كان – رحمه الله تعالى – مولعاً بنظم ما يتعلق بالكعبة المشرفة، والمشاعر المعظمة، وقد استغرقت هذه الموضوعات من صفحة ٥٨ حتى صفحة ١٠٣، [على طبعة القاهرة].

هذا المنهج فرض عليه الكتابة في بعض الموضوعات المحيطة بمقام إبراهيم عليه السلام، وصلتها الموضوعية به أنها مشاعر مقدسة، ومعالم تاريخية لها

أقوى العلاقة بالمسجد الحرام، بل إنها في محيطه العمراني، فهو استطراد مفيد، ولو قدر أن يكون للكتاب عنوان آخر مختصر دالٌّ على مضمونه لقيل: (المسجد الحرام مشاعر ومعالم) ولكن عناوين المؤلفين لا تغير.

٩- خص بناة الكعبة المشرفة بتراجم، استغرقت صفحة (٥٠- ٥٧).

١٠- خص مقام إبراهيم عليه السلام بالصفحات (١٠٤ - ١٢٣)، وهو قدر يسير موازنة بالموضوعات السابقة التي تكلم عنها.

١١- أدرك المؤلف في كلمة ختامية في نهاية الكتاب أنه استطرد كثيراً في الشطر الأول من الكتاب، وهذا - كما هو معروف - من منهج المتقدمين؛ إذ الاستطراد لديهم محمدة، ومنقبة حميدة في الكاتب؛ ولهذا يقول - رحمه الله تعالى - دفاعاً عن هذا المنهج: «وقد سميته مقام إبراهيم عليه السلام مع أن شطره الأول يتعلق بالكعبة والمسجد الحرام، والشطر الثاني يتعلق بالمقام، لكن لا تعاب الزيادة على العنوان، وإنما يعاب فيه النقصان»[1].

خصائص الكتاب:

احتوى الكتاب على مجموعات من الخصائص العلمية يمكن إيجازها في الآتي:

١- ابتداءات موفقة، ملائمة لعنوان الكتاب وموضوعه، مع عرض شائق، واقتباسات موضوعية مناسبة من القرآن الكريم.

٢- إحياء المدرسة التاريخية المكية:

يعد فضيلته في أسلوبه التاريخي الدقيق، وتحقيقه للأماكن، وأوصافها في هذا الكتاب وسواه مما ألّفه عن مكة المكرمة امتداداً لما تتميز به المدرسة التاريخية المكية من الدقة والتفصيل، والاهتمام الخاص تحقيقاً

(١) (كلمة ختامية) لهذا الكتاب.

وتدقيقاً بكل ماله علاقة وتعلق بمكة المكرمة والمسجد الحرام، فمما يذكر له في هذا الصدد قيامه بنفسه بأخذ أقيسة الكعبة، وحدود المطاف: «لقد قمنا في شهر رجب سنة ١٣٦٧هـ بأخذ أقيسة الكعبة وما حولها من المطاف ما عدا ارتفاعها من سطحها للأرض...»، ثم أضاف: «لم نر من تعرَّض قبلنا لحدود المطاف بالمتر...» ثم وضع لهذا جدولاً بعنوان «بيان ارتفاع الكعبة وطولها، وحدود المطاف»[١]، وكأننا بهذا الوصف والدقة نعايش المؤرخين المكيين الأقدمين مثل الأزرقي، والفاكهي، وآل فهد، والفاسي، رحمهم الله جميعاً.

٣- التعريف ببعض الأماكن التاريخية المهمة بالمسجد الحرام، منها الموجود، ومنها التي أصبحت تاريخاً في الوقت الحاضر مثل: خزانة الكعبة، ومنبر المسجد الحرام القديم، وحِجر إسماعيل وقبره ﷺ، والرخامة الخضراء التي بداخل الحِجر، والحفرة التي عند باب الكعبة، إعادته للأذهان ما اختفى من الوجود لبعض المعالم التاريخية مثل الحفرة الواقعة عند باب الكعبة المشرفة.

٤- تحقيقه في صحة بعض الأمور، وتوصله إلى رفض بعضها، وهذا منهج ثابت للمدرسة التاريخية المكية؛ إذا لم يجد ما يؤيدها من دراسته ومراقبته الخاصة، من ذلك ما يشاع لدى بعضهم، وفي بعض الكتب، أنه لا يعلو الكعبة من الحمام إلا العليل المريض بقصد الاستشفاء، وردّه على ذلك بطريقة علمية موضوعية، انتهى في هذا إلى نتيجة: «أن ما يشاع لدى الناس: بأن حمام الحرم لا يعلو الكعبة المشرفة، وإن علاها فإنما هو للاستشفاء وهم لا حقيقة له، ودعوى لا دليل عليها»[٢]. من هذا أيضاً تحقيقه وجود قبر سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الحِجر.

---

(١) (مقاييس الكعبة وحدود المطاف) من هذا الكتاب.

(٢) (وقوع الحمام على الكعبة المعظمة) من هذا الكتاب.

٥- ابتكار المؤلف - رحمه الله تعالى - رسومات الكعبة في مراحلها المختلفة مستوحياً ذلك من تاريخها، ووصف المؤرخين لها، ساعده على هذا مواهبه الفنية، ولهذا جاءت في تصوير بديع، وتنسيق جميل لم يسبق إليه.

٦- تجديده الحديث عن الكعبة والبيت الحرام، وحدوده، والزيادات التي حصلت فيه.

٧- أمانته العلمية: فقد أفصح عن مصادر الكتاب الرئيسة، وعمدته في هذا من كتابات المتقدمين: كتاب (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) لأبي الوليد الأزرقي، ومن المعاصرين له: كتاب (تاريخ الكعبة المعظمة)، و(تاريخ عمارة المسجد الحرام) كلاهما من تأليف العلامة الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة.

٨- قدم بترجمة حافلة لسيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وذكر مصادره في دقة وأمانة، وعمدته في هذا النقل المصادر الآتية: كتاب (البداية والنهاية) للعلامة المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي، كتاب (إبراهيم الخليل أبو الأنبياء) للأستاذ محمد حسني عبدالحميد. صرح المؤلف - رحمه الله تعالى - بهذه المصادر، وأرقام الصفحات التي اقتبس منها.

أنهى هذه الترجمة بـ «تتمة»، وصرح بمصدر الاقتباس فيها، وختم مقالته بما يدل على الأمانة والدقة التامة بالعبارة الآتية: «كل ذلك من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام من غير أن نعلق عليه بشيء»[1].

٩- وثق - رحمه الله تعالى - اقتباساته في أول النص المقتبس، وذلك بذكر اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، وأرقام الصفحات.

١٠- ظهور شخصية المؤلف وخصائصه العلمية في هذا الكتاب واضحة جلية من الآتي:

---

(١) (تتمة) من هذا الكتاب.

أ - اجتهاده في بعض المسائل الفقهية فيما يتصل بمقام إبراهيم.

ب - اجتهاده في تفسير بعض الأمور الاجتماعية، من جملة هذا: ما طرحه من أسئلة فيما يخص مواد بناء سيدنا إبراهيم للكعبة المشرفة، وإجابته عن تلك الأسئلة إجابات سديدة. كذلك تسويغه اختلاف بنايات الكعبة: «أما اختلاف البنايات فيه... فليس في ذلك بأس ما دام البناء لم يخرج عن الأساس الأول، ولم يتحول عن قواعد إبراهيم عليه السلام، فاتباع الأساس هو الشرط الأول؛ أما البناء على صفة مخصوصة فإنه لم يرد من الشارع»[١].

ج - الحفرة التي عند الكعبة المشرفة: ذكر الأقوال التي تبين حقيقتها، وأبطل بعض المقولات عنها:

«فقد قيل: إنها المعجن، عجن فيها إسماعيل عليه السلام الطين لبناء البيت الحرام، فهذا القول غير صحيح وبعيد الاحتمال؛ لأمرين:

الأول: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما بنيا الكعبة المشرفة بالطين ولا بالجصّ، وإنما رضماها رضماً ولم يسقفاها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أما والله ما بنياه بقَصّة ولا مَدَر، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه، ولكنهما أعلماه فطافا به). رواه الأزرقي في تاريخه.

الثاني: لو فرض أن إسماعيل كان يعجن الطين للبناء للزم أن يعجنه عند كل جهة من الجهات الأربع للبيت، حتى لا يحمله ويدور حول البيت فيتعب، على أن هذا الموضع صغير لا يكفي لعجن الطين الكثير اللازم لبناء البيت الحرام.

فعلم مما ذكرناه أن ما قيل: إن الحفرة هي معجن إسماعيل عليه السلام غير صحيح»[٢].

---

(١) (اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها) من هذا الكتاب.

(٢) (الحفرة التي عند باب الكعبة) من هذا الكتاب.

أخيراً توصل – رحمه الله – إلى ما هو أقرب الاحتمالات، فقال:

«وقيل: إن شطر الحفرة الملاصق للكعبة هو موضع مقام إبراهيم عليه السلام قبل أن ينقله عمر رضي الله عنه، وهو أيضاً موضع المقام حينما أخذه سيل أم نهشل إلى أسفل مكة، فلما جاء عمر من المدينة نقله منه إلى موضعه الآن؛ فهذا القول غير بعيد، بل هو الصواب...

وقيل: إن الحفرة هي مصلى جبريل بالنبي ﷺ حين فرضت الصلوات الخمس، وقد ذكر ذلك كثير من العلماء، منهم: الأزرقي، فروى بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أمّني جبريل عند باب الكعبة مرتين». فهذا القول أقرب إلى الصحة، بل هو الصواب أيضاً، ويطابق القول المتقدم؛ لأن مقام إبراهيم كان في شطر الحفرة الملاصق للكعبة كما ذكر، فوافقت صلاتهما عنده قبل نزول: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1] فكأن صلاة جبريل بالنبي ﷺ هناك إشارة إلى أنه سيؤمر هو وأمته بالصلاة عند المقام، والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

د – جاءت دراسته مجانسةً بيئته المكية، ومزجها بمهاراته العلمية، وخبراته التعليمية.

هـ – وقوفه الشخصي على الأماكن المقدسة الشريفة، ووصفه لها من كتب، ومن أهمها موضوع هذا الكتاب (مقام إبراهيم)، وقد تجلى بعض هذا في مقالته عنه: «وبعد تنظيف المقام من الأتربة والغبار دخلت أنا محمد طاهر الكردي المكي الخطاط مؤلف هذا الكتاب إلى داخل الصندوق الذي فيه نفس حجر مقام إبراهيم عليه السلام لإجراء البحث الدقيق عليه، ومكثت في داخل الصندوق نحو ساعة ونصف، أي: تسعين دقيقة تقريباً، وحجر المقام الشريف بهيئته بين يديّ، ثم طلبت من صديقنا

(١) سورة البقرة، الآية رقم (١٢٥).

(٢) (الحفرة التي عند باب الكعبة) من هذا الكتاب.

الشيخ عمر عبدالجبار المذكور أن يجلس بجانبي داخل الصندوق ليساعدني في مسك الأوراق وضبط القياسات، فجلس بجواري ملتصقاً بي لضيق الصندوق، وقد جلس أمامنا جمع كثير، ومن ذكرنا أسماءهم يشاهدون أبحاثنا الدقيقة حول المقام الكريم»[١].

و - باحث جاد صاحب مواهب متعددة؛ فقد ظهرت له عدة مؤلفات ذات قيمة علمية كبيرة في فنون متعددة؛ وهذا دليل على أنه خص الجزء الأخير من خاتمة الكتاب بكلمة ضافية عن معاناة المشتغلين بالتأليف ذاكراً جزء الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢] واستشهاده ببيت الشعر المشهور:

«لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها»[٣]

ز - أمضى المؤلف - رحمه الله تعالى - نحو خمسة أشهر في تأليف هذا الكتاب، فقد كان ابتداء تأليفه في شهر ذي القعدة سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)وانتهى من تأليفه في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)، وهو وقت قياسي لتأليف مثل هذا الكتاب، خصوصاً أن العلماء والمثقفين في مكة المكرمة غالباً ما يكون عندهم شهرا ذي القعدة وذي الحجة شهرين مخصوصين لاستقبال ضيوف الرحمن، والاشتغال بأعمال الحج المعتادة، والعلماء الذين ليس لديهم ارتباط بأعمال الحج يستقبلون العلماء القادمين للحج؛ للتعرف إليهم، والاشتغال بضيافتهم، والاجتماع بهم لتبادل الإجازات والمذاكرات العلمية.

ح - حديث المؤلف - رحمه الله تعالى - حديث متسلسل دون انقطاع عن مقام إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم - تاريخاً، وفقهاً في

---

(١) (صفة المقام) من هذا الكتاب.

(٢) سورة فاطر، الآية رقم (١٤).

(٣) (كلمة ختامية) من هذا الكتاب.

حلقات متصلة منذ عهد سيدنا إبراهيم ﷺ حتى عصره، عشر السبعين من القرن الرابع عشر الهجري، وما جرى عليه من إحداثات تاريخية.

نظرات في الكتاب:

لن ينقص من قدر المؤلف والكتاب النظر فيه بما يؤاخذ عليه، فلكل جيل منهجه وأسلوبه، وما يعدّ حسناً في عصر رُبّما لا يعدّ كذلك في عصر آخر، والعكس صحيح، ومن هذه النظرات:

١- ولع المؤلف بالاستطراد فيما له علاقة بالموضوع، ولو لأدنى مناسبة، مثال هذا: ما أورده من قصص تحت عنوان: (الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف) وهي وإن كان لها تعلق بالمكان: (المطاف) فإنه ليس لها تعلق بموضوع الكتاب، وأحياناً فيما ليس له علاقة بالموضوع أصلاً، مثال هذا: إنه نفذ من كلامه عن وضع المقام في مكانه الحالي إلى موضوعات لها علاقة بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليس لها علاقة بموضوع الكتاب، مثل: زيادة عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام، وردم عمر رضي الله عنه، وغير ذلك من الموضوعات التي تعد خارجة عن الموضوع الأساس، ومن ضمنها الكلام على كثير من الموضوعات ذات العلاقة بحِجر إسماعيل ﷺ، ومن استطرادات المؤلف - رحمه الله تعالى - إشباعه الحديث عن حمام الحرم، فقد خصه بعنوان مستقل ودراسة من مراقبته الشخصية تحت عنوان: (حمام الحرم)، (وقوع الحمام على الكعبة المعظمة).

ومن هذه الاستطرادات: ذكره قصائد ثلاث في المفاضلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم الحكم بين القصيدتين لشاعر من جدة تحت عنوان: (نادرة طريفة).

وقد شعر بطول استطراداته، وتنوعها، فسوّغ ذلك في مقدمة حديثه عن المقام بقوله: «لقد تقدم الكلام في الشطر الأول من الكتاب على الكعبة المعظمة والمسجد الحرام بما فيه الكعبة، وذلك لما له من المناسبة القوية، فإن المقام الشريف لم يكن إلا وسيلة لإكمال بناء البيت الحرام الذي هو المقصود قبل كل شيء»[١].

٢- آخراً وليس أخيراً كان المؤلف - رحمه الله - سعيداً بإنجازاته العلمية غير المسبوقة، ومنها وضع رسوم متعددة للكعبة المشرفة عبر التاريخ لم يسبق بها، وقد أسهب في الكلام على معاناة المؤلفين، وشرح من أحوالهم وأوضاعهم ما يجعلهم في صفوف المجاهدين، وهو في هذا لم يجانب الصواب.

٣- الغرض الأساس من إعادة طبع هذا الكتاب هو مواصلة الدراسة وإكمال الحلقات التاريخية لما جرى بهذا المشعر من ترميمات، وتطور بعد كتابة المؤلف حتى العصر الحاضر؛ لهذا وُضعت (لواحق) في نهاية الكتاب تكملة له؛ ليستوفي الموضوع حقه من الرصد التاريخي حتى العصر الحاضر.

العمل في هذا الكتاب:

أولاً: من الظلم للعلم أن يعد هذا العمل تحقيقاً للكتاب بمفهومه الكامل الصحيح، فالنص منطبق على ما خطه المؤلف - رحمه الله - في طبعته الأولى سنة ١٣٥٦هـ، وقد أشرف المؤلف - رحمه الله تعالى - على طباعته، وبالأحرى تصحيح نصوصه، فلا تصح دعوى التحقيق، ولكنّ فيه بعضاً من أعمال التحقيق، وهو توثيق النصوص المقتبسة من المصادر التي حظيت بالطبع، أمثال كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام) فقد

---

(١) (مقام إبراهيم عليه السلام) من هذا الكتاب.

أصبح - والحمد لله - مطبوعاً، فاقتضى هذا متابعة النصوص في مصادرها المطبوعة، وتوثيقها منها؛ ليسهل على القارئ الباحث متابعتها في المتاح منها لديه.

ثانياً: أتم المؤلف - رحمه الله تعالى - كتابة تاريخ مقام إبراهيم عليه السلام حتى آخر مراحل تجديد مكانه وتطويره بنَفَس تاريخي حتى العصر الحاضر لمدة متأخرة عن مؤَّلفه هذا (مقام إبراهيم)، فقد قدر له الإشراف المباشر، والرأي السديد في الموضوع، مدوناً مشاهداته، وتوثيقاته في كتابه الموسوعي (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم)؛ فلذا يتم اقتباس بعض كتاباته منه بما يمثل تسلسلاً تاريخياً للموضوع في (اللواحق) آخر الكتاب.

ثالثاً: اتباع قواعد المنهج الحديث في التوثيق؛ إذ اعتمد المؤلف - رحمه الله تعالى - المنهج القديم في التوثيق بنهاية النص.

رابعاً: توقفت متابعة المؤلف - رحمه الله تعالى - لما حدث لمقام إبراهيم وبعض معالم الحرم المكي الشريف حين عاجلته المنية - رحمه الله تعالى - سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)، ففرض هذا الواقع متابعة ما حدث لمقام إبراهيم عليه السلام بعد وفاته - رحمه الله تعالى- وبهذا تكتمل حلقات تاريخ مقام إبراهيم عليه السلام حتى العصر الحاضر، أعني العام الثاني والثلاثين بعد الأربعمئة والألف الهجري؛ ليكون مصدراً علمياً معتمداً يرجع إليه في موضوعه إن شاء الله تعالى.

آخراً وليس أخيراً: من الجدير بالتنبيه عليه أمران مهمان لهما صلة بالتعليقات التي في حواشي الصفحات:

أولاً: للمؤلف - رحمه الله تعالى - بعض التعليقات في الحواشي، ذيلت بكلمة (المؤلف) وما عداها فهي لكاتب هذه المقدمة.

ثانياً: بعض مصادر المراجعة قد تكرر تحقيقه في طبعات متعددة، مثل كتاب (أخبار مكة وما جاء فيها من آثار)، تم تحقيقه من قبل محققين جليلين: المحقق الأول والأقدم الشيخ رشدي الصالح ملحس، وطبع بمطابع دار الثقافة بمكة المكرمة، والطبعة الأخرى بتحقيق الأستاذ الدكتور عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، وقد اعتمدت الطبعة السابقة بتحقيق رشدي الصالح ملحس في الرجوع إليها، فحيثما لم تكمل بيانات الطبع عند التوثيق للنص فهي المرادة، وإذا تم الاقتباس من الأخرى ذكرتها باسم المحقق الآخر، والله ولي التوفيق.

عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان

مكة المكرمة ١٤٣١/٨/١٣هـ

القسم الثاني

نص كتاب مقام إبراهيم
عليه السلام



ونبذة من ترجمة إبراهيم الخليل وتاريخ الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وفضل مكة المكرمة

تأليف

محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي

الخطاط بالمعارف العامة بمكة المكرمة

غفر الله تعالى له ولوالديه وللمسلمين آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على نبينا محمد أشرف الخلق وسيد الأنام، وعلى آله أولي النُّهى والأفهام.

وبعد: فبتوفيق الله تعالى قد بدأت بتأليف هذا الكتاب القيم المسمى: [مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام] في شهر ذي القعدة من العام السادس والستين بعد الثلاثمئة والألف من الهجرة النبوية، وفرغت من تأليفه في شهر ربيع الأول من السنة التالية، وذيلته بهامش لطيف وشرح يسير مما لابد منه تتميماً للفائدة، وقد ذكرت – على سبيل الاستطراد – نبذة صغيرة عن حجر إسماعيل عليه السلام، وعن الحفرة الواقعة عند باب الكعبة المعظمة، كما ذكرت خلاصة نافعة عن الكعبة والمسجد الحرام وحدوده، والزيادات التي حصلت فيه، وفضل الصلاة فيه، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا المبحث النفيس، وحليته ببعض الرسوم والصور الفوتوغرافية توضيحاً للمعنى، وتشويقاً للقارئ الكريم إلى الأماكن المقدسة.

فعلى ما أعلم أنه الأول من نوعه، والفريد في بابه، إذ لم أقف على رسالة خاصة في هذا البحث الجليل، اللهم إلا ما دونه العلماء في كتبهم من تفسير أو حديث أو تاريخ، ولم أقصد من هذا الكتاب ذكر تاريخ بناء الكعبة المشرفة أو تاريخ المسجد الحرام، فإن ذلك مما يطول شرحه، ولكن إذا ذكرنا شيئاً عن ذلك يكون للمناسبة، على أنه قد تولى بيان كل ذلك الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة الحضرمي المكي – رحمه الله تعالى – المتوفى سنة ألف وثلاثمئة وست وخمسين للهجرة في كتابيه المطبوعين: الأول (تاريخ الكعبة المعظمة)، والثاني (تاريخ عمارة المسجد الحرام). فقد أتى فيهما بالبحث الوافي، والتطويل الشافي، ولقد نقلت أغلب ما

أحتاج إليه في هذه الرسالة من الكتابين المذكورين، ومن تاريخ الأزرقي - رحمه الله تعالى - الذي هو من أهل القرن الثاني.

وإني أحمد الله تعالى على توفيقاته المتوالية، وتوجيه قلبي للاشتغال بالعلوم النافعة، وأرجوه - عز وجلّ - ألّا يحرمني من الأجر والثواب على ذلك في الحياة وبعد الممات، تحقيقاً لقول نبيه عليه الصلاة والسلام المرويّ في صحيح مسلم: «إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» كما أرجوه - سبحانه وتعالى - أن يجعل لي في الدارين اسماً طاهراً، وذكراً حسناً، فالإنسان تاريخ نفسه، فإنه يفنى، ويبقى ذكره وآثاره، وقصصه وأخباره.

ما تنسج الأيدي يبيد وإنما ... يبقى لنا ما تنسج الأقلام

نسأل الله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أن يعاملنا في الدارين بما هو أهله من الرحمة والكرم والفضل والإحسان، وأن يرزقنا رزقاً حلالاً واسعاً مقروناً بالعفو والعافية، والصحة التامة، وأن يحفظنا من الخطأ والزلل في القول والعمل، ومن شر ما خلق من كل دابة وإنس وجن، ومن طوارق الليل والنهار، وأن ينعم علينا بتوفيقه ورضاه، وأن يختم أعمالنا بخير، وحياتنا بالإيمان الكامل، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بفضله ورحمته آمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

محمد طاهر الكردي الخطاط

ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ [١٩٤٨م][١]

(١) أضيف التاريخ الميلادي هنا وفي المواضع الآتية من الكتاب بين قوسين معقوفين؛ ولم يكن في النص الأصلي للكتاب.

ما ورد في القرآن في فضل البيت الحرام ومقام إبراهيم عليه السلام

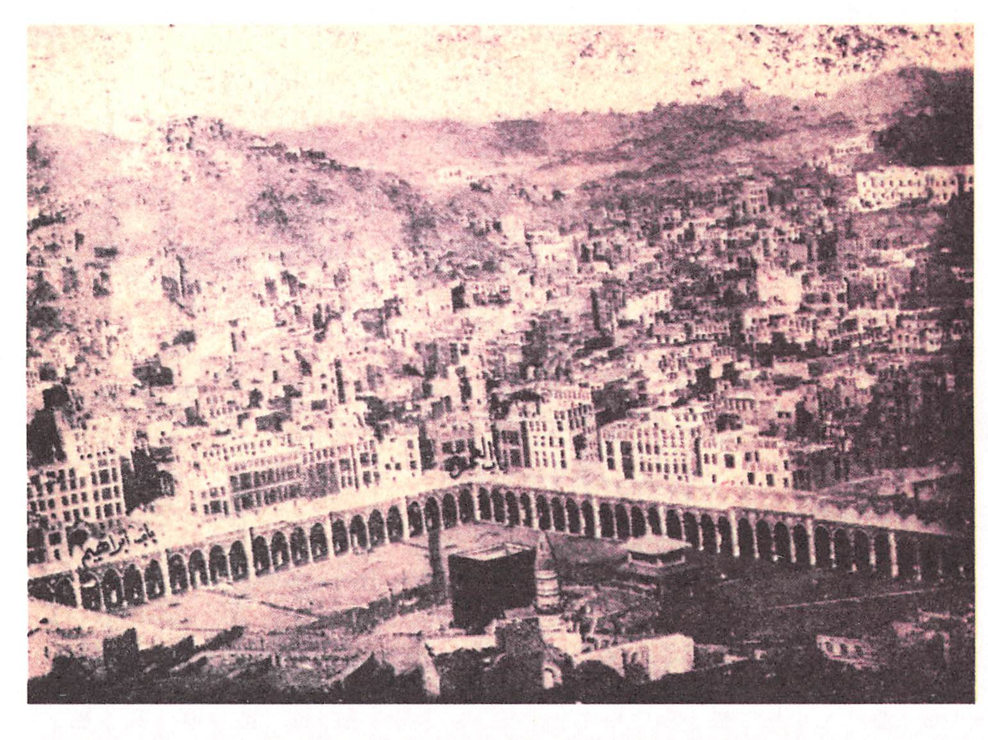
قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

قال عز شأنه في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

قال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

قال جل جلاله في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

ولقد أحصى الشيخ عبدالوهاب النجار - رحمه الله تعالى - سور القرآن التي ورد فيها ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام والآيات الكريمة، وفيما يلي هذا الإحصاء، نقلناه من كتاب (أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام).



المسجد الحرام وما يحيط به من بيوت مكة المكرمة

رقم مسلسل	السورة	رقم السورة	رقم الآيات
١	البقرة	٢	١٢٤،١٢٥،١٢٦،١٢٧،١٣٠،١٣٢،١٣٣،١٣٥،١٣٦، ١٤٠،٢٥٨،٢٦٠
٢	آل عمران	٣	٣٣،٣٥،٦٧،٦٨،٧٤،٩٥،٩٧
٣	النساء	٤	٥٤،١٢٥،١٦٣
٤	الأنعام	٦	٧٤،٧٥،٨٣،١٥١
٥	التوبة	٩	٧٠،١١٤
٦	هود	١١	٦٩،٧٤،٧٥،٧٦
٧	يوسف	١٢	٦،٣٨
٨	إبراهيم	١٤	٣٦
٩	الحجر	١٥	٥١
١٠	النحل	١٦	١٢٠،١٢٣
١١	مريم	١٩	٤١،٤٦،٥٨
١٢	الأنبياء	٢١	٥١،٦٠،٦٢،٦٩-
١٣	الحج	٢٢	٢٦،٤٣،٧٨
١٤	الشعراء	٢٦	٦٩
١٥	العنكبوت	٢٩	١٦،٣١
١٦	الأحزاب	٣٣	٧
١٧	الصافات	٣٧	٨٣،١٠٤،١٠٩
١٨	ص	٣٨	٤٥
١٩	الشورى	٤٢	١٣
٢٠	الزخرف	٤٣	٢٦
٢١	الذاريات	٥١	٢٤
٢٢	النجم	٥٣	٢٧
٢٣	الحديد	٥٧	٢٦
٢٤	الممتحنة	٦٠	٤
٢٥	الأعلى	٨٧	١٩



رسم آية مقام إبراهيم.

نبذة من ترجمة
سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

لا ندري ماذا نقول في ترجمة خليل الله المقرّب، ونبيه الكريم المفضّل؟ ماذا نقول ومقام الأنبياء لا يحيط به أمثالنا؟ ماذا نقول فيمن قال الله تعالى في حقه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١﴾[1] وقال في حقه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾[2]، وقال في حقه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥﴾[3]، وقال في حقه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾[4]، وقال في حقه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢﴾[5]، وقال في حقه: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾[6]، وقال في حقه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾[7]، وقال في حقه: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾[8]، وقال في حقه: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ

(١) سورة مريم، الآية رقم ٤١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية رقم ٥١.

(٣) سورة هود، الآية رقم ٧٥.

(٤) سورة النساء، الآية رقم ١٢٥.

(٥) سورة النحل، الآيات من رقم ١٢٠– ١٢٢.

(٦) سورة البقرة، الآيتان رقم ١٢٤ و١٢٥.

(٧) سورة الصافات، الآيتان رقم ٨٣ و٨٤.

(٨) سورة الأنبياء، الآية رقم ٦٩.

بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وقال في حقه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[2]، وقال في حقه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]، إلى غير ذلك من فضائله التي لا يمكن حصرها.

على أنه من اللازم أن نتشرف بذكر نبذة من ترجمته العالية المباركة من حيث ولادته، ووفاته، وهجرته، وما وقع له من الأمور التي هي عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تفكر وتدبر، فنقول، وبالله تعالى التوفيق:

قال ابن كثير – رحمه الله – في تاريخه: إبراهيم عليه السلام هو ابن تارخ ابن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وقيل: اسم أبيه تارخ، بالخاء المعجمة، وبالحاء المهملة أيضاً. قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر، ولعل له اسمين علمين، أو أحدهما لقب، والآخر علم. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله محتمل، والله تعالى أعلم.

يكنى إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، وقيل: إنه ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها (بَرْزة) في جبل قاسيون، والصحيح أنه ولد ببابل من أرض الكلدانيين، وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلى فيه؛ إذ جاء معيناً لابن أخيه لوط عليه السلام.

وبعد أن تزوج إبراهيم سارة[4] خرج بها من أرض بابل مع ابن أخيه لوط بن هارون ابن آزر قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، وتسمى

---

(١) سورة الحج، الآيتان رقم ٢٦ و٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية رقم ٧٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية رقم ٨٣.

(٤) سارة: بتخفيف الراء، وقيل بتشديدها. المؤلف.

بلاد التيمن، فأقاموا بحران من أرض الشام، وكانوا يعبدون الأصنام والكواكب السبعة، وكل من على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل عليه السلام وامرأته وابن أخيه لوط عليه السلام.

ثم إنه حصل عندهم قحط وشدة فارتحلوا إلى مصر، ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل له: إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: إنها أختي، قال: فأرسلْ بها، قال: فأرسلَ بها إليه وقال لها: لا تكذبي، قولي إنك أختي، فإني قد أخبرته بذلك، وإنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك وإنك أختي، فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ هذا الكافر» قال: فغط[1] حتى ركض برجله فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأُرسل، ثم قام إليها أيضاً فأخذ مثلها أو أشد منها، فأرسل، ثلاث مرات، ثم دعا أدنى حشمه فقال: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها (هاجر) فرجعت إلى إبراهيم، وقالت له: كفاني الله كيد الظالم، وأخدمني هاجر هدية، وقد كان وقت ذاك إبراهيم عليه السلام يصلي لله، ويدعو أن يحفظ أهله من هذا الملك الفاجر الجبار، فعصمها الله منه، وكشف الحجاب عن إبراهيم، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرَّ لعينه[2]. وإلى هذا يشير صاحب نظم عمود النسب بقوله:

---

(١) قال في المصباح المنير: غط النائم يغط غطيطاً أيضاً: تردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله. اهـ. والمعنى أنه ألقي عليه نوم عميق له صوت في خياشيمه. المؤلف.

(٢) وقصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه وزوجته سارة مع ذلك الجبار مذكورة في الصحيحين. فمسلم ذكرها في كتاب الفضائل، والبخاري ذكرها في كتاب بدء الخلق، وفي كتاب النكاح، وفي الهبة والإكراه، وفي كتاب البيوع في باب شراء المملوك. المؤلف.

ومرّ في فراره على الذي	غصب سارة ولم تستنقذ
إلاّ بشلّ يده وصرعه	وعصمت سارة من طبَعه[١]
ومن وراء الحجب الخليل	عاين أن عصمها الجليل
وأتحف الملك زوجة الخليل	بهاجر وأتحفت بها الحليل[٢]

ثم إن إبراهيم عليه السلام رجع إلى الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال كثير، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، وكانت زوجته سارة عاقراً لا يولد لها فقالت لإبراهيم: إن الله قد أحرمني[٣] الولد فادخل على أمَتي هذه لعل الله يرزقك منها ولداً، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحملت منه، ثم وضعت إسماعيل عليه السلام، ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وذلك قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخرّ لله ساجداً.

ولما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت غَيرة سارة منها، وطلبت من إبراهيم أن يغيبها عنها فذهب بها وبولدها إسماعيل وهو رضيع إلى مكة المشرفة، كما أمره الله تعالى ،كما سيأتي بيانه.

ولقد ابتُلِي إبراهيم – صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين – بثلاث مصائب، كل واحدة أكبر من أختها:

الأولى: أراد ذلك الجبار الكافر اغتصاب زوجته سارة، فعصمها الله تعالى منه، فرجعت إليه طاهرة نقية منصورة إكراماً له عليه السلام، فإنه كان يحبها حبّاً شديداً لدينها وقرابتها منه، وحسنها الباهر.

---

(١) الطبع، بفتح الباء: الدنس قاله فى المصباح المنير ـ وناظم عمود النسب هو العلامة الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي المتوفى سنة (١٢٢٠) تقريباً. المؤلف.

(٢) المجالسي الموريتاني، حماد بن الأمين، تحفة الألباب في شرح الأنساب، الطبعة الأولى، بتعليق: أحمد المختار الجكني الشنقيطي (قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ج١، ص٣٧.

(٣) كذا، ولعل الصواب لغويًا: حَرَمني.

الثانية: أمره الله عز وجل بذبح ولده فاستسلم لأمر الله هو وابنه، فحين أضجعه كما تضجع الذبائح وأمرّ السكين على حلقه لم تقطع شيئاً، فعند ذلك فداه الله تعالى برحمته بكبش أبيض أعين أقرن، قد رعى في الجنة أربعين خريفاً، هبط عليه من ثَبِير وله ثُغَاء[١] فذبحه بمنى، فهذا هو البلاء المبين، وقد ورد ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

الثالثة: إلقاؤه في النار بسبب مناظرته أهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام، وقد كانت مناظرة عقلية مفحمة، انتصر بها عليهم حتى رجعوا إلى أنفسهم وقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم انقلبوا فقالوا: إنا وجدنا آباءنا لها عابدين، ثم أجمعوا على إحراقه بالنار، فرموه فيها، فكانت برداً وسلاماً لم يمسسه سوء، بل كان على أحسن حال مدة إقامته فيها. والقصة مذكورة في القرآن العظيم.

وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام كثير من الأمور العظيمة المدهشة منها:

١ – مناظرته نمرود المذكورة في القرآن، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ....﴾ الآية[٢].

٢ – طلبه من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، كما هو صريح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ....﴾ الآية[٣].

٣ – أنه أول من عمر مكة وأسكن فيها من ذريته وبنى فيها الكعبة المعظمة؛ قال الله عز شأنه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ

---

(١) الثغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلهما. والثاغية: الشاة. والراغية: البعير. قاله في الصحاح. وثبير: جبل بين مكة ومنى، ويرى من منى، وهو على يمين الداخل منها إلى مكة، قاله في المصباح المنير. المؤلف.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية رقم ٢٦٠.

بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ....﴾[1] الخ.[2]

وسيأتي تفصيل بنائه بيت الله الحرام.

توفي إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – عن مئة وخمس وسبعين سنة، وقيل: وتسعين سنة، وقيل: عاش مئتي سنة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق – عليهم الصلاة والسلام – ودفن عند امرأته سارة، وكانت توفيت قبله بقرية (حَبْرون)، بفتح الحاء المهملة، ثم موحدة ساكنة، وهي البلدة المعروفة بالخليل اليوم، ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة، فحزن عليها إبراهيم، واشترى من رجل من بنى حيث، يقال له: غفرون بن صخر، مغارة بأربعمئة مثقال، ودفن فيها سارة هناك.

فيكون قبره وقبر زوجته سارة وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليهما السلام ببلدة (حبرون) المذكورة من غير خلاف، فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم؛ فينبغي أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل، وأن تجل عن أن يداس في أرجائها؛ خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – تحتها.

انتهى جميع ما ذكر من تاريخ ابن كثير[3] – رحمه الله – باختصار وزيادة يسيرة.[4]

---

(١) سورة الحج، الآيتان رقم ٢٦ و٢٧.

(٢) انظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي (مصر: مركز البحوث والدراسات العربية بدار هجر، سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م) ج١، ص٣٢٤– ٣٥٦.

(٣) ابن كثير هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة سبعمئة وأربع وسبعين هجرية؛ كان محدثاً متقناً، وفقيهاً بارعاً، وله جملة تصانيف، منها: تفسيره المعتبر، وتاريخه المحرر، وهما شهيران ومطبوعان. المؤلف.

(٤) انظر قصة سيدنا إبراهيم كاملةً في كتاب البداية والنهاية، ج١، ص٣٢٤– ٤٠٧.

قيل: إن يوسف بن يعقوب مدفون معهم أيضاً، وقد جزم كثير من العلماء المحققين أن قبورهم في داخل الدائر الذي بناه عليهم سليمان بن داود في الغار الذي وسط مسجد الخليل الآن، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، أما قبر إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فسيأتي أنه دفن بالحِجْر بمكة.[١]

وكان إبراهيم - عليه السلام - يشبه نبينا محمد[*] ﷺ، كما ورد ذلك صريحاً في بعض الأحاديث المذكورة في صحيح مسلم، وأن إبراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف، وأول من رأى الشيب، وأول من قص شاربه، وأول من اختتن، وأول من استحدّ، وأول من لبس السراويل.[٢]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإسلام ثلاثون سهماً، وما ابتلي أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[٣] فكتب الله له براءة من النار، وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ قال: ابتلاه الله - عز وجل - بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس؛ وفي الجسد، تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل الغائط والبول بالماء. اهـ من تاريخ الطبري.[٥]

واعلم أن إبراهيم عليه السلام هو جدّ أغلب الأنبياء والمرسلين، قال ابن كثير في تاريخه: فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ج١، ص٤٤٦.

(*) كذا، والصواب: محمداً.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ج١، ص٤٠٠، ٤٠٥.

(٣) سورة النجم، الآية رقم ٣٧.

(٤) انظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، أخبار الرسل والملوك (تاريخ الطبري) الطبعة الرابعة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ت.د.) ج١، ص٢٨٠.

من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى نسله وعقبه، خلعة من الله تعالى وكرامة له). اهـ.[١]

قال بعض العلماء: «إن عدد الأنبياء الذين ليسوا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام ثمانية، ذكرهم شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي – رحمه الله تعالى – في قصيدته التي مدح بها سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – حيث يقول:

هو قدس بغير شك لقدس ... هو جد لَجُلّ رسل الجليل
لم يحد عنه غير رسل كرام ... لم يكونوا من نسله عن دليل
هم أبو الخلق آدم ثم شيث ... ثم إدريس ذو المكان الجميل
ثم نوح الذي أجيب سريعاً ... إذ دعا الله بعد صبر طويل
ثم هود فيونس ثم لوط ... صالح ثامن لرسل الوكيل
وسواهم من أنبياء كرام ... هم بنوه أولو الثناء الأصيل

وقد جمعهم أيضاً صاحب نظم عمود النسب في قوله:

وحاد عنه آدم شيث[١] الوصي ... إدريس نوح هود يونس يَصي
لوط وصالح فهم ثمانٌ ... حادوا عن الخليل واستبانوا[٢]

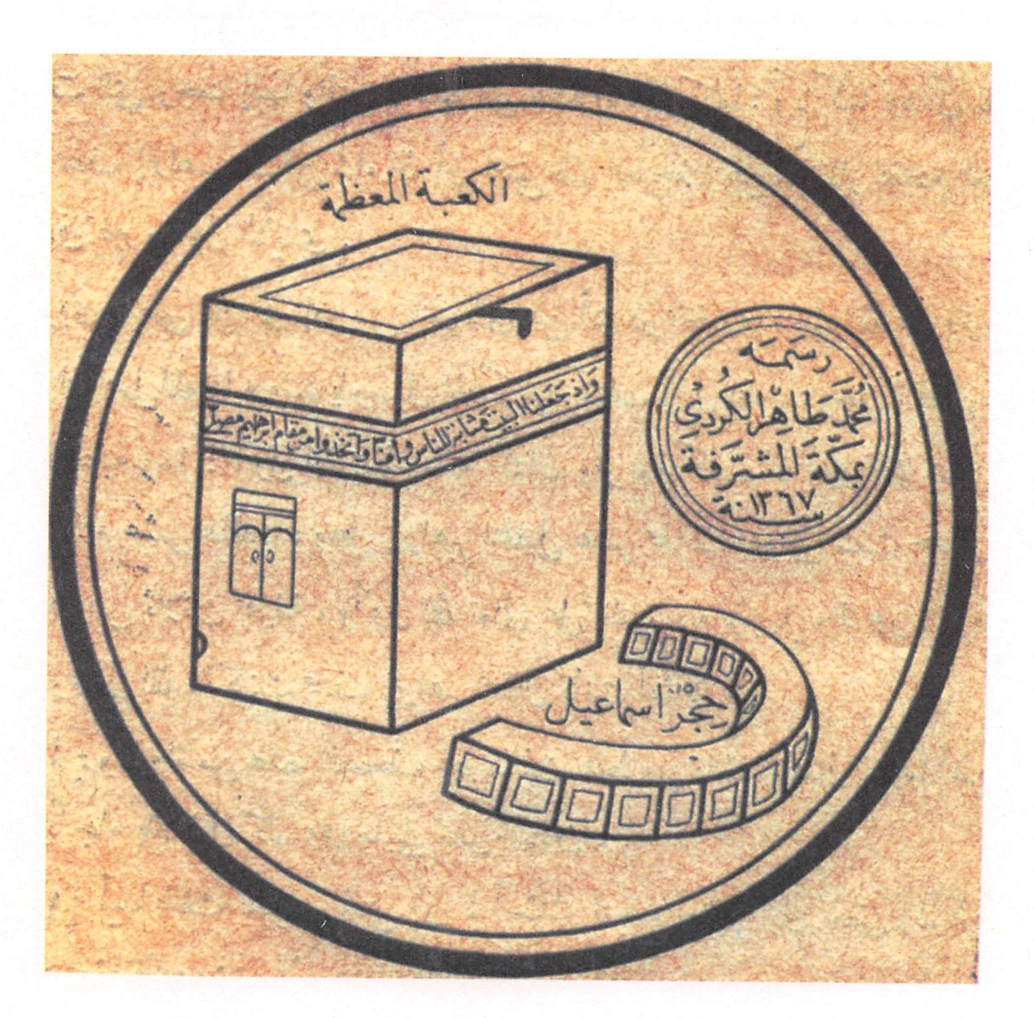
قوله يصي: أي: يصل، وقيل: إن يونس من ذريته، عليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم بالغيب.

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ج١، ص٣٨٥.

(٢) في النسخة المطبوعة (وعنه حاد آدم شثت الوصى).

(٣) المجالسي الموريتاني، حماد بن الأمين، تحفة الألباب في شرح الأنساب، ج١، ص٤٠.



رسم للكعبة المشرفة وحجر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ

تتمة في ترجمة سيدنا إبراهيم عليه السلام أيضاً

نذكر هنا ما اطلعنا عليه في كتاب (إبراهيم الخليل أبو الأنبياء) للأستاذ محمد حسني عبدالحميد، فقد جاء فيه عند صحف إبراهيم بصحيفة ١٥٢ و١٥٣ ما نصه:

كانت صحف إبراهيم أمثالاً، ولم نعثر – مع الأسف الشديد – في المراجع التي اطلعنا عليها، والمؤلفات التي رجعنا إليها واقتبسنا منها، على هذه الأمثال كلها؛ وكم كنا نود أن نقرأ ويقرأ الناس صحف إبراهيم، لكن شاء الله أن تختفي تلك الصحف عن الأنظار لتقادم العهد، وأن تصبح في غير متناول الأيدي.

روى الثعلبي عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله كم من كتاب أنزل الله عز وجل؟ قال رسول الله ﷺ: أنزل الله تعالى مئة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على آدم عليه السلام عشر صحائف، وعلى إبراهيم الخليل عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وأنزل الله تعالى عليَّ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قال: قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال كانت أمثالاً)[1].

ولم يرو الرواة من هذه الصحف غير مثالين فقط من تلك الأمثال، وما أظن مُؤرخاً أو راوياً جاء بالأمثال كلها، وفيما يلي نص المثالين:

(١) أيها الملك المغرور المبتلى، إني لم أبعثك لتجمع بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتنصر دعوة المظلوم، فإني لا أردها وإن كانت من كافر.

(٢) على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه ويتفكر في صنع الله، وساعة يحاسب نفسه فيما قدم

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح (٣٦١)، والحاكم في المستدرك (٥٩٧/٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٦/١-١٦٨). وضعّف الإمام الذهبي الحديث بقوله: السعدي ليس بثقة.

وأخر، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال لا من الحرام في المطعوم والمشروب وغيرهما. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «دخلت المسجد فقال رسول الله ﷺ: إن للمسجد تحية، فقلت: وما تحيته يا رسول الله؟ قال: ركعتان تركعهما، قلت: يا رسول الله: هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم، وموسى؟ قال يا أبا ذر اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها كيف يطمئن؟ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب؟ عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»[1].

وبعد فمما لا ريب فيه أن صحف إبراهيم ثروة تاريخية لم يوفق للعثور عليها المؤرخون، ولو أنهم وقفوا لمعرفتها كلها لسدوا نقصاً ظاهراً يثمر به المتعمق في الدراسات التاريخية الإسلامية القديمة.

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ١٦٥ إلى صحيفة ١٧١ عند الحرم الخليلي ومدينة الخليل ما نصه:

وقد سميت مدينة الخليل حَبرون قبل أن يضع عليها شرف اسمها الكريم (الخليل) ويكاد أن ينعقد الإجماع على أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ثاوٍ تحت ثراها في الحرم الخليلي بمكان تحتها.

الحرم اسمه المغارة، وبهذه المغارة يرقد إسحاق ويعقوب - عليهما السلام - وسارة رضي الله عنها. عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: «أول من مات ودفن في حبرون سارة،

(١) تقدم تخريجه ص ٧٣.

وذلك أنها لما ماتت خرج الخليل - عليه السلام - يطلب موضعاً ليدفنها فيه، ورجا أن يكون موضعاً بقرب حَبْرى، فمضى إلى غفرون، وكان مالك الموضع، وكان مسكنه حَبرى، فقال له إبراهيم: بعني موضعاً أقبر فيه من مات من أهلي، فقال المالك: قد أبحتك فادفن موتاك حيث شئت من أرضي، فقال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: إني لا أحب ذلك إلا بالثمن، فقال له: أيها الشيخ الصالح ادفن حيث شئت، فأبى عليه وطلب منه المغارة، فقال له: أبيعكها بأربعة آلاف درهم، كل درهم وزن خمسة دراهم وكل مئة درهم ضرب ملك، وأراد بذلك التشديد عليه كيلا يجد شيئاً من ذلك فيرجع إلى قوله، فخرج إبراهيم الخليل من عنده فإذا جبريل عليه السلام واقف فقال له: يا إبراهيم إن الله سمع مقالة المالك لك، وهذه الدراهم ادفعها إليه، فإنها كما طلب، فأخذ إبراهيم عليه السلام الدراهم، ودفعها إلى مالك الأرض، فقال له: من عند من؟ قال: من عند إلهي وخالقي ورازقي، فأخذها منه، وحمل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- سارة ودفنها في المغارة، فكانت أول من دفن فيها. وتوفيت ولها من العمر مئة وسبع عشرة سنة، وقيل مئة وسبع وعشرون سنة، ثم توفي الخليل - عليه الصلاة والسلام - ودفن بإزائها من جهة الغرب، ولما توفيت رفقة - رضي الله عنها - زوجة إسحاق عليه السلام - دفنت تجاه سارة من جهة المحراب، ولما توفي إسحاق عليه السلام دفن تجاه زوجته من جهة الغرب، ثم توفي يعقوب عليه السلام فدفن عند باب المغارة، وهو إزاء قبر الخليل - عليه الصلاة والسلام - من جهة الشمال، ثم توفيت لائقة زوجة يعقوب فدفنت بإزائه من جهة الشرق، ثم اجتمع أولاد يعقوب عليه السلام وقالوا: ندع باب المغارة مفتوحاً، وكل من مات منا دفناه فيها، ثم أقاموا حول المغارة سوراً وأنشؤوا علامات القبور في كل موضع، وكتبوا على كل قبر اسم صاحبه، وخرجوا من المغارة، وطبقوا الباب إلى أن جاء الروم فبنوا هناك كنيسة ما لبث المسلمون حتى هدموها.

حدَّث محمد بن بكران بن محمد - خطيب مسجد الخليل - عليه الصلاة والسلام- يقول:

خرجت مع القاضي أبي عمرو عثمان بن جعفر بن شادان إلى قبر الخليل ﷺ فأقمنا به ثلاثة أيام، فلما كنا في اليوم الرابع جاء إلى النقش المقابل لقبر رفقة زوجة إسحاق ﷺ، فأمر بغسله حتى ظهرت كتابته، وتقدم إليّ بأن أنقل ما هو مكتوب في الحجر فنقلته، ورجعنا إلى الرملة فأحضر أهل كل لسان ليقرؤوه فلم يمكن أحد أن يقرأه، ولكنهم أجمعوا على أن هذه باللغة اليونانية القديمة، فإنهم لا يعلمون أنه لقي أحداً يقرؤه غير شيخ كبير بحلب، فعمدوا إلى إحضاره، فلما حضر عنده أحضرني، فإذا بشيخ كبير فأملى عليَّ الشيخ المحضر من حلب ما نقلته في الدرج على التمثيل، أوله: بسم إلهي إله العرش القاهر الهادي الشديد البطش العليم الذي لا يحد، هذا قبر إبراهيم الخليل ﷺ، والعلم الذي بحذائه من جهة الشرق قبر زوجته سارة، والعلم الأقصى الموازي لقبر إبراهيم الخليل قبر يعقوب، والعلم الذي يليه من الشرق قبر إليا زوجته، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين اهـ.

ولقد أسعدني الله بزيارة الرجل الوقور صاحب السماحة الشيخ يوسف طهبوب عضو المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، وتحدثنا عن الخليل وبركاته، فروى لي الشيخ قصة هزت نفسي، وحركت مشاعري، فقد صور الشيخ لي فيها سيدنا إبراهيم في لحيته البيضاء العظيمة المرسلة نائماً على مقعد مرتفع ونسيم المغارة المتشرفة بجسده الطاهر يلاعب لحيته، ويحركها تحريكاً لطيفاً.

وقد تصورت هذا المشهد وظل ماثلاً في خاطري حتى رأيت هذه الصورة في القول الآتي الذي دوّنه قاضي القضاة أبو اليمن محي الدين الحنبلي في كتابه (الأنس الجليل)، كما رواه بعض الرواة في كتب أخرى قال: قال الحافظ ابن عساكر: قرأت في كتب أصحاب الحديث، ونقلت منها، قال محمد بن بكران بن محمد - خطيب مسجد إبراهيم الخليل ﷺ - وكان قاضياً بالرملة في أيام الراضي بالله في سنة ثنتين وعشرين وثلاثمئة [١٩٣٣م] وما بعدها، وله رواية في الحديث، سمع من جماعة، وحدَّث عن جماعة من أهل العلم

قال: سمعت محمد بن أحمد بن علي بن جعفر الأنباري يقول: سمعت أبا بكر الإسكافي يقول: صح عندي أن قبر إبراهيم عليه السلام في الموضع الذي هو الآن فيه، ولما رأيت وعاينت، ذلك أنني وقفت على السدنة وعلى الموضع أوقافاً كثيرة تقرب من نحو أربعة آلاف دينار، رجاء ثواب الله عز وجل، وطلبت أن أعلم صحة ذلك حتى ملكت قلوبهم بما كنت عملت معهم من الجميل والكرامة والملاطفة والإحسان إليهم، وأطلب بذلك أن أصل إلى ما يصح، وجال في صدري، فقلت لهم يوماً من الأيام، وقد جمعتهم عندي: أسألكم أن توصلوني إلى باب المغارة كي أنزل إلى حضرة الأنبياء – صلوات الله عليهم – وأشاهدهم، فقالوا: قد أجبناك إلى ذلك؛ لأن لك علينا حقّاً واجباً، ولكن لا يمكن في هذا الوقت؛ لأن الطارق علينا كثير، ولكن حتى يدخل الشتاء؛ فلما دخل كانون الثاني خرجت إليهم فقالوا: أقم عندنا حتى يقع الثلج، فأقمت عندهم حتى وقع الثلج، وانقطع الطارق عنهم، فجاؤوا إلى صخرة ما بين قبر إبراهيم الخليل وقبر إسحاق، عليهما السلام، وقلعوا البلاطة، ونزل رجل منهم يسمى (صعلوك)، وكان رجلاً صالحاً فيه خير ولين، فنزلت أنا معه، فمشى وأنا من ورائه فنزلنا اثنتين وسبعين درجة، فإذا عن يميني أريكة عظيمة من حجر أسود، وإذا عليها شيخ خفيف العارض طويل اللحية ملقى على ظهره وعليه ثوب أخضر، فقال لي صعلوك: هذا إسحاق عليه السلام، ثم سرنا غير بعيد وإذا بأريكة أكبر من الأولى وعليها شيخ ملقى على ظهره وله شيبة قد أخذت ما بين منكبيه، أبيض الرأس واللحية والحاجبين وأشفار العينين وتحت شيبته ثوب أخضر قد حلل بدنه والرياح تلعب بشيبته الجليلة يميناً وشمالاً، فقال لي صعلوك: هذا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فسقطت على وجهي ودعوت الله عز وجل لما فتح عليَّ وأقمت من مكاني، ثم سرنا وإذا بأريكة لطيفة وعليها شبح لطيف آدم شديد الأدمة كث اللحية، وتحت منكبيه ثوب أخضر قد جلله، فقال لي صعلوك: هذا يعقوب النبي، ثم إننا عَدلنا يساراً لننظر إلى الحرم، فحلف أبو بكر الإسكافي ما إن أتممت الحديث، قال فقمت من عنده في الوقت الذي حدثني فيه من وقتي إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، فلما

وصلت إلى المسجد سألت عن صعلوك، فقيل لي: إنه الساعة يحضر، فلما جاء قمت إليه، وجلست عنده وطارحته بعض الحديث، فنظر إليَّ بعَين منكرة للحديث الذي سمعه، فأومأت إليه بلطف تخلصت به من الإثم، ثم قلت له: إن أبا بكر الإسكافي عمي، فأنس عند ذلك، فقلت: يا صعلوك بالله عليك لما عدلتما نحو الحرم ماذا كان وما الذي رأيتما؟ فقال: ما حدثك أبو بكر، فقلت: أريد أن أسمع منك أيضاً، فقال: سمعنا من نحو الحرم صائحاً يصيح وهو يقول: تجنبوا الحرم، رَحمكم الله، فوقعنا مغشياً علينا، ثم أفقنا وقد يئسنا من الحياة، وأيست الجماعة منا، قال: فقال لي الشيخ: وعاش أبو بكر الإسكافي بعد ما حدثني زمناً يسيراً ومات، وكذلك صعلوك، رحمهما الله اهـ.

وهذه الرواية يعرفها كل خليلي من سكان تلك المدينة التي شرفها الله بالحرم الخليلي، وقد قصها عليَّ أيضاً المرحوم الشيخ عبدالله طهبوب - مفتي الخليل - وقد ذهب معي سماحته إلى المكان الذي يقع فيه باب المغارة لمشاهدته، وقال لي: إنه إثر حادث صعلوك هذا عمد القائمون على أوقاف الخليل إلى مدّ باب المغارة بالبناء حتى لا يجسر أحد على النزول إليها.

ونميل إلى تصديق هذه الرواية بعد أن قص علينا علماء فلسطين الكثير عن حوادث مثلها جرت لزائرين معاصرين لا أرى بي حاجة إلى ذكرها هنا؛ لأن كل ما يروى عن تكريم الله سبحانه لخليله إبراهيم في حياته وبعد مماته لا يستغرب، فليس يستغرب أن يرى المتشرفون بزيارة المغارة جسد أبي الأنبياء على أريكة عظيمة، وأن لحيته البيضاء مرسلة يلاعبها النسيم، وأن يروا جثمانه الطاهر ووجهه الطلق الشريف، فإن أجسام الأنبياء لا تبلى، كما هو معروف.

روى الحسن بن عبدالواحد بن عبدالرازق قال: قدم أبو زرعة القاضي بفلسطين إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، فجئت لأسلم عليه وقد قعد عند قبر سارّة في وقت الصلاة، فدخل شيخ فدعاه، وقال له: يا شيخ أيما هو قبر إبراهيم بين هؤلاء؟ فأومأ الشيخ بيده إلى قبر إبراهيم عليه السلام، ثم مضى الشيخ، وجاء شاب فدعاه وقال

له مثل ذلك، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام ومضى، ثم جاء صبي فدعاه، وقال له مثل ذلك، فأشار إلى قبر إبراهيم عليه السلام فقال أبو زرعة: أشهد أن هذا قبر الخليل – عليه أفضل الصلاة والسلام – ولا شك فيه ولا خفاء، نقله الخلف عن السلف، كما قال مالك بن أنس رضي الله عنه: إن نقل الخلف عن السلف أصح الحديث؛ لأن الحديث ربما يقع فيه الخطأ، والنقل لا يقع فيه الخطأ ولا يطعن فيه إلا صاحب بدعة ومخالف، ثم قام ودخل إلى المقام فصلى الظهر، ثم رحل من الغد.

وقال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي في كتاب (البدائع) في تفصيل مملكة الإسلام: حبرى هي قرية إبراهيم الخليل عليه السلام، فيها حصن عظيم يقولون: إنه من بناء الجنّ من حجارة منقوشة، ووسطه فيه حجارة إسلامية على قبر إبراهيم عليه السلام، وقبر إسحاق قدّام في المغطى، وقبر يعقوب في المؤخر، وعند كل نبي امرأته، وقد جعل الحصن مسجداً، وبنيت حوله دورٌ للمجاورين به، واتصلت العمارة به من كل جانب، ولهم قناة ماء ضعيفة. وبهذه القرية إلى نصف مرحلة من كل جانب قرى وكروم وأعناب وتفاح، وعامتها تحمل إلى مصر، وفي هذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون، وهم يقدمون العدس بالزيت لكل من يأتي ويحضر عندهم من الفقراء، ويقدم إلى الأغنياء إذا أخذوا.

ولقد أتيح لي أن أرى هذه الصورة التي رسمها أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي في كتاب (البدائع) رأيتها بعيْني رأسي، ورأيت الأحجار الضخمة التي في السور المحيط بالمقام الطاهر، والتي قيل: إن الجنّ قد بنوها بأمر سليمان عليه السلام، ورأيت أشجار الفاكهة يَعُج بها الطريق إلى مدينة الخليل، والكروم الجبلية النابتة بين صخور الجبال تنتج الأعناب التي لا يقارن بها أعناب في أي بلد آخر.

وإنك لتسمع من كل خليلي إذا رأيته وصفاً لعنب الخليل، وافتخاراً بهذا اللون من الفاكهة التي يظهرها الله لا على كرم عال، بل على كرم ملاصق

للأرض متغلغل في أحشاء الجبل يسقى بماء من عند الله، حيث لا جدول يسقيه، ولا نهر يرويه، بل الطبيعة تظهره وتنميه شهياً للآكلين.

وأخبرني سماحة مأمور أوقاف الخليل أنه قد جرت العادة أن تُولم مأمورية الأوقاف وليمة أسبوعية في يوم الأربعاء، تقدم فيها حساء الخليل للفقراء والمساكين، ويصفونها بكونها أطيب ما عرف الناس من ألوان الحساء، وتمنى الرجل عليَّ أن أزور مدينة الخليل في يوم الأربعاء لأرى بنفسي إقبال الناس عليها فقراء وأغنياء؛ لأن الأغنياء يحرصون على أن يشتركوا في تذوقها ولو القليل منها تيمناً وتبركاً، وتمنى سماحته أن أشهد معه وليمة الحساء فأذوق طعمها، وأنعم بيمنها وبركتها، ولولا اضطراري للسفر في يوم الثلاثاء إلى بيروت لبقيت على مقربة من مدينة الخليل حتى يوم الأربعاء، وكان لي شرف شهود الوليمة التقليدية التي هي رمز لذلك الكرم المشهور الذي اتصف به خليل الله إبراهيم.

حكى الملك المؤيد إسماعيل - صاحب حماة - في تاريخه في وقائع سنة ثلاث عشرة وخمسمئة أن في تلك السنة ظهر قبر إبراهيم عليه السلام وقبر ولديه إسحاق ويعقوب عليهما السلام أيضاً بالقرب من بيت المقدس، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة.

وجاء أيضاً بصحيفة ١٧٣ عند السور السليماني ما نصه:

لما أتم سليمان عليه السلام تشييد بيت المقدس وبناء هيكله بالمسجد الأقصى أمره الله -سبحانه وتعالى- أن يقصد إلى حيث يرقد خليله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فيقيم سوراً حول قبره الشريف، فذهب سليمان ومعه رجاله وجنوده إلى تلك البقعة من أرض كنعان باحثاً منقباً عن قبر الخليل فلم يهتد إليه، فعاد إلى بيت المقدس، فنزل عليه وحي الله أنه حيث يرى عموداً من نور هابطاً من السماء إلى الأرض، يقع قبر إبراهيم، فقصد سليمان مرة أخرى إلى ذلك المكان، وهناك خيل إليه أنه يرى نوراً في موضع اسمه (الرامة) بالقرب من مدينة الخليل من جهة الشمال قبلي قرية حلحول، وهناك أمر الجند فبنوا سوراً على مقربة

من قبر يونس عليه السلام، فأوحى الله إليه أن ليس المكان الذي بنى عنده السور قبر إبراهيم، وأمره أن يتعقب النور المتدلي من السماء إلى الأرض و أن يبني السور حوله، فأخذ سليمان يبحث وينقب حتى اهتدى إلى المكان على مرتفع من الأرض في مدينة حبرون، وتعقب النور فوجده هو وتثبت منه، فأمر رجاله من الإنس والجن فبنوا السور العظيم الذي يُعدّ من العجائب بما حوى من الأحجار التي تذهل الناظر ضخامتها، وقد اعتبر الحرم المحاط بالسور مسجداً.

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن آدم عليه السلام رأسه عند الصخرة الشريفة ورجلاه عند مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام. ولمسجد إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – ما لكل المساجد من حق صلاة الجماعة به، وجواز الاعتكاف به، وتحريم المكث على الحائض، وتحريم دخول الجنب... إلخ، بل إنه أعمر بيوت الله، وأكثرها بركة بمن رقد تحته من السادة الأنبياء، سلام الله عليهم. قال قاضي القضاة أبو اليمن القاضي الحنبلي: وهذا المقام الكريم الذي هو داخل السور السليماني طوله في سعته قبلة بشمال من صدر المحراب الذي عند المنبر إلى صدر المشهد الذي به ضريح سيدنا يعقوب عليه السلام ثمانون ذراعاً بذراع العمل، ينقص يسيراً نحو نصف ذراع أو ثلثي ذراع تقريباً، وعرضه شرقاً يقرب من السور الذي به باب الدخول إلى صدر الرواق الغربي الذي به شباك يتوصل منه إلى ضريح يوسف عليه السلام نحو ثلث ذراع أو نصف ذراع تقريباً بذراع العمل المذكور، وهو الذراع الذي تذرع به الأبنية في هذا العصر، وسمك السور ثلاثة أذرع ونصف من كل جانب، وعدة مداميكه في البناء خمسة عشر مدماكاً من أعلى الأماكن، وهو الذي عند باب القلعة من جهة الغرب إلى القبلة، وارتفاع البناء عن الأرض من المكان المذكور ست وعشرون ذراعاً بذراع العمل، ويوجد غير البناء الرومي الذي فوق السليماني حجر عند مكان الطبلخانة، طوله أحد عشر ذراعاً، وعرض كل مدماك من البناء السليماني نحو ذراع وثلثي ذراع، وعلى السور المذكور مغارتان: إحداهما من جهة الشرق مما يلي القبلة، والثانية من جهة الغرب مما يلي الشمال، وبناؤها في غاية اللطف.

يشتمل المسجد على بناء معقود من داخل السور على نحو النصف من جهة القبلة إلى جهة الشمال، والبناء من عهد الروم، وهو ثلاثة أكوار: الأوسط منها مرتفع عن الكورين الملاصقين له من جهة الشرق والغرب.

ويرتفع السقف على أربعة أسوار محكمة البناء، وفي صدر هذا البناء المعقود تحت الكور الأعلى يوجد المحراب، وإلى جانبه المنبر، وهو مصنوع من الخشب الفاخر، ويعد آية من آيات الصناعة المتقنة والجمال الفني، وقد وضع في زمن المستنصر بالله أبي تميم معد الفاطمي - خليفة مصر - بأمر بدر الجمالي مدير دولته، وقد تم صنع المنبر في سنة أربع وثمانين وأربعمئة [نحو ١٠٩٠م] وقد كتب عليه تاريخ صنعه بالخط الكوفي، وقد أمر بنقل المنبر إلى مسجد الخليل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتوجد تجاه المنبر أريكة للمؤذنين قائمة على عمد رخامية، تعتبر نموذجاً للصنع الباهر الجميل.

وعلى الجدران من الجهات الأربع رخام مستدير، وقد صنع في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة [نحو ١٣٣١م].

وتقع قبور الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - تحت بناء المسجد على النظام الآتي إلى جانب السارية التي عند المنبر قبر إسحاق عليه السلام، وأمامه قبر زوجته رفقة أو ربقة رضي الله عنها إلى جانب السارية الشرقية، ويمكن اعتباره بناءً قائماً بذاته.

ولهذا البناء ثلاثة أبواب تنتهي إلى صحن المسجد، أحدها، وهو الأوسط، ينتهي إلى الحضرة الخليلية الجليلة، وهو مكان معقود على جدرانه رخام مستدير، وبه إلى جهة الغرب الحجرة الشريفة التي بداخلها قبر الخليل عليه السلام، وتجاهه شرقاً قبر زوجته السيدة سارة رضي الله عنها.

وفي آخر الساحة شمالاً ضريح يعقوب عليه السلام، وأمامه شرقاً قبر زوجته لائقة رضي الله عنها.

وبداخل السور أيضاً مقام ليوسف عليه السلام، وقد قيل: إنه مدفون خارج المغارة، ولكن لم يصح أي دليل على أن قبر يوسف الصديق بهذا المكان.

والأرضية التي بداخل السور مفروشة كلها بالبلاط السليماني البديع، ويوجد بظاهر السور السليماني شرقاً مسجدٌ جميل، عمره أبو سعيد سنجر الجاولي - ناظر الحرمين الشريفين، ونائب السلطنة في زمنه - فعرف هذا المسجد باسم الجاولية، وهو من العجائب؛ لأنه قائم في الجبل، وقد قيل: إنه كان مقبرة يهود قائمة على هذا الجبل فجرف الجاولي مكانها بعد أن هدمها، وبنى سقفاً وقبة، وأحالها مسجداً، وقد كتب على إحدى جدرانه: إن سنجر عمر هذا المسجد من حرّ ماله، ولم ينفق عليه شيئاً من مال الحرمين.

ويوجد قبلي مسجد الجاولية مطبخ تطهى فيه أكلة الدشيشة لزوار الخليل، عليه الصلاة والسلام، وعلى باب المطبخ تدق الطبلخانة (الطبول) في كل يوم بعد صلاة العصر عند مدّ السماط الكريم، وهذا السماط من عجائب التقاليد؛ إذ يفد إليه سكان البلدة وضيوفها، ويصنع فيه خبز، ويوزع يومياً ثلاث مرات: الأولى: في الصباح الباكر، والثانية: بعد الظهر، والثالثة: بعد العصر.

وقد تقدم القول: إن الأصل في هذا السماط، ودق الطبول لدعوة الناس إليه أن إبراهيم ﷺ كانت تفد إليه جموع الضيافة من كل مكان، فيصنع لهم الطعام، ويوزعهم على عدة منازل للإقامة فيها، فإذا حان وقت تناول الطعام دقت لهم الطبول؛ إشعاراً لهم بأن الطعام مهيأ للضيوف في رحابه الفسيحات.

انتهى كل ذلك من كتاب أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام من غير أن نعلق عليه بشيء.

هجرة إبراهيم إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه هاجر

كانت لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام جارية اسمها هاجر، وهي قبطية مصرية، أهداها لها ذلك الملك الجبار الذي تقدم ذكره، فوهبتها لزوجها إبراهيم فولدت منه إسماعيل فكان أول وَلده وبِكره، فغارت سارة منها؛ لأنها لم تكن قد ولدت قط[1]، فأنشدته بالله أن يخرجهما من عندها، فأمره الله عز وجل

---

(١) ثم ولدت سارة إسحاق بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل عليهما السلام. المؤلف.

أن ينقلهما إلى مكة، وأتى له بالبراق[١]، فركب عليه هو وهاجر وإسماعيل، وكان صغيراً يرضع، فخرج من الشام ومعه جبريل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، حتى قدم مكة، وليس بها أحد ولا بناء ولا ماء، وما كانت مكة يومئذ إلا عِضَاة سَلَم وسَمُر[٢]، فوضعهما عند البيت ومعهما جراب من تمر، وسقاء من ماء، ثم انصرف إبراهيم راجعاً إلى الشام، فتبعته هاجر، وقالت له: إلى أين تذهب؟ وإلى من تتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أحد؟

قال: إلى الله عز وجل. قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم، ثم رفع يديه بالدعاء وقال:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[٣].

جلست أم إسماعيل مع ابنها تحت شجرة كبيرة في مكان بئر زمزم، حتى إذا نفد ذلك التمر والماء عطشت هي وولدها عطشاً شديداً، فخافت على ولدها الهلاك، فمشت بين الصفا والمروة سبع مرات[٤] وهي تَرمُل لعلها ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعند ذلك جاء جبريل عليه السلام، وضرب بجناحه مكان زمزم فخرج الماء، فجعلت تحوط عليه وتقول: زُمّي زُمّي. وفي الحديث (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً) ثم مرت بها قبيلة من جرهم فاستأذنوها في النزول عندها، وقالوا لها: أشركينا في مائك نشركك في ألباننا،

---

(١) البُراق بضم الباء: هو دابة، أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه - هكذا وصفه رسول الله ﷺ في حديث الإسراء الذي رواه مسلم في صحيحه عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه. المؤلف.

(٢) السَّلم بفتحتين: شجر من العضاه الواحدة سَلَمة، والعِضاه بوزن كتاب: كل شجر يعظم وله شوك، الواحدة عضاهة، والسَّمُرة بضم الميم. من شجر الطلح والجمع سَمُر بوزن رجل وسَبُع. والطلح شجر عظام من شجر العضاه الواحدة طلحة. اهـ من مختار الصحاح والمصباح المنير. المؤلف.

(٣) سورة إبراهيم، الآية رقم ٣٧.

(٤) ولذلك صار السعي بين الصفا والمروة سبع مرات من أعمال النسك. ومعنى ترمل تهرول، ورمل من باب طلب. المؤلف.

ففعلت. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فقدموا إليهم، فتعلم إسماعيل منهم العربية، وكان يخرج معهم للصيد فأحبوه، وزوجوه بامرأة منهم، ثم ماتت أمه بعد ما تزوج، ودفنت في الْحِجْر، وذلك قبل بناء الكعبة.

ثم إن إبراهيم - عليه السلام - جاء من الشام يقول: حتى أطالع تركتي، فقدم مكة فوجد امرأة إسماعيل فسألها عنه فقالت: هو غائب، ولم تحسن مقابلته، ولم تضيفه، وقالت له: نحن في ضيق شديد، وشكت إليه، فقال لها: قولي لإسماعيل قد جاء بعدك شيخ كذا وكذا وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك: غيّر عتبة بيتك، فقالت ذلك لإسماعيل، فقال لها: أنت عتبة بيتي فارجعي إلى أهلك، ثم تزوج بأخرى، ثم جاء إبراهيم إلى مكة فوجد إسماعيل غائباً، ووجد امرأته الأخرى[١] فسألها عنه، فقالت له: ذهب إسماعيل يتصيد، وهو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله، فلم ينزل، فجاءته بحجر (قيل وهو المقام) فوضعته عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر، فبقي أثر قدميه على الحجر، ثم أضافته وأكرمته، وعرضت عليه الطعام والشراب، فقال: ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: اللحم والماء، قال هل من حب أو غيره من الطعام، قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم والماء[٢] ثم رجع إبراهيم، وقال لها: قولي لإسماعيل: قد جاء بعدك شيخ، فقال: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فأقررها، فلما رجع إسماعيل إلى أهله قال: هل جاءكم بعدي أحد، قالت: نعم جاء بعدك شيخ كذا وكذا، وأثنت عليه، ويقول لك: إني وجدت عتبة بيتك صالحة فأقررها، قال لها: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك، وكان إبراهيم عليه السلام يأتي مكة كل كرة راكباً البراق.

---

(١) وهي رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وقد جاءته باثني عشر ابناً، ومضاض هو أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت بن إسماعيل عليه السلام، وكان ملك جرهم والمطاع فيهم. المؤلف.

(٢) قال ابن عباس يقول رسول الله ﷺ: (لو وجد عندها يومئذ حباً لدعا لهم بالبركة فيه فكانت تكون أرضاً ذات زرع)، قال سعيد بن جبير ولا يخلي أحد اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه وإن أخلى عليهما بمكة لم يجد كذلك أذى. اهـ. من الأزرقي. المؤلف.

بناء إبراهيم الكعبة المعظمة

كان إبراهيم عليه السلام كلما أراد أن يأتي مكة لزيارة إسماعيل وأمه هاجر يستأذن زوجته سارة فتأذن له، وتشترط عليه ألّا ينزل، فيوفي لها بهذا الشرط؛ لذلك ما كان ينزل عن البراق إذا وصل مكة، ولا كان ينتظر رجوع ابنه إسماعيل من الصيد، وهذا من كمال درجة أخلاق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فلما أمره الله تعالى ببناء بيته الحرام قدم من الشام إلى مكة راكباً البراق لهذا العمل العظيم الخالد، فوجد ابنه إسماعيل قاعداً تحت الدّوحة[١] التي عند زمزم يَبري نِبالاً له[٢]، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بولده، والولد بوالده، فقال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فأطع ربك فيما أمرك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها[٣]، قال فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[٤] فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ

---

(١) الدَّوْحة بالفتح: الشجرة العظيمة أيّ شجرة كانت، والجمع دَوْح، مثل: تمرة وتمر، قاله في المصباح المنير، وقد سبق أنه لم يكن بمكة يومئذ غير شجر الشوك. المؤلف.

(٢) النبل. بفتح النون: السهام العربية، وهي مؤنثة ولا واحد لها من لفظها، وقد جمعوها على نبال بالكسر وأنبال. والنبل بالضم: الفضل، وقد نبل من باب ظرف فهو نبيل. اهـ. باختصار من المصباح المنير. المؤلف.

(٣) إن قيل – إن إبراهيم كان يتكلم بالسريانية والعبرانية وابنه إسماعيل لا يعرف غير العربية فكيف فهم أحدهما لغة الآخر. نقول: كان ذلك من معجزاتهما عليهما الصلاة والسلام، ولا يبعد أن يكرم الله تعالى خليله إبراهيم بمعرفة العربية حتى يتمكن أن يستأنس ويتكلم مع ابنه إسماعيل هنا ومع زوجته كما تقدم. المؤلف.

(٤) أي حجر المقام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. المؤلف.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[١]، وما بَنَيَا البيت بالطين ولا بالجِصّ[٢]، وإنما رضماه رضماً، ولم يسقّفاه، ولا زال البيت بعد إبراهيم عليه السلام يبنى كذلك إلى أن بنته قريش فسقفته، كما سيأتي تفصيل ذلك عند صفة بناء الكعبة المعظمة.

قيل: وكان إسماعيل حينئذ ابن عشرين سنة، وقيل: أكثر، وقد جعل إبراهيم الحِجر إلى جنب البيت عريشاً من شجر الأراك تقتحمه غنم إسماعيل فكان زَرْباً لغنمه، وكان موضع البيت ربوة حمراء تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله (والربوة المكان المرتفع).[٣]

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٢٧.

(٢) الجص: بكسر الجيم وفتحها، والصواب الكسر، قاله في المصباح المنير. والجص: هو النورة المسماة بالجير، وقيل هو الجبس، قاله الباجوري في حاشيته، والرضم أن ترصّ الحجارة بعضها فوق بعض بغير طين ولا نورة، ولا يزال الرضم معروفاً في الحجاز إلى اليوم، خصوصاً في القرى والبادية. المؤلف.

(٣) أما الآن فقد انخفضت أرض المسجد الحرام وارتفعت أرض الشوارع المحيطة به بنحو ثلاثة أمتار بسبب ما تأتي به الأمطار والسيول من الأتربة والحجارة من رءوس الجبال وبطون الأودية وعدم إخراج ذلك. أما في الزمن السابق، أي قبل أربعمئة سنة فقد كان مجرى السيل من الجهة الشمالية (أي جهة باب الزيادة)، ومن الجهة الجنوبية (أي جهة باب أجياد) يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلدة جهة المسفلة في كل عشرة أعوام مرة حتى لا تدخل السيول في المسجد الحرام ثم أهمل ذلك حتى ارتفعت الطرقات، ولقد كان الخارج من المسجد الحرام من باب إبراهيم ينزل نحو خمس عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع، أما الآن فإنه لم يبق منها سوى ثلاث درجات والباقي مطمور تحت الأرض، وكان الخارج من المسجد من باب الزيادة ينزل ثلاث عشرة درجة حتى يصل إلى أرض الشارع أي بعدد درجات المسجد من الداخل ثم ارتفعت الأرض بسبب ما تأتي به السيول من الطين وغيره فدفن منها ست درجات، وذلك قبل سنة ألف وثلاثمئة، وأما الباقي وهو سبع درجات فقد أدركناها وكنا نرقي عليها حتى نصل إلى باب المسجد، ثم إنه في آخر شهر شعبان سنة ست وستين وثلاثمئة وألف هجرية فرشت أرض باب الزيادة بالتراب والحصى وبلطت بالنورة الإفرنجية المسماة (بالأسمنت) وبذلك دفن أيضاً خمس درجات منها فصار الباقي الآن درجتان فقط يصعد الناس منهما إلى المسجد. وذكر ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي أنه كانت على الصفا ثنتا عشرة درجة وعلى المروة خمس عشرة درجة وأن الفرسان كانت تمرّ في المسعى والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلا رؤوسها. اهـ. وذكر الأزرقي في تاريخه أن أول من بنى درج الصفا والمروة عبدالصمد بن علي في خلافة أبي جعفر المنصور. المؤلف. =

أما الحجر الأسود فإنه لما انتهى إبراهيم بالبناء إلى موضعه في ركن البيت طلب من إسماعيل حجراً يضعه ليكون عَلَماً على بداءة الطواف، فجاءه جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من أبي قبيس، فأخذه ووضعه في محله هذا، وقد كان الله استودعه أبا قبيس حينما عمّ الطوفان الأرض زمن نوح عليه السلام، فأضاء نوره شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً، فقد كان الركن حينئذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه.

فلما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أتاه جبريل فأراه المناسك كلها، ثم أمره الله تعالى بنداء الناس إلى الحج، كما هو صريح في آية ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾[1].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره: «إن إبراهيم عليه السلام قال: يا رب كيف أُبلِّغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد، وعلينا البلاغ...إلخ»[2]، وجاء في تفسير الجلالين عند هذه الآية ما نصه: «فنادى إبراهيم على جبل أبي قبيس: يا أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً، وأوجب عليكم الحج إليه، فأجيبوا ربكم، والتفت بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال، وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك» اهـ. منه. فمن لبّى يومئذ حج مرة، ومن لبّى مرتين حج مرتين، ومن لبى أكثر حج بعدد تلبيته.

= وفي الوقت الحاضر، أي منذ التوسعة السعودية للحرم الشريف سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) حتى سنة ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) أدخلت عدة تحسينات على الحرم الشريف، وما حوله، آخرها إزالة كافة المباني والأحياء من جوانبه الأربعة، ففي سنة ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) أزيل حي الشامية، والقرارة، والشبيكة، وحارة الباب، وفي الناحية الشمالية الشرقية المدعى، والجودرية، ولم يبق بالحرم الشريف وما حوله من المعالم القديمة سوى الرواق القديم (العباسي) يطلق عليه العامة (الرواق العثماني)، ويبدو في النية هدم الرواق القديم في الحرم الشريف بغرض توسعة المطاف. عبدالوهاب.

(١) سورة الحج، الآية رقم ٢٧.

(٢) الطبعة الأولى، تحقيق: محمد إبراهيم البنا (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن حزم، سنة ١٤١٩هـ(١٩٩٨م) ج٥، ص٢٣٧٨.

أما إبراهيم عليه السلام فقد كان يحجه كل سنة على البراق، وحجت الأنبياء والأمم بعد ذلك. قال مجاهد: «حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، وقال أيضاً: حج خمسة وسبعون نبياً، كلهم قد طاف بالبيت، وصلى في مسجد منى، فإن استطعت ألّا تفوتك الصلاة في مسجد منى فافعل».

وفي تاريخ الأزرقي[١] «أن أنس بن مالك قدم المدينة فركب إليه عمر بن عبدالعزيز فسأله عن الطواف للغرباء أفضل أم العمرة؟ قال: بل الطواف»[٢].

وفيه أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «يُنزل الله عز وجل على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومئة رحمة، ستون منها للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[٣] قال حسان ابن عطية: فنظرنا، فإذا هي كلها للطائفين، فإن الطائف هو يطوف ويصلي وينظر[٤].

ومن اللطائف قول بعضهم:

في البيت أنواع فضل لست أحصرها ... وصاحب البيت أدرى بالذي فيه
من جاءه خائفاً من سوء زلته ... فإن للبيت رباً سوف يحميه

---

(١) هو الإمام أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي: ولد بمكة في القرن الثاني، ولم يعرف بالضبط تاريخ ولادته ووفاته، وإن كتابه (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) يعدّ من أهم الكتب التاريخية وأنفسها وأصدقها. المؤلف.

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الثالثة، تحقيق: رشدي الصالح ملحس (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، سنة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) ج٢، ص٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (١١٤٧٥). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٢/٣): فيه يوسف بن السفر، وهو متروك.

(٤) روى الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير». المؤلف.: انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص٨.

عدد مرات بناء الكعبة المشرفة

بنيت الكعبة المعظمة إحدى عشرة مرة: بنتها. (١) الملائكة. (٢) ثم آدم. (٣) ثم شيث. (٤) ثم إبراهيم. (٥) ثم العمالقة. (٦) ثم جرهم. (٧) ثم قصي. (٨) ثم قريش. (٩) ثم عبدالله بن الزبير. (١٠) ثم الحجاج. (١١) ثم السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، وذلك سنة أربعين وألف هجرية، وقد نظم بعضهم أسماء هؤلاء فقال:

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم	ورتَّبتهم حسب الذي أخبر الثقه
ملائكة الرحمن، آدم، ابنه	كذاك خليل الله، ثم العمالقه
وجُرهم، يتلوهم قصيّ، قريشهم	كذاك ابن الزبير، ثم حَجّاج لاحقه
ومن بعدهم من آل عثمان قد بنى	(مراد) حماه الله من كل طارقه

ونحن لا نريد إطالة الكلام في تفصيل كل ذلك، وإنما ذكرنا نبذة من بناء إبراهيم عليه السلام لمناسبة ما نحن بصدده عن مقامه الكريم، وسنذكر أيضاً نبذة من بناء قريش، وبناء ابن الزبير، وبناء الحجاج، وبناء السلطان مراد للعلم بها في الجملة، ولقربها منا؛ فإن بناء قريش كان في عهد نبينا محمد ﷺ، والبناءات الأخرى كانت بعده – عليه الصلاة والسلام – وسنرسم – إن شاء الله تعالى – الكعبة بالصفة التي كانت عليها في هذه البناءات الأربعة فقط، استنبطناها من كتب التاريخ المعتمدة[1].

---

(١) قد وفى المؤلف – رحمه الله تعالى – بوعده هذا، فظهرت هذه الرسوم في لوحة جميلة في نهاية (صفة بناء الكعبة المعظمة) من هذا الكتاب.

شعر في مدح البيت الحرام[١]

دار عليها مِيسم[٢] من القِدم ... حُجّت على أول خفّ وقَدم
مهْدُ الهدى في الأولين ركنها ... وحصنه في الآخرين صحنها
تلك جباهُ الرسل في ترابها ... وخد إبراهيم في محرابها
غنيَّة عما كساها أسعدُ[٣] ... في الدهر وَهْو بالثناء أسعد
وكم جلاها في اليماني المسْبَل ... من قبلتْ منه ومن لم تقبل
لا تلمِسنَّ وشْيها ضريرا ... رُبَّ عروس تلعن الحريرا
تواضعتْ بين شعاب الوادي ... لم تتخذ تبذّخ الأطواد
لم تبن بالصفاح والصَّوّانِ[٤] ... ولا علتْ تَعَالِيَ الإيوانِ
لايدُ خوفو[٥] أرهقت فيها البشر ... ولا سليمان لها الجنّ حشر
بل صنع شيخٍ مقبلٍ مزاولِ ... أُعينَ بابن يافع مُناولِ[٦]
قد رفعاها حجراً فوق حَجَر ... ووضعا فيها على اليمنِ الحَجر[٧]
الله يوحي والأمين يشهدُ ... وتخشع الأرض ويعلو المعهد
حتى تجلّتْ قبة الإيمان ... ممدودة الظل على الزمان
وركنها كامن في أم القرى ... تطوي القباب والقصور والقرى

---

(١) منقول من كتاب دول العرب وعظماء الإسلام لأمير الشعراء شوقي بك. المؤلف.

(٢) جمال. المؤلف.

(٣) أسعد الحميري: هو أول من كسا الكعبة. المؤلف.

(٤) الحجارة العظيمة. المؤلف.

(٥) أحد الفراعنة المشهورين. المؤلف.

(٦) هما إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام. المؤلف.

(٧) أي الحجر الأسود. المؤلف.

دعائم من خشية وتقوى ... على تطاول الزمان تقوى
وما بنى الحقُّ له الثبوتُ ... وما بنى الباطلُ عنكبوتُ
تقبل الله من الحواري[1] ... واختصّ بالبيت وبالجِوار
واختار من عباده قبيلا ... للبيت يهدونهمُ السبيلا
أولو الإله الكرماء عهدا ... النازلو البيت العتيق مهدا
الراضعوا زمزم في الهواجر ... وهي تدرّ من بنان هاجَر[2]
غرة آبائهم الذبيح[3] ... والأمهاتِ جرهم الصبيح[4]
أبناء إسماعيل حول بكة[5] ... تضوّعت منهم شعاب مكة
بيتهمو محبوكة مفاخره ... أولُه نبوة وآخرهْ

---

(١) أي إبراهيم عليه السلام. المؤلف.

(٢) زوجة إبراهيم عليه السلام. المؤلف.

(٣) إسماعيل عليه السلام. المؤلف.

(٤) جد حيّ من العرب البائدة. المؤلف.

(٥) بطن مكة. المؤلف.

صفة بناء الكعبة المعظمة

كيفية بناء إبراهيم عليه السلام

بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا جصّ، وحفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر يلقى فيها ما يهدى إليها تكون خزانة لها، وكان عمقها ثلاثة أذرع، كما ذكره الأزرقي[١]، ولم يجعل للكعبة سقفاً ولا باباً من الخشب أو غيره، وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي للدلالة على وجه البيت[٢].

والسبب في ذلك أنهم كانوا على الفطرة لا يعرفون الخيانة ولا السرقة، وما كان عندهم من الأموال والذهب والفضة ما يسرق، وما كانوا يسكنون في تلك العصور الأولى كما نسكن نحن في البيوت المنيعة، والقصور المشيدة.

وقد كان بناء إبراهيم للكعبة من خمسة جبال من طور سيناء، وطور زيتاء ولبنان[٣]، والجودي، وحراء[٤]، وكانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال، فكان هو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، فبناه على

---

(١) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٦٥.

(٢) أول من جعل للكعبة باباً يغلق أسعد الحميري، وهو تُبّع أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد، وهو أول من كساها كسوة كاملة ونحر عندها. المؤلف.

(٣) طور زيتاء وطور تيناء: هما جبلان ببيت المقدس، قاله الثعالبي، أما لبنان: فجبل بالشام ويقال له جبل الأولياء اهـ. من شرح عمود النسب، وهو مخطوط غير مطبوع. المؤلف.

(٤) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص ٣٧؛ وانظر: الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الثانية، نسخ وتحقيق: أيمن فؤاد السيد، ومصطفى محمد الذهبي (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، سنة ١٩٩٩م) ج١، ص١٧٦.

أساس آدم، وهذا الأساس حجارته من جبل حراء[١] كانت الملائكة تأتي بها، وتقذف فيه، وهو المسمى بالقواعد؛ وقد جعل إبراهيم عليه السلام للكعبة ركنين فقط: الركن الأسود، والركن اليماني، ولم يجعل لها أركاناً من جهة الحِجْر، بل جعلها مدوّرة على هيئة نصف دائرة كجدار الحِجْر، وجَعلَ إلى جنبها عريشاً من أراك[٢] تقتحمه غنم إسماعيل فكان زَرْباً لغنمه، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مبوّب، وجعل ارتفاعها من الأرض في السماء تسعة أذرع، وجعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له واحداً وثلاثين ذراعاً، وعرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحِجْر اثنين وعشرين ذراعاً، وعرض الجدار المقابل له عشرين ذراعاً[٣] – وما ذكره صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة بأن إبراهيم عليه السلام جعل لها بابين هو وهَم منه، والصواب أنه جعل لها باباً واحداً فقط، كما يظهر ذلك عند التأمل في كتب التاريخ.[٤]

قد يتساءل بعضهم لم بنى سيدنا إبراهيم الخليل – عليه السلام – الكعبة المعظمة بالرضم من غير طين ولا جصّ؟ ولمَ لمْ يجعل لها سقفاً وباباً من الخشب أو

---

(١) حراء: بكسر الحاء المهملة، جبل واقع في الشمال الشرقي من مكة وفي منتهاها، ويرى هذا الجبل من مكة، وهو جبل مبارك؛ كيف لا؟ والأساس الأول للكعبة من حجارته. وكان رسول الله ﷺ يأتي حراء فيتحنث فيه، أي: يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة بنت خويلد فيتزود بمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه وأقرأه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ الآيات، كما روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وقد ذكر الأزرقي في تاريخه فضل حراء وما جاء فيه، ويسمى حراء بجبل النور عند الحجازيين. المؤلف.

(٢) الأراك: شجر من الحمض يستاك بقضبانه. الواحدة أراكة. المؤلف.

(٣) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص ٦٤.

(٤) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٥٨ وانظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، الطبعة الثانية (جدة: تهامة، سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ص٣١، ٤٤.

غيره؟ ولمَ لمْ يجعل لها بابين أحدهما للدخول، والآخر للخروج؟ ولمَ جعل حِجْر إسماعيل مدوّراً، وجعله من شجر الأراك ولمْ يبْنِهِ بالرضم؟

(فالجواب) – والله تعالى أعلم بالصواب – هو أن إبراهيم – صلوات الله وسلامه عليه – بنى الكعبة الغراء بالرضم من غير طين ولا جصّ ومن غير سقف ولا باب؛ لأن ذلك العصر القديم لم يكن فيه شيء من وسائل البناء وأسباب الحضارة – فمن أين يأتي بالأدوات الحديدية والآلات المختلفة لحفر الأرض وخلط الطين ونشر الخشب ودق المسامير؟

وما دام لم يكن بمكة سوى إبراهيم وابنه – عليهما الصلاة والسلام – ونفر من قبيلة جُرهم، وما دام باطن الكعبة تراباً وجدرانها من حجارة الصخور، فلا لزوم لعمل سقف لها، ولا لعمل باب يغلق عليها، كما لا لزوم لعمل مدخلين فيها للدخول وللخروج.

وأما جعله حِجْر إسماعيل مدوّراً كما هو الآن – فليتناسب شكله بشكل جدار الكعبة المقابل للحِجْر الذي كان مدوّراً أيضاً، ولينتهي إليه حدود البيت. وأما جعله من شجر الأراك من غير أن يجعله مبنياً بالرضم فلِيُعْلَم أنه تابع للبيت ومن حدوده من غير أن يدخل في ذات بنائه.

وعلى كل حال، فالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لا يعملون شيئاً مما له مساس في الدين إلا بأمر الله تعالى. هذا ما ظهر لنا، والله أعلم بالغيب.

كيفية بناء قريش

أما قريش فقد بنت الكعبة قبل بعثة رسول الله ﷺ بخمس سنين على الأشهر، أي سنة خمس وثلاثين من ولادته عليه الصلاة والسلام، ونقصوا من عرضها من جهة الحِجْر ستة أذرع وشبراً لقلة النفقة الحلال التي جمعوها لعمارتها، وأداروا على الحِجْر جداراً قصيراً يطوف الناس من ورائه، وجعلوا بابها مرتفعاً عن الأرض وكبسوه بالحجارة حتى لا تدخل

السيول فيها وحتى يُدخِلوا فيها من شاؤوا ويمنعوا من أرادوا، وجعلوا الباب مصراعاً واحداً، وأبقوا فيها جُبّ الكعبة: أي خزانتها التي يلقى فيها ما يهدى إليها، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث دعائم، وجعلوا لها سقفاً وميزاباً من الجهة الشمالية، مصبُّه على حجر إسماعيل عليه السلام، وكانت قبل ذلك بلا سقف[١] وجعلوا ارتفاعها من الأرض إلى السماء ثمانية عشر ذارعاً، وجعلوا لها ركنين، ولم يجعلوا لها أركاناً من جهة الحِجْر، بل جعلوها مدوّرة على صفة بناء إبراهيم عليه السلام وكان الناس كذلك يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة، فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش: ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً.

وسبب بناء قريش للكعبة أن امرأة منهم أجمرت الكعبة[٢] فطارت شرارة من مجمرتها في كسوتها فاحترقت وتصدعت وتوهنت جدرانها من كل جانب، وكانت الكعبة قبل بناء قريش مبنية برضم يابس ليس بمدر تدلى الكسوة على الجدر من خارج، وتربط من أعلى الجدر من باطنها، فبنتها قريش بالطين، والذي بناها لهم اسمه (باقوم الرومي)[٣].

---

(١) وأول من جعل للكعبة سقفاً بعد إبراهيم عليه السلام قصيّ بن كلاب، فإنه سقفها بخشب الدوم الجيد وجريد النخل حين بناها، ثم صارت بعده بلا سقف إلى أن بنتها قريش فسقفتها بخشب الدوم وجريد النخل أيضاً، وقصيّ بن كلاب هو الجدّ الرابع للنبي ﷺ. المؤلف.

(٢) أي: بخرتها، والمجمرة، بكسر الميم الأولى: هي المبخرة. اهـ. من المصباح المنير. المؤلف.

(٣) كان باقوم الرومي نجاراً بانياً يتجر جهة ساحل عدن فحمل في سفينته خشباً، فلما وصل إلى الشعيبة - قبل جدة تبعد عنها مرحلتين وهي معروفة إلى اليوم - انكسرت السفينة فسمعت بها قريش فاشتروا خشبها لسقف الكعبة، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة ليبيعوا ما معهم من المتاع على أن لا يعاشروهم، واتفقوا مع باقوم أن يقدم معهم مكة، ويبني لهم الكعبة بنيان الشام، فلما بنوا الكعبة وبلغوا السقف قال لهم باقوم: أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً فقالوا: بل ابن بيت ربنا مسطحاً فبنوه مسطحاً، ومعنى مكبساً: محدّباً كالقبة. المؤلف.؛ انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد ابن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص ١٥٧ باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص٤٥.

كيفية بناء ابن الزبير رضي الله عنهما

أما عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما فإنه بعد أن استخار الله تعالى ثلاثة أيام هدم الكعبة كلها حتى ألصقها وسواها بالأرض، وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجده داخلاً في حجر إسماعيل نحواً من ستة أذرع وشبر، فبناها على أساسه وعلى ذرعه لدليل استند عليه، وهو الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها، غير أنه زاد في طولها إلى السماء حتى صار سبعاً وعشرين ذراعاً، ليتناسب مع عرضها، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض من جهتي الشرق والغرب: أحدهما يدخَل منه، والآخر يُخرَج منه، وجعل طول كل منهما أحد عشر ذراعاً، وجعل لكل منهما مصراعين، وجعل للكعبة أربعة أركان، وقد كان لها ركنان فقط: الركن الأسود، والركن اليماني، فكانت أركانها الأربعة تستلم في زمانه حتى قتل رضي الله عنه، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها، وحلّاها بالذهب، وجعل في سطحها ميزاباً يسكب في الحِجْر، قيل: إن ابن الزبير بنى الكعبة بالقَصَّة بفتح القاف، أي: الجصّ أتى بها من صنعاء، وقيل: إنه بناها بالرصاص المذاب المخلوط بالورس: وهو نبت أصفر يزرع باليمن، ويصبغ به.

فلما فرغ من بنائها خلّق جوفها بالعنبر والمسك، ولطّخ جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها، وسترها بالديباج، وقيل: بالقباطي؛ وهي ثياب من كتان تعمل بمصر، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً لم ير يوم كان أكثر عتقاً، ولا أكثر بدنة منحورة، ولا شاة مذبوحة من ذلك اليوم، وخرج ابن الزبير ماشياً حافياً، وخرج معه كثير من قريش مشاة حتى وصلوا إلى مسجد عائشة بالتنعيم فأحرموا بالعمرة شكراً لله تعالى على ما وفقهم لبناء بيته الحرام على الصفة التي بناها إبراهيم عليه السلام.

وسبب بناء ابن الزبير الكعبة: أن رجلاً في أيام الحصار أوقد ناراً في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام فطارت شرارة في الخيمة

فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة، فاحترقت، واحترق الركن الأسود أيضاً؛ وذلك سنة أربع وستين هجرية [٦٨٣م].[١]

كيفية بناء الحجاج بن يوسف الثقفي

أما الحجّاج بن يوسف الثقفي، فإنه بعد محاصرة ابن الزبير وقتله كتب إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، وأحدث فيها باباً آخر، واستأذنه في رد ذلك على ما كانت عليه في الجاهلية - فكتب إليه عبدالملك أن يسد بابها الغربي، ويهدم ما زاده فيها ابن الزبير من الحِجْر، ويكبسها على ما كانت عليه، ففعل الحجاج ذلك، وهدم من الكعبة ستة أذرع وشبراً مما يلي الحِجْر، وجعل لها أربعة أركان على هيئة بناء ابن الزبير، وسد الباب الغربي الذي في ظهرها، ونقص من طول الباب أربعة أذرع وشبراً، فصار طوله ستة أذرع وشبراً، ورفع الباب الشرقي عن الأرض، وذلك سنة أربع وسبعين هجرية [٦٩٣م].

فكل شيء فيها من بناء ابن الزبير رضي الله عنه، إلاّ الجدار الذي في الحِجْر فإنه من بناء الحجاج، وكذلك ما تحت عتبة الباب الشرقي إلى الأرض والدرجة الموصلة إلى سقف الكعبة من داخلها، والبابان اللذان عليها هما أيضاً من بناء الحجاج وعمله، ولقد بقيت الكعبة على عمارة الحجاج إلى زمن السلطان مراد، كما سيأتي.[٢]

وكان حجر إسماعيل في بناء إبراهيم عليه السلام وفي بناء ابن الزبير صغيراً، ومقداره فيهما واحداً؛ أما في بناء قريش، وفي بناء الحجاج فكان واسعاً، ومقداره فيهما واحداً بالصفة التي هو عليها اليوم؛ لأن الحجاج بنى الكعبة

---

(١) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص ٢٠١- ٢٢١ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج١، ص١٨٥ باسلامة، حسين عبدالله، الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص٦٧.

(٢) انظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص٨٦.

بالصفة التي بنتها قريش، وهي كانت نقصت من الكعبة من جهة الحِجْر ستة أذرع وشبراً؛ وبذلك اتسع الحِجْر.[١]

سبب بناء الحجاج الكعبة

يظن بعضهم أن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان لم يأمر الحجاج بهدم ما زاده ابن الزبير في الكعبة إلا للخصومة التي كانت بينهما - ولكن هذا الظن ليس في محله، ويبعد عن جميع المسلمين، وبالأخص أهل القرن الأول الذين هم خير القرون أن تمتد أيديهم إلى بيت الله الحرام بالهدم والبناء اتباعاً لهوى النفس، ونكالاً بالخصم، بل إنهم لا يجرؤون على بنائه وتعميره إلا في حالة الاضطرار والنهاية القصوى، وبعد الاستشارة واستفتاء العلماء.

وحقيقة الأمر: أن عبدالملك بن مروان ما أمر الحجاج بذلك إلاّ ظناً منه أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة في أيام حصاره هدمها وبناها على حسب رغبته واجتهاده، ويدل على ذلك ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه، فإنه قال: «فلما فرغ الحجاج من هذا كله؛ أي: بناء الكعبة وفد بعد ذلك الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي على عبدالملك بن مروان فقال له عبدالملك: ما أظن أبا خبيب - يعني ابن الزبير - سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة، فقال الحارث: أنا سمعته من عائشة، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: سمعتها تقول: قال لي رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا في بناء البيت، ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريباً من سبعة أذرع، وقال رسول الله ﷺ: وجعلت لها بابين

---

(١) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣١١- ٣٢٢ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج١، ص٤٠١.

موضوعين على الأرض: باباً شرقياً يدخل الناس منه، وباباً غربياً يخرج الناس منه» - قال عبدالملك بن مروان: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا سمعت هذا منها. قال: فجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة، ثم قال: وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك»[١]. انتهى من الأزرقي.

فهذا دليل واضح أن عبدالملك ما كان يعلم أن ابن الزبير بنى الكعبة بموجب الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها، فلما ثبت ذلك عنده، وتحقق لديه، ندم على فعله، فإذا تأملت في الحديث المذكور لمع لك بارق المعجزة النبوية، ففي قوله ﷺ لعائشة: «فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك... الخ» معجزة باهرة على أن الكعبة ستبنى بعد وفاته، وفي إخباره لها بذلك بالأخص إشارة إلى أن بناءها يكون في حياتها، وأن الذي سيبنيها هو من أقاربها، فإن عبدالله بن الزبير هو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه، وقد تحقق كل ذلك، وكلتا الإشارتين تحققتا بعد موته ﷺ بثلاث وخمسين سنة.

كيفية عمارة السلطان مراد الرابع

أما عمارة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد، من سلاطين آل عثمان، فسببها: أنه في الساعة الثانية[٢] من صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان سنة ألف وتسعة وثلاثين [نحو ١٦٢٩م] نزل مطر عظيم بمكة المكرمة وضواحيها لم يسبق له نظير، فدخل السيل المسجد الحرام ووصل إلى ارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة[٣]، وفي عصر اليوم التالي، أي: يوم الخميس سقط الجدار الشامي من الكعبة بوجهيه، وانجذب معه الجدار الشرقي إلى حدّ الباب الشامي، ولم يبق سواه، وعليه قوام الباب،

(١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٢١١.

(٢) الموافقة للساعة الثامنة الإفرنجية تقريباً. المؤلف.

(٣) ولقد أحصي من مات في هذا السيل فكانوا ألف نسمة، كما جاء في هامش تاريخ الأزرقي. المؤلف.

ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو السدس، ومن هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين وبعض السقف، وهو الموالي للجدار الشامي.

ويقول محبنا وجارنا[١] المؤرخ الثقة الشيخ عبدالله الغازي الهندي المكي – رحمه الله تعالى – في تاريخه[٢]: «وهذا الذي سقط من الجانب الشامي هو الذي بناه الحجاج الثقفي، وسقطت أيضاً درجة السطح». اهـ كلامه، فقوله هذا صحيح مطابق للحقيقة.

ثم أمر السلطان مراد – رحمه الله تعالى – ببناء الكعبة المشرفة فتم بناؤها في شهر رمضان سنة أربعين وألف على صفة بناء الحجاج – رحمه الله تعالى – فعمارة السلطان مراد للكعبة هي العمارة الأخيرة إلى يومنا هذا.[٣]

واعلم أن بين بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة وبين بناء قريش (٢٦٤٥) ألفي سنة وستمئة وخمساً وأربعين سنة ، كما نقله البخاري في تاريخه عن الحلبي.

أما بين بناء قريش وبين بناء ابن الزبير، فاثنتان وثمانون سنة، وبين بناء ابن الزبير وعمارة الحجاج الثقفي عشر سنين، وبين عمارة الحجاج وعمارة السلطان مراد تسعمئة وست وستون سنة.

---

(١) كان كلا الشيخين عبدالله غازي والشيخ محمد طاهر كردي المكي يسكنان في رباط باب الزيادة الذي يسمى برباط الحنابلة.

(٢) توفي الغازي بمكة في اليوم الخامس من شعبان سنة خمس وستين بعد الثلاثمئة والألف (١٩٤٦/٧/٤م)، وتاريخه يسمى [إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام] وهو أربعة مجلدات كبار (لم يطبع). وقد توفي والدنا الشيخ عبدالقادر الكردي بعد الغازي بشهر واحد، رحمهما الله تعالى. المؤلف.
قد طبع كتاب الشيخ عبدالله غازي (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام) بدراسة وتحقيق معالي الشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش في سبعة مجلدات سنة ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).

(٣) انظر: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، سنة ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م) ج١، ص٣١٨.

ومن أراد الوقوف على تفاصيل عمارات الكعبة كلها فليراجع كتب التاريخ[١]، فإننا لم نذكر هذه الخلاصات لبعض العمارات إلا للمناسبة.

ولقد وفقنا الله تعالى إلى أن نضع رسوماً للكعبة المعظمة بالصفة التي بناها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبالصفة التي بنتها قريش، وبالصفة التي بناها عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، وبالصفة التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي – رحمه الله تعالى – على أصح الروايات الثابتة في كتب التاريخ.

وقد وضعنا هذه الرسوم في هذه الأدوار الأربعة بصورة بديعة مدهشة، وحليناها بالكتابات الجميلة بخط يدنا، وبيّنا فيها ما ورد في التاريخ عن صفتها في عهودها الأربعة المذكورة، ليكون ذلك دليلاً واضحاً، وبرهاناً ساطعاً على صحة هذه الرسوم والصور.

فهذه الرسومات الأربعة للكعبة هي من ابتكارنا واختراعنا، ولم يسبقنا أحد قط إلى رسمها وتصويرها بهذه الصفات، وقد طبعناها في الهند على صفحة مستقلة، فالحمد لله على توفيقاته المتوالية؛ والشكر له على نعمه التي لا تحصى.

وإليك رسوماتها الأربعة – فانظر إليها بعين البصيرة والبصر، وسرّح الفكر في دائرة الإيمان، ليتأملها بدقة وإمعان، حتى يظهر لك من دقيق المعاني، ورموز الإشارات، ما تقرّ به عيناك، وينشرح له صدرك.[٢]

---

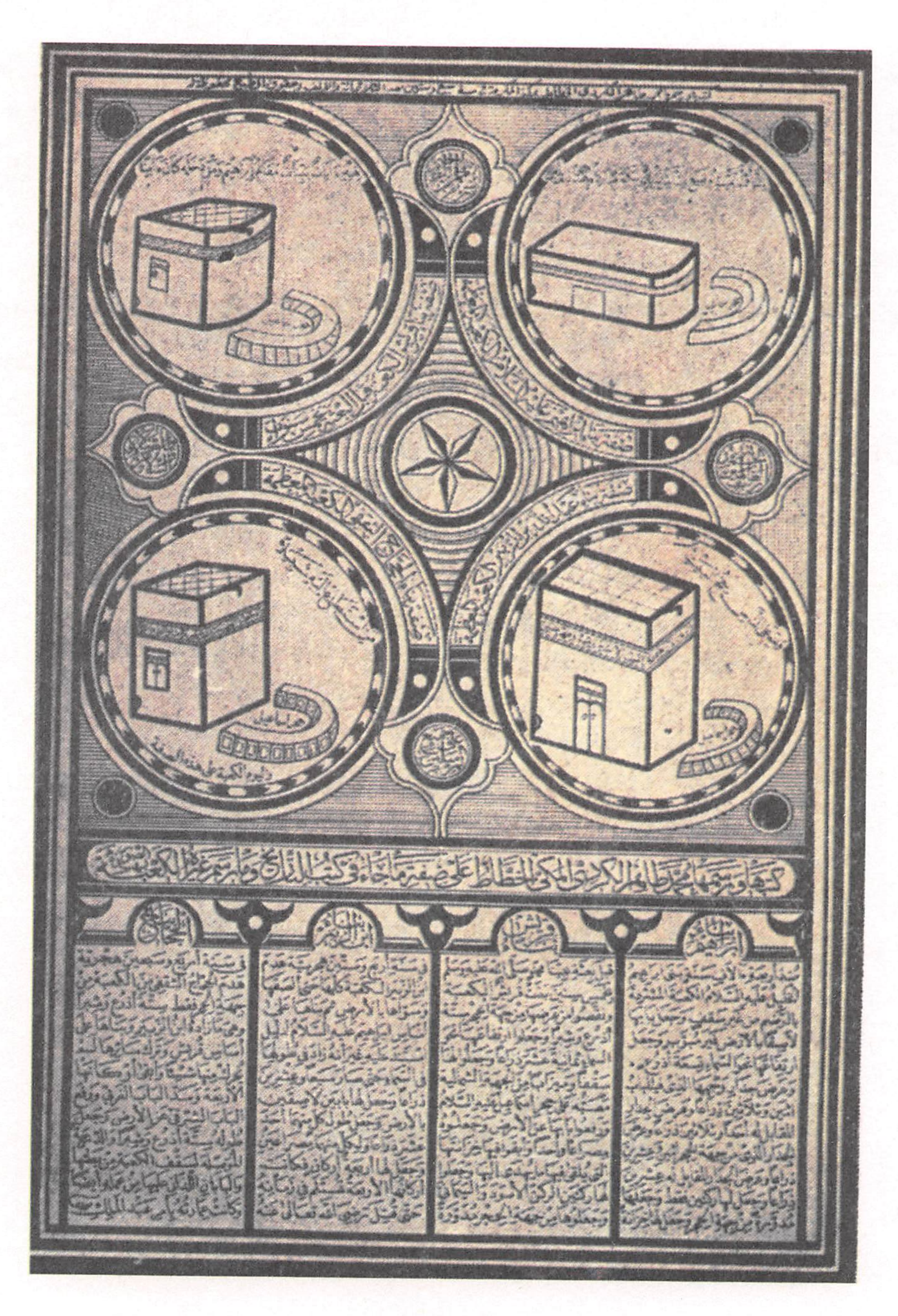
(١) انظر: باسلامة حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص١٩– ١٢٧؛ الغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٢٧٥– ٤٢٩.

(٢) انظر هذه الرسوم التي تحدث عنها المؤلف رحمه الله في نهاية (صفة بناء الكعبة المعظمة) من هذا الكتاب. وهي أيضاً في كتاب المؤلف الموسوعي لتاريخ مكة المكرمة (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم) خص لبناء الكعبة الصفحات (١١– ٢٩٣) من الجزء الثالث، وقد ضمن هذه الصفحات من رسمه وإبداعه رسماً لكل بناء من أبنية الكعبة في العصور المختلفة، وعرف بكل واحد منها.

فسبحان من كرّم بيته الحرام بالتعظيم والإجلال، وأودع فيه من الأسرار ما لا تدركه فحول الرجال، وجعله مثابة للناس وأمناً، والحمد لله الذي جعلنا من أهله وجيرانه.

نسأله، وهو الكبير المتعال، أن يجعلنا من سعداء الدارين، وأن يختم حياتنا بما ختم به حياة أنبيائه وأصفيائه وأوليائه، وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت لوائهم، وأن يجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلى الله على سيدنا محمد أبي القاسم الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.



رسم الكعبة المعظمة على صفة كل بناء

[يتجلى جمال هذا الرسم بما أبدعه الشيخ محمد طاهر كردي من رسوم الكعبة المشرفة في مختلف العصور استنباطاً مما كتبه المؤرخون، ثم تدوين هذا في جدول يتميز شكلاً بترتيبه التاريخي الجميل]

منظومة في صفة بناء الكعبة المعظمة

لما كانت الأنفس تميل عادة إلى الشعر وسماع القريض، وخصوصاً ما كان منه سهلاً ظريفاً، عملنا منظومة لطيفة مختصرة فيما تقدم من كيفية بناء الكعبة المعظمة في الأدوار الأربعة، وطبعناها في الهند في هذه السنة منذ أربعة أشهر، بحجم صغير كرسالة مستقلة.

ولقد أحببنا إثباتها في نفس كتابنا هذا نفسه؛ تتميماً للفائدة، واسترواحاً للنفس، وهي هذه:

الحمد لله الذي هدانا ... حمداً يُوافي نعماً أولانا
نشكره شكر الذليل المفتقرْ ... إلى العزيزِ والغنيِّ المقتدرْ
سبحانه جلَّ تعالى اللهُ ... مَنِ الْتجا إليه لا ينساهُ
ثم صلاتهُ مع السلام ... على النبي وآله الكرام
وبعدُ هذي نبذة ظريفهْ ... وطرفة بديعة لطيفهْ
في صفة البِنَا لبيت اللهِ ... تعظيمهُ فرض بلا تناهِ

صفة بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة

قد بوّأ الله لإبراهيما ... مكانَ بيته فكن فهيما
فجا إلى مكة بالبراقِ ... دَعَا لها بكثرة الأرزاقِ
فقامَ يبني بيتَه الحراما ... ثم دَعَا لحجِّه الأناما

سـاعده في ذاك إسـماعيلُ … وهـو النَّبـيُّ الصـادق النبيـلُ
حتَّـى إذا طـال بـه الجـدرانُ … ومـا أتـمَّ حـدَّه البنيـانُ
قـامَ عـلى المقـامِ وهـو ارتفعـا … بـه فأكمـل البِنَـا وأبْدَعـا
ورسـختْ قدمـهُ عـلى الْحَجَـرْ … ليومنـا هـذا يُـرى فيـه الأثـرْ
وكـل ذا معجـزة الخليـلِ … مَكرُمـة مـن ربنـا الجليـلِ
بنـاه حسـب مـا بنـاه آدمُ … فكـم بـه طافـت قديمـاً أمـمُ
بنـاه بالرضـم بغيـر طـينِ … وقـد أتـى تعظيمـه في الديـنِ
حفـر في باطنـه خِـزانـهْ … لكـل مـا يُهـدى لـه صيانـهْ
وجعـل الحِـجْـرَ إلى جـانبـهِ … مـدوَّراً كمـا هـو الآن بـهِ
وجعـل البـاب بلصـق الأرضِ … وقاسـه بالطـول ثـم العـرضِ
ومـا لـه سـقف ولا ميـزابُ … ولا لـه بـاب ولا بـوَّابُ

صفة بناء قريش الكعبة قبل البعثة بخمس سنين

وقبـلَ بعثـة النبـيِّ قـد بنـتْ … قريـشٌ الكعبـةَ حيـنَ وَهنـتْ
وحضـرَ البنـاءَ سـيدُ البَشـرْ … مستسـهلاً في كَتفْه حَمْل الحجر
فجمعـوا مـن أطيـب الأمـوالِ … حتـى يقيموهـا مـن الحـلالِ
ونقَّصـوا مـن الأسـاس الأوَّلِ … جدارهـا الشـامي بغيـر جـدَلِ
فاتسـع الْحِجْـرُ بـذاك النقـصِ … وكان قبـل ضيقـاً كالخُـرضِ
وجعلـوا ارتفاعهـا إلـى السـما … ورفعـوه ضِعـف مـا تقـدمـا
وعملـوا أيضـاً لهـا ركنيـنِ … كسـابق العهـد بغيـر ميْـنِ
وقـد أداروا حائطـاً بالْحِجْـرِ … مـدوَّراً مكـلَّلاً بالطُّـهْـرِ

وسـقّفـوها خشـــباً مـــلائمـا وجعـــلـوا داخـلهـا دعـــائمـا
وركّبــوا الميـزاب فـوق السـطحِ مصبّه فـي الْحِجْر خـوف النضحِ
وبابَهـــا قــــد رفعـــوا ليُدخِلـوا فيهـا الـذي مـن مالـه سـيبذلُ

صفة بناء عبدالله بن الزبير الكعبة سنة أربع وستين

وابـنُ الزبيـر بعدَهُـم بَناهـا حيـنَ وهَـتْ وضعفـت قُواهـا
علـى أسـاس مـا بنـى الخليـلُ حيـث لـه قـد ثبـت الدليـلُ
فزادهـا طـولاً إلـى السـماءِ سـبعاً وعشـرين بـلا امتـراءِ
وجعـل الأركان فيهـا أربعـهْ كانـت إلـى مماتـه متّبِعـهْ
ووضـعَ الميـزابَ فـوق سـطحها موضعهـا الأول مـن مصـبِّهـا
يُصعـد فـوق سـطحها بالدّرجـهْ عملهـا مـن خشـــب معرَّجـهْ
وجعــــل البـــابيـن مِصراعيْـنِ كليهمــــا بـــالأرض لاصِقـيْـنِ
فبابهــــا الشـــرقيُّ للدخـــولِ وبابهــــا الغـــربـيُّ للأفـــولِ

صفة بناء الحجاج الثقفي الكعبة

ثـم بناهـا الثقفـي الْحَجّـاجُ بينهمـا قـــد وقـــع اللّجـاجُ
فهـدم الجـــدارَ صـوبَ الْحِجْـرِ ثـم بناهـــا كقـريـش فـادْرِ
فاتّسـعَ الحِجْـرُ كمـا قـد كانـا ووسِـــعَ النـــاس بـــه مكانـــا
وســـدّ بابَهـا الـذي في ظهرهـا ورفـعَ البـــاب الـذي في وجههـا
أبقـــى لهـا الأركانَ لـم يُغـيرًا أربعـــة كانـت ومـا زالـتْ تُـرَى
وقـد بنـى في بطنهـا ذاك الـدرَجْ بحَجَـرٍ وليـس فيـه مـن حـرَجْ

صفة بناء السلطان مراد الرابع الكعبة

وآخِرُ البناءِ جا بالوصف | في سنة أربعين بعد الألف
بسبب السيل الذي قد دخلا | للمسجد الحرام حتى وصلا
لقُفل باب الكعبة المشرَّفهْ | فوقعتْ منها الجدارُ مُتلَفهْ
فقام بالتعمير سلطانُ الورَى | مُرادٌ بنُ أحمدٍ فحرَّرا
من آل عثمان الكرامِ النُّجبَا | فقد رأى الإسلام منهم عجبَا
فكان ما بناه وفق ما بنى | الثقفي الحجّاج فازًا بالمُنى
من غير ما زيادة أو نقص | روى لنا التاريخ ذا بالنّصّ
ومنذ ذاك العصر حتى يومنا | ما قد جرى شيء لبيت ربّنا
أحاطه الله بثوبِ العظمهْ | وقد حَمى حدوده وحرَّمهْ

ناظم هذه القصيدة وتاريخ نظمها

نظمها طاهرٌ الكرديُّ | لقبه الخطّاط والمكّيُّ
كتبها بخطه الجميل | حُفظ من حاسده الثقيل
في غُرّةِ شهر ربيعِ الأولِ | في سنة ستّين وسبع عَوِّلِ
ثم ثلاثمئة وألف | عامله اللهُ بشتّى اللطف
أعماله من الهَوى مجرَّدَهْ | يرجو من اللهِ الكريم مدَدَهْ
والعفوَ والراحةَ عند الموتِ | والرزقَ والخير وحسن البَخْتِ
والستر والصحة ثم العافيهْ | ونِعَماً وابلةً ووافيهْ
يسأله الثباتَ جوفَ القبرِ | والفوز بالجنة يومَ الحشرِ
والأمنَ والأمانَ في الداريْنِ | واليُسر في أموره بالهيْنِ
وأن يكونَ قلبهُ ونفسُهُ | كإسمهِ وأن يدومَ أنسُهُ
وستر اللهُ له عيوبَهُ | ووالديهِ وعَفَا ذنوبَهُ

وجعـــل البـــاقـيَ مــن حياتــهِ أحســنَ مـا مـرَّ إلـى مماتــهِ
نحمَـدُه فـي البـدءِ والخِتـامِ نشـكرهُ شـكراً علـى الـدوامِ
فكـم لـه مـن نِعَـم لا تحصـى تـزداد بالشـكر كمـا جـا نصًّـا
فهـو الكريـمُ المحسِّـنُ العظيـمُ خالقُنـا الرحمـنُ والرحيـمُ
الملـكُ القـدوسُ والسـلامُ المؤمـنُ المهيْمـنُ العـلاَّمُ
وأشـرف الصـلاة والسـلام علـى النبـي وآلـه الكـرام
محمـدِ مـن لا نبـيَّ بعـدَهْ أيّـدهُ اللـهُ تعـالى وحـدَهْ
قـد تمـت الرسـالةُ اللطيفـهْ منظومـةٌ فـي الكعبة الشـريفهْ[1]

مقاييس الكعبة وحدود المطاف

لقد قمنا في شهر رجب سنة ١٣٦٧هـ [١٩٤٨م] بأخذ أقيسة الكعبة وما حولها من المطاف ما عدا ارتفاعها من سطحها للأرض، فإننا لم نتمكن من أخذ قياسه، وإنما ذكره إبراهيم رفعت باشا - رحمه الله تعالى - في كتابه (مرآة الحرمين)، ولم نر من تعرَّض قبلنا لحدود المطاف بالمتر، وإليك بيان كل ذلك في هذا الجدول:

(١) انظر هذه القصيدة كاملة وافية مع إضافات واسعة في كتابه التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم يشير بها المؤلف تاريخيًا إلى ما حدث للكعبة المشرفة من ترميم فى العصر السعودي الزاهر، آخر ما جاء من العناوين (بيان ما وقع من العمارة فى الكعبة المشرفة فى عصرنا الحاضر، وذلك سنة ١٣٧٧ من الهجرة)، جاء فى آخرها: «نظمها بمكة المشرفة فى رمضان المبارك بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المشرفة، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ١٣٨٠هـ». ج١، ص٢٩٣، هناك بعض الاختلاف والزيادات بين المنظومة هنا فى كتاب (مقام إبراهيم عليه السلام) والمنظومة في كتاب (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم).

سنتيمتر	متر	بيان ارتفاع الكعبة وطولها، وحدود المطاف
٠٠	١٥	مقدار ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء «كما ذكره صاحب مرآة الحرمين».
٥٨	١١	مقدار طول الكعبة المعظمة من الجهة الشرقية التي بها الباب «من غير الشاذروان».
٩٣	١١	مقدار طولها من الجهة الغربية «من غير الشاذروان».
٢٢	١٠	مقدار طولها من الجهة الشامية أي: من جهة حجر إسماعيل «من غير الشاذروان».
١٣	١٠	مقدار طولها من الجهة اليمانية أي: ما بين الركنين «من غير الشاذروان».
٥٠	١	مقدار ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض (بحيث يمكن لكل إنسان تقبيله بسهولة).
٠٠	٢	مقدار ارتفاع باب الكعبة عن الأرض.
٠٠	٢	مقدار طول بابها.
٦٥	٢	مقدار فتحة حِجْر إسماعيل من الجهة الشرقية.
٥٨	٢	مقدار فتحة حِجْر إسماعيل من الجهة الغربية.
٣٦	٨	طول ما بين ميزاب الكعبة إلى وسط جدار حِجْر إسماعيل.
١٠	١١	طول ما بين شاذروان الكعبة من الجهة الشرقية إلى شباك مقام إبراهيم.
٠٠	١٢	طول ما بين جدار حِجْر إسماعيل من وسطه من الجهة الشامية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام الحنفي.
٨٠	١٥	طول ما بين شاذروان الكعبة من وسط جدار الجهة اليمانية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام الحنبلي.
٨٠	١٥	طول ما بين شاذروان الكعبة من وسط جدار الجهة الغربية إلى دائر المطاف الذي أمام المقام المالكي.[1]

(١) أما في الحاضر فقد وصل اتساع المطاف من جميع جهاته إلى حافة الرواق، بل لقد أزيل مدخل بئر زمزم من الساحة الدخلية للمسجد الحرام تماماً، وأصبح الدخول للبئر من الجهة الشمالية من ناحية (باب الفتح) وبهذا أصبح مسطح المطاف من جميع الجهات خالياً من أية نتوءات تزحم الطائفين عدا مجسم مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

تراجم بُناة الكعبة في أدوارها الأربعة

لا بد أن يقف الإنسان على تراجم مشهوري الرجال الذين قاموا بجلائل الأعمال، وبالأخص بناة الكعبة المعظمة؛ لذلك رأينا أن نذكر هنا نبذة مختصرة من تراجم من قام ببنائها وتعميرها في أدوارها الأربعة فقط. وقد تشرفنا في أول الكتاب بذكر ترجمة سيدنا إبراهيم خليل الله – عليه الصلاة والسلام – الذي يعد أول من بناها بنص القرآن الكريم.

ترجمة قريش

العرب صفوة البشر، وقريش قلب العرب وصفوتها، ولا يمكننا الإسهاب في بيان فضلها وأنسابها وقبائلها، وإنما نذكر عن قريش نبذة يسيرة لمناسبة بنائها الكعبة المشرفة ملخصاً من كتاب (العقد الفريد) وغيره فنقول:

كان قريش يدعى النضر بن كنانة، وكانت قريش متفرقة في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك من كل أوب[1] إلى البيت فسمّوا قريشاً، والتقريش: التجميع، ويسمى قصي بن كلاب مجمّعاً، قال فيه الشاعر:

قصـــي أبوكم من يسمَّى مجمّعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

وكانت قريش تسمى آل الله، وجيران الله، وسكان الله، وفي ذلك يقول عبدالمطلب ابن هاشم:

---

(١) أي من كل جهة. المؤلف.

نحن آل الله في ذمته لم نزل فيها على عهد القِدَمْ
إن للبيت لربّاً مانعاً من يُرد فيه بإثم يُخترمْ
لم تزَل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النِقمْ

ولقد ورد في فضل قريش جملة أحاديث، منها: قوله ﷺ: «الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها، وإن أمّرت عليكم قريش عبداً حبشياً مجدّعاً فاسمعوا له وأطيعوا، ما لم يخيّر أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه، فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقَه». رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «قَدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها»[٢]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى خلَق الخلْق فجعلني في خيرِ فِرَقهم وخيرِ الفريقين[٣]، ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»[٤].

هذا، ولقد حضر رسول الله ﷺ بناء قريش الكعبة، فكان ينقل الحجارة مع قريش؛ كما حضر بناءها نخبة من رؤساء قريش ووجهائها، منهم: الوليد

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ح (٤٢٥)، والحاكم في المستدرك (٤/٧٦). وحسّنه الحافظ ابن حجر كما في فيض القدير للمناوي (٣/١٩٠).

(٢) أخرجه البزار ح (٢٧٨٤)، والبيهقي في سننه (٣/ ١٢١). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥) وقال: رواه الطبراني، وفيه أبو معشر وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) أي العرب والعجم. المؤلف.

(٤) أخرجه الترمذي ح (٣٦٠٧) وحسّنه، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٤٧). وسنده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد الهاشمي.

ابن المغيرة، وهو أول من علا الكعبة وهدمها، وقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح، ثم تبعته قريش فهدموا معه بعد أن هابوا هدمها أولاً، وأبو جهم، وقد حضر بناء ابن الزبير أيضاً، وستأتي ترجمته، والعباس ابن عبدالمطلب، وأبو أمية بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأبو زمعة بن الأسود بن المطلب، والعاص بن وائل، وأبو حذيفة بن المغيرة، وأبو وهب بن عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم، وأبو سفيان، وأبو أُحَيْحة سعيد بن العاص.

وغيرهم ممن لن نبحث عن أسمائهم حيث لم نقصد حصرهم، وإنما ذكرنا هؤلاء للعلم بهم في الجملة، ولم نتعرض لتراجمهم حتى لا يطول بنا الكلام.

ترجمة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما

هو عبدالله بن الزبير بن العوّام بن خويلد القرشي. وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأبوه الزبير بن العوّام، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ولد عبدالله المذكور سنة الهجرة؛ وهو أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد، فكبر الصحابة حين ولد. وعن أمه أسماء أنها حملت بعبدالله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا متم[١]، فأتيت المدينة، ونزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق النبي ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرّك عليه، ثم مسحه وسماه عبدالله[٢]، ثم أمره أبوه الزبير أن يبايع النبي ﷺ وهو ابن سبع أو ثمان، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه وبايعه، ولقد وصفه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: إنه عفيف الإسلام، قارئ القرآن، أبوه حواري رسول الله ﷺ، وأمه بنت الصديق، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد. وعن عمرو بن دينار قال: ما رأيت مصلياً أحسن صلاة

(١) أي مقرب. قد دنا وضعها لولدها.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص٥٦٨.

من ابن الزبير. وعن مجاهد: ما كان باب من العبادة إلا تكلفه ابن الزبير، ولقد جاء سيل بالبيت فرأيت ابن الزبير يطوف سباحة، ولقد حفظ ابن الزبير عن النبي ﷺ وهو صغير، وحدث عنه بجملة من الحديث، وعن أبيه وعن أبي بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وسفيان بن زهير، وغيرهم، وهو أحد العبادلة، وأحد الشجعان من الصحابة، ويكنى بأبي خبيب بولده.

وشهد ابن الزبير وقعة اليرموك مع أبيه الزبير، وشهد فتح إفريقية، وكان البشير بالفتح إلى عثمان، وشهد الدار، وكان يقاتل عن عثمان، ثم شهد وقعة الجمل مع عائشة وكان على الرجال ثم اعتزل حروب علي ومعاوية، ثم بايع لمعاوية، فلما أراد أن يبايع ليزيد امتنع، وتحول إلى مكة، وعاذ بالحرم، فأرسل إليه يزيد سليمان أن يبايع له فأبى ولقب نفسه عائذ الله، فلما كانت وقعة الحرة وفتك أهل الشام بأهل المدينة، ثم تحولوا إلى مكة فقاتلوا ابن الزبير، واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار، ثم جاءهم الخبر بموت يزيد بن معاوية فتوادعوا، ورجع أهل الشام، وبايع الناس عبدالله بن الزبير بالخلافة، فلما مات مروان قام عبدالملك بن مروان وجهز الحجاج إلى ابن الزبير فقاتله إلى أن قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة [نحو ٦٩٢م]. انتهى باختصار من الإصابة في تمييز الصحابة.(١)

وذكر الإمام ابن كثير في تاريخه ترجمة وافية مطولة لعبدالله بن الزبير في آخر الجزء الثامن، فمما ورد فيه: عن ثابت البناني قال: كنت أمرّ بعبدالله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة. وعن يحيى بن وثاب قال: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتصعد لا تراه إلا جذم حائط. وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح، ويركع

(١) ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني، الطبعة الأولى، ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبدالبر (مصر: المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) ج٢، ص٣٠٠.

ليله حتى يصبح، ويسجد ليله حتى يصبح، وعن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة يصفقها الريح، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا. قال سفيان: كأنه لا يبالي به ولا يعده شيئاً، وحكى بعضهم لعمر بن عبدالعزيز أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد، فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال عن مقامه، ولا عرف ذلك في صورته، فقال عمر بن عبدالعزيز: لا إله إلا الله جاء ما وصفت. وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها، ولقد كان يركع فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوب مطروح. وروي أنه كان يوماً يصلي فسقطت حية من السقف فطوقت على بطن ابنه هاشم، فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلّم. وكان يواصل الصوم سبعاً يصوم يوم الجمعة، ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، ويصوم بالمدينة. ولا يفطر إلا بمكة، ويصوم بمكة ولا يفطر إلا بالمدينة. وقال بعضهم: لم يكن يأكل في شهر رمضان سوى مرة واحدة في وسطه. وقال خالد بن أبي عمران: كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام. وقال بعضهم: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث:

في العبادة، والشجاعة، والفصاحة.

وقال ليث عن مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة. وقد ثبت أن عثمان رضي الله عنه جعله في النفر الذين نسخوا المصاحف، وكان صيتاً إذا خطب يجاوبه الجبلان: أبو قبيس، وزروراء.

وكانت ولاية ابن الزبير في سنة أربع وستين، وحج بالناس فيها كلها، وبنى الكعبة في أيام ولايته، وكساها الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح، وكان يطيب الكعبة حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة، وكان مقتله على الصحيح المشهور يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وأمه لم تعش بعده إلا مئة يوم، وكانت أمه قد

أتت عليها مئة سنة لم تسقط لها سن، ولم يفسد لها بصر، رضي الله عنه وعن أبيه وأمه وعن الصحابة أجمعين.

انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير.[١]

ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي

قال المسعودي في كتابه (مروج الذهب): إن أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة ابن مسعود الثقفي كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي حكيم العرب، فدخل عليها مرة سحراً فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها، فقالت: لم بعثت إليّ بطلاقي؟ هل لشيء رابك مني؟ قال: نعم، دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكنني تخللت من شظايا السواك، فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي فولدت له الحجاج مشوّهاً لا دبر له، فنقب عن دبره.

وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد: أن الفارعة المذكورة كانت زوجة المغيرة بن شعبة، وأنه هو الذي طلقها لأجل الحكاية المذكورة في التخلل، وذكر أيضاً أن الحجاج وأباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف، ثم لحق الحجاج برَوْح بن زنباع الجذامي - وزير عبدالملك بن مروان - فكان في عديد شرطته؛ ثم إن عبدالملك بن مروان قلده أمر عسكره اهـ.

ولقد كان الحجاج من حفاظ القرآن المعدودين، وهو الذي أمر أن يضعوا للحروف المشتبهة علامات، ودعا نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني لهذا الأمر، فاخترعا نقط الحروف الهجائية لتمييز بعضها من بعض، كالدال والذال والفاء والقاف ليأمنوا اللبس والاشتباه والتصحيف[٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ج٤، ص٥٦٨؛ و ج١٢، ص١٨٦.

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتابنا تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه، ص١٨١.؛ وأيضاً كتابنا تاريخ الخط العربي وآدابه، ص ٩٣. وهما مطبوعان. المؤلف.

وأخبار الحجاج كثيرة، وهو الذي بنى مدينة واسط، وهي واقعة بين البصرة والكوفة، وفرغ من بنائها سنة ست وثمانين [نحو ٧٠٤م]، وقيل: ثمان وسبعين [نحو ٦٩٧م]، وبها مات ودفن، وعفي قبره وأجري عليه الماء، وكانت وفاته سنة خمس وتسعين [نحو ٧١٣م]، وعمره أربع وخمسون سنة.

انتهى باختصار من تاريخ القاضي بن خلكان.[١]

وقد ذكر الإمام ابن كثير في تاريخه ترجمة طويلة للحجاج بن يوسف في الجزء التاسع؛ فمما ورد فيه: أنه خطب فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة وبيت الغربة حتى بكى وأبكى من حوله، وكان مولد الحجاج سنة تسع وثلاثين [نحو ٦٥٩م]، ونشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن. قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة، قال عقبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس، وكانت فيه شهامة عظيمة، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة، وكان ناصبياً يبغض علياً وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جباراً عنيداً، وكان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، قال عمر بن عبدالعزيز: ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. ولما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا ... بأنني رجل من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ويحهم ... ما علمهم بعظيم العفو غفار

(١) انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (مصر: مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) ج١، ص٣٤١.

فأخبر بذلك الحسن فقال: بالله إن نجا لينجون بهما، وزاد بعضهم في ذلك:

إن الموالي إذا شابت عبيدهم ... في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً ... قد شبت في الرق فاعتقني من النار

ولما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته، حتى أشرفت جارية فبكت فقالت: ألا إن مطعم الطعام، وميتم الأيتام، ومرمل النساء، ومفلق الهام، وسيد أهل الشام قد مات، ثم أنشأت تقول:

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا ... واليوم يأمننا من كان يخشانا

ومات بواسط وعمره خمس وخمسون سنة، وأجري عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق، وزعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمئة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومئة درع موقوفة، قال عوف: ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال: مسكين أبو محمد إن يعذبه الله فبذنبه، وإن يغفر له فهنيئاً له، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه. فقيل له: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان، وأن يعلم أن الله حق، وأن الساعة حق قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج، قال: ما فعل الله بك، قال: قتلت بكل قتيل قتلته، ثم عزلت مع الموحِّدين، قال فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه، والله تعالى أعلم.انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير.[١]

(١) انظر: البداية والنهاية، ج ١٢، ص٥٠٧- ٥٥٤.

ترجمة السلطان مراد الرابع

ولد الغازي السلطان مراد الرابع بن أحمد بن محمد سنة ألف وثماني عشرة هجرية [١٦٠٨م]، وقيل سنة ألف وإحدى وعشرين، تولى السلطنة، وبويع له باتفاق الآراء من العلماء والوزراء في يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف، وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وسبعة أشهر، وقيل: أربع عشرة سنة، وهو السابع عشر من سلاطين آل عثمان، وأعظمهم شجاعة وقوة وهمة، ويلقب بفاتح بغداد، وهو الذي غزا بلاد العجم؛ لأن سلطانها الشاه عباساً كان قد أخذ كثيراً من البلدان التابعة لآل عثمان حتى أخذ بغداد أيضاً فجرد السلطان مراد جيشاً عظيماً لمحاربته وتوجه هو بنفسه لقتاله؛ وذلك سنة ألف وأربع وأربعين ففتح بلاد العجم، ثم توجه بنفسه أيضاً لفتح بغداد سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها بعد أن حاصرها أربعين يوماً، ودخلها العسكر ثم دخلها السلطان في أثرهم وقتلوا من العجم نحو ثلاثين ألفاً، وأسروا من رؤسائهم كثيراً؛ وبذلك ضعفت شوكت العجم وزالت قوتهم.

وكان السلطان مراد – رحمه الله تعالى – كثير الإحسان لأهل الحرمين، وأمر مصر وغيرها من الجهات بإجراء حبوبهم، وإرسال غلاّت أوقافهم، وكان يحثهم بذلك على الدوام. وكان أيضاً كثير الالتفات إلى أخبار الرعية مطلقاً، وكان كثير البحث عن أحوال ولاة البلدان لا يغفل عنهم، بحيث صار الولاة لا يجاوزون حداً. وفي زمانه وقع السيل العظيم بمكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف، ودخل المسجد الحرام؛ وبسببه انهدمت الكعبة المعظمة، فقام بتعميرها وبنائها السلطان مراد، وهذا من أعظم مناقبه، وأفخر أعماله. وهو الذي أمر بإبطال القهاوي في جميع ممالكه، ومنع شرب الدخان، واستعمال النشوق، وكان يجازي على ذلك.

ولقد كان بطلاً من الأبطال، قوي الجأش، متين الساعد، ذكر أنه أرسل إلى مصر درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها، وأصدر أمره

إلى العساكر المصرية بإخراج العود منها، وأن من أخرجه يزد في علوفته، فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك، ثم إنه أرسل أيضاً قوساً إلى مصر، وأصدر أمره إلى العساكر بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك فحاولت العساكر جرّه فلم يقدروا، ثم علقت الدرقة بالديوان السلطاني بمصر وعلق القوس على باب زويلة.

توفي السلطان مراد - رحمه الله تعالى - في شوال سنة ألف وتسع وأربعين هجرية [نحو ١٦٣٨م]، وعمره ثمانية وعشرون عاماً، وقيل: واحد وثلاثون، ومدة ولايته سبع عشرة سنة، ودفن في تربة والده السلطان أحمد خان، رحمهما الله تعالى.

انتهى ملخصاً من (خلاصة الأثر) بصحيفة ٣٣٦[١]، ومن الفتوحات الإسلامية بصحيفة ١٣٠ في الجزء الثاني[٢]، ومن (قاموس الأعلام) بصحيفة ٤٢٥٤ في الجزء السادس تأليف شمس الدين سامي، وهو باللغة التركية، ولقد جاءت ترجمته أيضاً في صحيفة ٥٤٨ من كتاب (نقد التواريخ) باللغة التركية.

(١) المحبي، المولى محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (مصر: المطبعة الوهبية، سنة ١٢٨٤هـ)، ج٤، ص٣٣٦.

(٢) دحلان، أحمد بن زيني، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر، سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م) ج٢، ص١٣٠.

اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها

لقد تقدم أن الكعبة المعظمة بنيت إحدى عشرة مرة، منذ بناء الملائكة وآدم عليه السلام إلى بناء السلطان مراد ابن السلطان أحمد سنة ألف وأربعين من الهجرة، فإذا دققنا النظر رأينا أن ما وقع لبيت الله الحرام من البنايات الإحدى عشرة منذ آلاف السنين والأعوام ليس بشيء يذكر، وأن مكثه سليماً قائماً دهراً طويلاً، ما هو إلا كرامة له، وسرّ اختصه الله به - فلو كثر خرابه وتعميره كل وقت لأدى ذلك إلى تهاون الناس باحترامه وتعظيمه.

أما اختلاف البنايات فيه بالصفة التي ذكرناها فيما تقدم فليس في ذلك بأس ما دام البناء لم يخرج عن الأساس الأول ولم يتحول عن قواعد إبراهيم عليه السلام، فاتباع الأساس هو الشرط الأول؛ أما البناء على صفة مخصوصة فإنه لم يرد من الشارع، فهذه قريش نقصت من طوله من جهة الحِجر لقلة النفقة الحلال التي جمعوها لبنيانه، وطولت في ارتفاعه، ورفعت بابه عن الأرض، وسقفته ولم يكن له سقف، وقد كان النبي ﷺ يشتغل معهم في بنائه وهو حينئذ في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف.

ثم نقض عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما بناء قريش، وبنى الكعبة على الصفة التي تمناها رسول الله ﷺ فإنه قال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغتُ به أساس إبراهيم» رواه البخاري في صحيحه. فبموجب هذا الحديث الذي سمعه ابن الزبير من خالته عائشة بنى الكعبة بعد احتراقها، تحقيقاً لأمنية النبي ﷺ ورغبته، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض: أحدهما للدخول، والآخر للخروج، وجعل لها أربعة أركان بعد أن كان لها ركنان فقط،

وكان إذا طاف استلم الأركان الأربعة جميعاً، وقال: إنما ترك استلام هذين الركنين الشامي والمغربي؛ لأن البيت لم يكن تاماً (أي: أن جداره الذي من جهة الحِجر كان مدوراً من غير أركان) فلم تزل الأركان الأربعة تستلم حتى قتل رضي الله عنه، وجعل في بطنه درجة من خشب يصعد منها إلى سطحها، وجعل ارتفاعها من الأرض إلى السماء سبعة وعشرين ذراعاً.

قال الأزرقي في تاريخه: «وكانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء، ولما بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحِجر فيها، واستسمج ذلك؛ إذ صارت عريضة لا طول لها، فقال: قد كانت قبل قريش تسعة أذرع حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى، فبناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء» اهـ.

والحقيقة أن ابن الزبير قد أحسن في زيادة ارتفاعها للسماء؛ حتى يكون ارتفاعها ملائماً لطولها وعرضها، وبذلك يكون شكل الكعبة جميلاً، ولا حرج في الزيادات المستحسنة اللائقة ما دام البناء على قواعد إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام.

ولما قتل ابن الزبير ودخل الحجاج الثقفي مكة استأذن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان أن يرد الكعبة على ما كانت عليه في الجاهلية، فأمره عبدالملك أن يهدم ما زاده ابن الزبير وأن يسد بابها الغربي ويجعلها كسابق عهدها؛ ظناً منه أن ابن الزبير إنما بناها على حسب رغبته واجتهاده، فلما تبيَّن له أنه بناها للحديث السابق الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها ندم على هدمها، وردّها على البنيان الأول وجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة، ثم قال: وددت والله لو أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك.

فأنت ترى أن هذه البنايات كلها مبنية على أساس إبراهيم عليه السلام، أما الزيادات التي حصلت فيها فإنما هي زيادات في صفة البناء، لا في الأساس والقواعد.

أما بناء الكعبة لخراب أصلها فإنه يجب بناؤها وتعميرها وإصلاحها، إذ لا يعقل تركها على خرابها، وهي قبلة المسلمين، وبيت الله المعظم، وفيما يأتي من قول عبدالله بن الزبير دليل واضح على هذا، وناهيك بعبدالله بن الزبير الذي أبوه من العشرة المبشرين بالجنة، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عن الصحابة أجمعين - فقد روى الأزرقي في تاريخه «أن ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها دعا وجوه الناس وأشرافهم وشاورهم في هدمها فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها، وأبى أكثر الناس هدمها، وكان أشدهم عليه إباء عبدالله بن عباس، فقد قال له: دعها على ما أقرها عليه رسول الله ﷺ فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس في حرمتها، ولكن ارقعها، فقال ابن الزبير: والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته؟ ثم أجمع على هدمها، وكان يحب أن يكون هو الذي يردها على ما قال رسول الله ﷺ على قواعد إبراهيم وعلى ما وصفه رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها...» اهـ.

ولما عزم على هدمها خرج أهل مكة منها إلى منى فأقاموا بها ثلاثة أيام خوفاً من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها، ولم يقرب ابن عباس مكة حين هدمت حتى فرغ منها، وأرسل إلى ابن الزبير يقول له: لا تدع الناس بغير قبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها، ففعل ابن الزبير ذلك.

ولقد أراد أمير المؤمنين هارون الرشيد، أو أبوه المهدي، أو جده المنصور أن يهدم الكعبة ويردها إلى بناء ابن الزبير، لكنه حينما سأل إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه عن ذلك منعه، وقال له: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمه إلا هدمه وبناه فتذهب هيبته من صدور الناس.

ولقد أراد أيضاً السلطان أحمد بن محمد بن مراد بن سليم الثاني من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حين تصدع جدارها الشرقي وجدارها الغربي، ويبنيها، ويجعل حجارتها ملبسة واحداً بالذهب، وواحداً بالفضة فمنعه العلماء من ذلك[1] وقالوا: يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا الشعث فعمل لها نطاقاً من النحاس الأصفر مغلفاً بالذهب، وأنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار، وجرى تركيبه عليها في أواخر سنة العشرين بعد الألف وأوائل العام الذي بعده - كما جاء في الملحقات التي بآخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقي المسمى (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٥٢هـ [١٩٣٣م].

فالكعبة المشرفة إذا حدث فيها خلل أو صدع أو حرق أو وقوع بعض جدرانها وحجارتها، فإنه تجب المبادرة إلى تعميرها وإصلاحها إصلاحاً تاماً محكماً من المال الحلال، وبشتى مواد البناء الطاهرة: من حجارة وطين ونورة وأسْمنْت وحديد وغير ذلك، فإن الله تعالى يحسن إلى المصلحين ويأجرهم على أعمالهم، وهذا الوليد بن المغيرة قال لقريش - حينما أرادوا بناء الكعبة، ولكنهم هابوا هدمها - : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة، قالوا: بل نريد الإصلاح، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ثم ارتقى الوليد على جدار البيت ومعه الفأس فقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح، ثم هدم وهدمت قريش معه.

---

(١) ذكر الشيخ عبدالله بن محمد الغازي - رحمه الله تعالى - في تاريخه (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) نقلاً عن السيد أحمد دحلان في السالنامه الحجازية أن الذي منع السلطان محمداً من ذلك هو شيخ الإسلام المولى محمد بن سعد الدين، وقال له: هذا يزيل حرمة البيت، ولو أراد الله - سبحانه وتعالى - لجعلها قطعة من الياقوت فكف عن ذلك. اهـ. المؤلف.

انظر: دحلان، أحمد زيني، السالنامه المخصوصة بالولاية الحجازية، لعام ١٣٠٣هـ، الطبعة الثانية (مكة المكرمة: المطبعة الميرية، سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) ص ١٢٢، والغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٦٢٥. عبدالوهاب.

ولو أراد الله تعالى أن لا يمسها مخلوق بالتعمير والإصلاح، لجعلها قطعة واحدة من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة، لا تزحزحها الرياح ولا يؤثر فيها حدثان الزمان، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ولكنه – جل جلاله، وتقدست أسماؤه – وضع بيته الحرام بمكة، وخص من شاء من عباده برفع قواعده وتعميره، وتوّجهُ بالهيبة والجلال، حتى يطوف به السعداء من أهل الأرض، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

ولقد خصَّ الله تعالى بيته الحرام بالمهابة والتعظيم، والإجلال والتكريم، وأحاطه بالأسرار القدسية، والأنوار الإلهية، يقف عنده الزائر خاشعاً خاضعاً، ويطوف به الجبار ذليلاً متواضعاً، ويقوم لديه المذنب منكسراً باكياً، ويبتهل المضطر إلى الله أمامه راجياً داعياً، فعندها تستجاب الدعوات، وتقال العثرات، وتسكب العبرات.

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى البيت يقول: «اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شرَّفه وكرَّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً وبراً»[١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى البيت قال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام».

روى الأزرقي في تاريخه عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عز وجل على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومئة رحمة، ستون منها للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[٢]. وروى في تاريخه أيضاً عن عطاء، قال: سمعت ابن عباس يقول: النظر إلى الكعبة محض إيمان، وروى فيه أيضاً أن حماد بن أبي سلمة قال:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (٣٠٥٣). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٣٨): فيه عاصم بن سليمان الكوزي، وهو متروك.

(٢) تقدم تخريجه ص ٨٩.

الناظر إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها من البلاد. وروى فيه أيضاً عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طاف بالبيت كتب الله عز وجل له بكل خطوة حسنة، ومحا عنه سيئة». وروى فيه أيضاً عن مجاهد أنه قال: ما بين الركن والباب يدعى الملتزم، ولا يقوم عبد ثَمَّ فيدعو الله عز وجل بشيء إلا استجاب له، وروى فيه أيضاً عن ابن عباس قال: من التزم الكعبة ثم دعا استجيب له، فقيل له: وإن كانت استلامة واحدة، قال: وإن كانت أوشك من برق الخُلَّب. وروى فيه أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: طفت مع عبدالله بن عمرو فلما جئنا دبر الكعبة قلت ألا نتعوذ؟ قال أعوذ بالله من النار، ثم مضى حتى استلم الحجر، فقام بين الركن والباب، ثم وضع صدره ووجهه وذراعيه وكفيه بسطاً، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل. وقال مجاهد: ألصق خديك بالكعبة ولا تضع جبهتك.

بقاء الكعبة إلى قيام الساعة

إذا تأملت وتفكرت وجدت أن هذه الكعبة المشرفة أعظم دليل على وجود الله ووحدانيته، وقدرته وعظمته، وقهره وسلطانه، حيث إنها منذ آلاف السنين والأعوام قائمة محاطة بالتعظيم والإجلال من جميع أجناس البشر، وستبقى كذلك حتى قيام الساعة، كما أخبرنا رسول الله ﷺ، فقد روى الشيخان والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين[١] من الحبشة»، وأخرج أحمد عن ابن عمرو نحوَه، وزاد

(١) «ذو السويقتين: بضم السين وفتح الواو، تثنية سويقة: هي مصغر الساق، وإنما ألحق بها التاء في التصغير؛ لأنها – أي الساق – مؤنثة، والتصغير للتحقير، وإنما صغر؛ لأن في سيقان الحبشة دقة، فالمراد الإخبار بأنها يخربها رجل ضعيف من الحبشة...، وقال القرطبي: يكون بعد رفع القرآن من الصدور والمصاحف، وذلك بعد موت عيسى عليه السلام في الأرض وهو الصحيح...». ما يأبى الشنقيطي، محمد حبيب الله بن سيدي عبدالله، فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم، الطبعة الأولى (مصر: مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، سنة ١٩٥٤م) ج٤، ص٣٣٩، ٣٤٠.

«ويسلبها حليها، ويجردها من كسوتها، فلكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع[١] يضرب عليها بمسحاته أو معوله»[٢]. وروى الأزرقي عن أبي هريرة يحدث أبا قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «يبايع العرب بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، تأتي الحبش فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه»[٣].

ومن أعظم الأسرار الإلهية أنه لم يرد في التاريخ قط، ولم يسمع أبداً منذ بدء الخليقة أن أحداً من الجبابرة أو الملوك ادعى أن الكعبة الشريفة وما حولها من المطاف ملكه أو ملك أجداده، بل إن المشركين مع ما نصبوا حولها من الأصنام كانوا يقرُّن بأنها بيت الله الحرام، ويطوفون بها ويعظمونها.

وليس في قدرة أحد أن يبني بيتاً مثله يخلد إلى الأبد، ويبقى أساسه من أول الدنيا إلى آخرها، ولقد بنى بعضهم مثله فكان مآله سرعة الخراب والزوال، وكان جزاؤه الهلاك والوبال؛ فإن أبرهة بنى بيتاً في صنعاء اليمن لم يبن مثله، سماه القليس، طوله في السماء ستون ذراعاً، وأنفق عليه من الأموال ما لا يقدَّر، يريد بذلك صرف حاج العرب عن بيت الله الحرام إلى القليس، فجاءه رجلان من العرب، فتغوطا فيه. فغضب أبرهة من ذلك، وقال:

---

(١) أصيلع: «هو تصغير الأصلع الذي انحسر الشعر عن رأسه. أفيدع: تصغير أفدع، الفدع بالتحريك زيغ بين القدم وبين عظم الساق، وكذلك في اليد، وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها، ورجل أفدع بيِّن الفدع». ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ت. د.) ج٣، ص٤٧، ٤٢٠.

(٢) انظر لتخريج هذه الأحاديث: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي، سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) ج١، ص٣٨٦.

(٣) أخرجه أحمد (٢٩١/٢)، والحاكم في المستدرك (٤٥٢/٤-٤٥٣) وصححه بلفظ: يبايع لرجل، وابن حبان في صحيحه ج(٦٨٢٧). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٨/٣) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

لا أنتهي حتى أهدم بيتهم الذي بمكة، فساق الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه، فمنعه الله تعالى وسلط عليهم طيراً أبابيل حتى هلك هو وجميع جيشه، وقصته مشهورة، ثم إن العباس بن الربيع الحارثي الذي ولاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور اليمن هدم القليس فأصاب منه مالاً كثيراً وكنزاً عظيماً. وقد وصف الأزرقي في تاريخه القليس وقصة أبرهة فراجعه[١].

وذكر جارنا العالم الصالح الشيخ عبدالله بن محمد الغازي الهندي - رحمه الله - المتوفى بمكة في الخامس من شهر شعبان سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف [١٩٤٦/٧/٤م] في تاريخه المخطوط المسمى (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام): أن أحد أجداد خالد بن برمك بنى بيتاً عارض به الكعبة، وجعل حول أروقته ثلاثمئة وستين مقصورة يسكنها خدامه وقوامه، وكان من يليه يسمى برمكاً - يعني والي مكة - فكان أهل مملكته يحجونه ويطوفون به. وذكر أيضاً: أن ظالم بن أسعد بَنَى لغطفان بيتاً على قدر الكعبة، فكانوا يحجون إليه، فأغار عليهم زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً، وهدم بناءه. اهـ ملخصاً من تاريخ الغازي.[٢]

فسبحان الذي جعل بيته الحرام في بلده الأمين، وغمره بالبركات والخيرات، وأحاطه بالأنوار والأسرار، والحمد لله الذي جعلنا من أهله وجيرانه، وحفنا بلطفه وعفوه وغفرانه.

خزانة الكعبة

تقدم أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما بنى الكعبة المشرفة حفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر، وجعل عمقها ثلاثة أذرع، يلقى فيها ما يهدى إليها من المتاع، والحلي، والذهب، والفضة، والطيب، وغير ذلك.

(١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص١٣٦.

(٢) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٢٠٠.

فهذه الحفرة تسمى خزانة الكعبة، والجب، والغبغب، والأخسف. وكان يسمى مال الكعبة الأبرق.

فلما بنتها قريش قبل البعثة بخمس سنوات أبقوا جبَّ الكعبة في مكانه، ونصبوا عليه هبل، وهو أعظم أصنام قريش، كان عمرو بن لحي قدم به من هيت من أرض الجزيرة، ونصبه على الجبّ في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته، وذلك قبل بناء قريش، فلما بنتها قريش وضعت هبل على الجبّ، كما كان سابقاً.

ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر شيئاً عن جبّ الكعبة في بناء ابن الزبير، وفي بناء الحجاج هل أبقوه فيها كما كان أم طمروه وردموه؟.

والذي نراه – والله تعالى أعلم بالغيب – أن جبّ الكعبة ردم بالحجارة في بناء ابن الزبير، وكان كذلك في بناء الحجاج إلى يومنا هذا؛ لأن أرض الكعبة من الداخل مرتفعة الآن عن أرض المطاف ارتفاعاً موازياً لعتبة بابها، فقد كبست بالحجارة التي فضلت من أحجار الكعبة حين بناء الحجاج[١]، وكان أول من فرشها بالرخام الوليد بن عبدالملك.[٢]

فلما ردموا جبَّ الكعبة في باطنها، جعلوا خزانتها في دار شيبة ابن عثمان بن أبي طلحة[٣]؛ فصارت هدايا الكعبة توضع في هذه الدار التي

---

(١) انظر: الغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٢٩٦، جاء فيما يخص جب الكعبة المشرفة وذخيرتها: «وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس، وهو الحسين بن الحسين بن علي الأصغر بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومئة حين غلب على مكة عمد إلى الكعبة فأخذ ما في خزانتها، وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال؟ وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ».

(٢) انظر: الغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٤٢٧.

(٣) شيبة بن عثمان إليه ينتهي نسب سدنة الكعبة وهم الشيبيون، وقد أسلم يوم فتح مكة، ومات سنة تسع وخمسين هجرية – وانظر ترجمته في كتاب تاريخ الكعبة المعظمة. المؤلف.

وانظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص٣٢٥.

كانت واقعة عند المسجد الحرام، وباب بني شيبة قديماً هو باب السلام، ومكانه الآن موضع العقد القائم عند مقام إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

ولقد استنتجنا ذلك من الحوادث الواردة في كتب التاريخ المعتمدة.

[فمنها] أن ابن الزبير لما هدم البيت، عمد إلى ما كان فيه من حليه، فوضعها في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان.

[ومنها] أن أحد ملوك التبت حين أسلم بعث بصنمه الذي كان يعبده هدية إلى الكعبة، وكان من الذهب الخالص، وكان مكلَّلاً بالجواهر واليواقيت، وكان على سرير من فضة، فوصل كل ذلك إلى مكة، ونصب فيها ثلاثة أيام ليراه الناس، ثم تسلمته الحجبة فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان، وسنذكر هذه القصة في أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

[ومنها] أن محمد بن جعفر بن محمد أرسل إلى الحجبة، فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار، ليستعين بها على فتنة أصحاب المقنع الذين ظهروا بمكة، ثم قضاها عنه أمير المؤمنين المأمون، فقبضتها الحجبة، وردوها في خزانة الكعبة.

[ومنها] أن بني عبدالدار بن قصيّ بن كلاب كانت لهم دار الندوة، ودار شيبة بن عثمان، وهي إلى جنب دار الندوة، وفيها خزانة الكعبة.

فيعلم مما ذكرناه أن خزانة الكعبة كانت في بئر داخلها من أيام إبراهيم عليه السلام إلى أن بناها ابن الزبير رضي الله عنهما، فردم الخزانة في بطن الكعبة، ونقلها إلى دار شيبة بن عثمان، فصارت هداياها تحفظ في داره.

أما الآن فليس للكعبة مال يحتفظ به، وليس فيها من الهدايا إلا ما هو معلق بسقفها من داخلها، ولم نسمع منذ مدة طويلة أن أحداً أهدى إلى

الكعبة شيئاً، ونظن أن آخر هداياها كان سنة أربع وستين بعد الألف، وهي خمسة قناديل أرسلتها ملكة بندر آشي في إمارة الشريف سعيد بن بركات، فعلقت بها، والله تعالى أعلم.

وصف الكعبة والمسجد الحرام[١]

الساحة الكبرى، والدار اللموم، والموسم الحاشر، والمنتدى والمؤتمر، ومثابة الزمر، وإبرة المُبحِر، ونجم المُصحِر، قبلة البدويّ في فقره، ووجهة القرويّ في كَفَره، حرم الله المطهّر، وبيته العتيق المستَّر، الذي وجّه إليه الوجوه، وفرض على عباده أن يحجّوه، نظرت إليه المساجد في كل خمس، وقامت إليه قيام الحرباء إلى الشمس، بناه الله بمكة على فضاء زكيّ لم يتنفس فيه الناس، وخلا إلا من جُحر أو كِناس، فلا الدنيا سحبت عليه غرورها، ولا النفوس نقلت فيه شرورها، ولا الحياة أزارته باطلَها وزورَها.

لو شاء الله لبنى بيته بمصر على نهر فياض، وواد كله قطع الرياض؛ ولو شاء الله لاتخذ بيته بالشام، بين الجداول المظللة، والرُّبى المكللة، والغصون المهدّلة، والقطوف المذللة، ولو شاء الله – جلت قدرته – لرفع بيته على أنوف الجبابرة، ملوك الأعصر الغابرة، وفوق هام آلهتهم وهي ممهدة منضّدة، في الغرف المشيَّدة، والقباب الممرَّدة.

ولكنه تعالى نظر إلى أم القرى، فرأى بها ذلاً لعزِّ سلطانه، وافتقاراً إلى غناه وإحسانه، ورأى خشوعاً يستأنس به الإيمان، وتجرّداً تسكن إليه العبادة، ورأى انفراداً يجري في معنى التوحيد، فأمر إبراهيم حواريه ونبيه، وخليله وصفيّه، أن يرفع بذلك الوادي ركن بَيْته، وينصب بين شعابه منار وحدانيَّته.

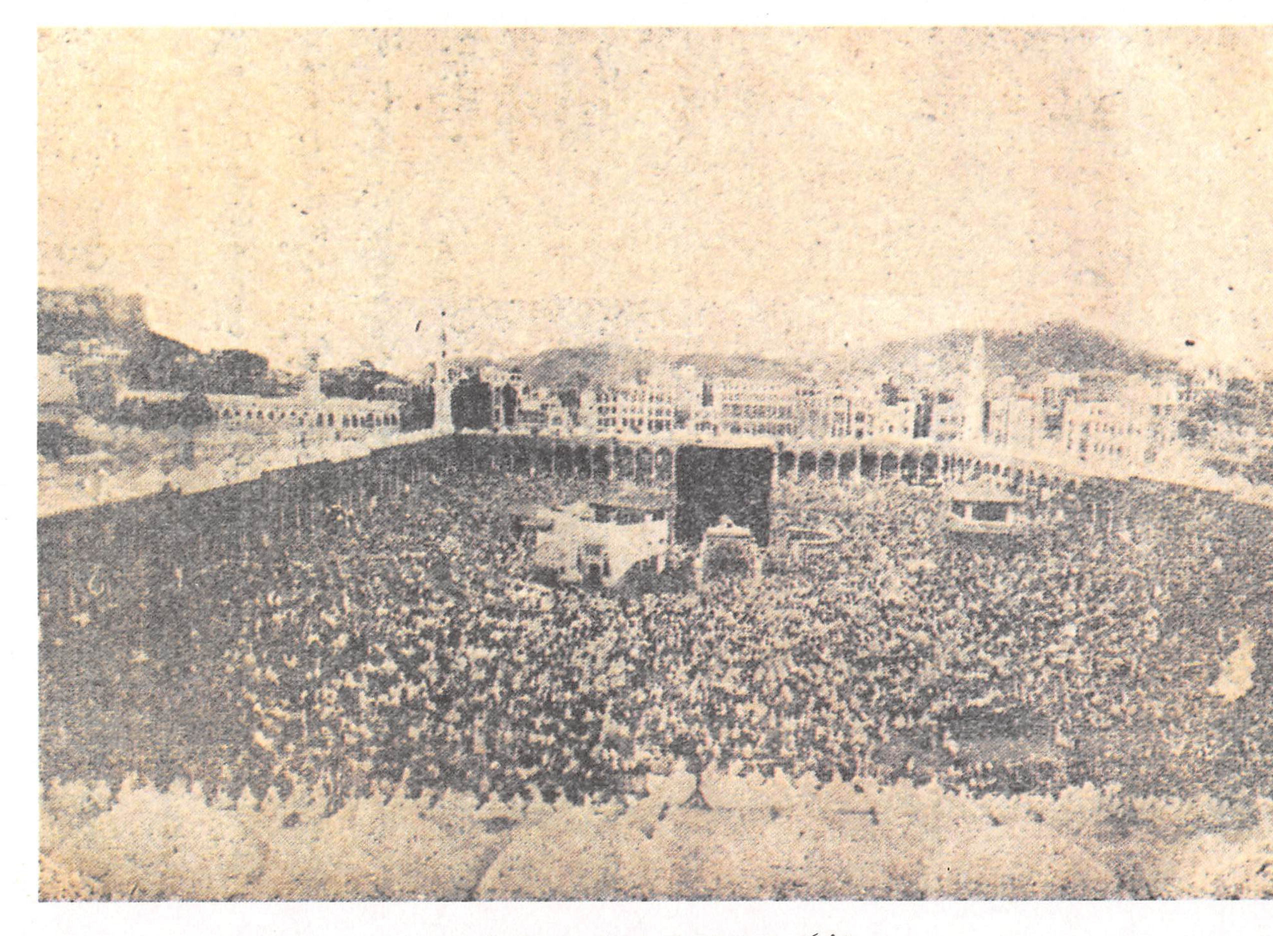
---

(١) من كتاب (أسواق الذهب) لأحمد شوقي بك أمير الشعراء، المتوفى سنة إحدى وخمسين بعد الثلاثمئة والألف. المؤلف.

بنيان قام بالضعف والقوَّة، ونهض على كاهل الكهولة وساعد الفتوَّة، واشتركت فيه الأبوَّة والنبوَّة، فكنت ترى إبراهيم يزاول، وإسماعيل بين يديه يناول، حتى بنيا بيتاً أعيا المعاول، وعجز عنه الذي دمَّر تدمر وأبلى بابل، فانظر إلى صفائح الباطل كيف باد، وإلى آجرِّ الحق كيف أفنى الآباد؛ وتأمل عجائب صنع النية، وكيف ظفرت لبنة التوحيد بصخرة الوثنية.

بنى البيت وإذا الجلال حجبُه وأستاره، والحق حائطه وجداره، والتوحيد مَظهره ومَناره، والنبيون بُناته وعمَّاره، والله عز وجل ربه وجاره، اطّلعت به مكة اطّلاع المشكاة بالمصباح، فزهر فضاء البَرَاح، وانتظم الهِضَاب والبِطاح، أضوأ من الشمس ذبالة، وأبهر من القمر هالة، في منازل الشرف والجلالة، قد حاز الله له من نباهة الذكر وفخامة الشأن، ما لم يحز لقديم من معالم الحق ولا حديث، بِرُّ العبادة، وفضيلة الحج، وشرف الباني، وروعة العتق، وجلالة التاريخ.

يقول الغواة: لو كانت الكعبة من فضة أو ذهب، ويقولون: لو كانت كبِيَع النصارى في عواصم الغرب، رفعة بناء، وديباجة فنّ، ووشْي زخرف - وأقول للغواة: لو تركت الكعبة على فطرتها الأولى، فلم يطوّل بناؤها، ولم تزيّن بالذهب أجزاؤها، ولم تتعدد في الزخرف أشياؤها، لكان بعبقريتها أليق، وبروحانيتها أشبه وأخلق، في تقدير قدمها غاية ونهاية. انتهى من كتاب: (أسواق الذهب) لأمير الشعراء أحمد شوقي بك، رحمه الله تعالى.



الحُجَّاج في انتظار الصلاة بالمسجد الحرام

الحوادث الواقعة في الكعبة والمطاف

نذكر هنا بعض الحوادث التي وقعت في الكعبة والمطاف بحسب ما تيسر لنا الوقوف عليه؛ لأنها مما يلفت النظر ويوجب الاهتمام لقدسية البيت وشرف المكان.

فقد روى الطبري في كتابه (القرى لقاصد أم القرى) في الباب الخامس والثلاثين «أن حكيم بن حِزام ولد في الكعبة، ولا يعهد أحد ولد في الكعبة غيره، وكان مولده قبل سنة الفيل بثلاث عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة، وتوفي بالمدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة أربع وخمسين هجرية، وعاش مئة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام، وأسلم سنة الفتح، وروي أنه لما حج في الإسلام أهدى مئة بدنة قد جللّها بالحِبَر وكفها عن أعجازها، وأهدى ألف شاة، ووقف بمئة وصيفٍ بعرفة، في أعناقهم أطواق الفضة، منقوش فيها عتقاء الله عن حكيم بن حِزام» اهـ بتصرف واختصار من الكتاب المذكور.[1]

وروى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عبدالله بن أبي سليمان عن أبيه «أن فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبدالعزى، وهي أم حكيم بن حِزام، دخلت الكعبة وهي حامل، فأدركها المخاض فيها فولدت حكيماً في الكعبة، فحملت في نطع، وأخذ ما تحت مَثْبِرها[2]،

(١) الطبعة الثانية، عارضه بمخطوطات مكة المكرمة والقاهرة: مصطفى السقا (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) ص٥٠٤.

(٢) المثبر: بفتح الميم وسكون الثاء المثلثة وكسر الباء الموحدة: الموضع الذي تلد فيه المرأة. المؤلف.

فغسل عند حوض زمزم، وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقاً»[١] اهـ منه.[٢]

نقل الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه صحيفة ١٦١ عند ذكر جبّ الكعبة ومالها: «عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان في الكعبة على يمين من دخلها جبّ عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل عليهما السلام حين رفعا القواعد، وكان يوضع فيه ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب، أو غير ذلك، وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً يكون عليه يحرسه، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس، وانقطعت الطرق ومكة إذ ذاك شديدة الحر بسط رداءه، ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه، فأرسل الله – عز وجل – حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه، فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البئر الأخسف، فلما أن خسف بالجرهمي وحبسه الله – عز وجل – بعث الله عند ذلك ثعباناً، وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمئة سنة يحرس ما فيه، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، وكان ربما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم وزمن خزاعة وصدراً من عصر قريش حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت وعمارته، فحال بينهم وبين هدمه حتى دعت قريش عند المقام عليه والنبي ﷺ معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عُقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير»[٣]. اهـ.

---

(١) كان في الجاهلية من طاف من غير الحمس بالبيت في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد طوافه بين إساف ونائلة، فلا يمسها أحد، ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح والمطر. المؤلف.

(٢) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ج١، ص٢٦٢.

(٣) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٢٤٤.

ونقل الأزرقي في الجزء الأول من تاريخه بصحيفة ١٠٦ ما نصه: عن حويطب بن عبدالعزى قال: كانت في الكعبة حِلَق أمثال لجم البهم يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد، فجاء خائف ليدخل يده فاجتبذه رجل فشلت يده، فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشل اهـ.(١)

وفي كتاب (الجامع اللطيف) لابن ظهيرة القرشي ما نصه: «يروى أن عبدالله بن عمرو بن العاص كان جالساً في جماعة من قريش بالمسجد الحرام بعدما ارتفع النهار، وقلصت الأفياء، وإذا هم ببريق آيم داخل من جهة باب بني شيبة، فاشرأبت أعينهم إليه وابتدروه بأبصارهم، فجاء حتى استلم الركن وطاف بالبيت سبعاً وهم يحصونه، ثم ذهب إلى دبر المقام فركع ركعتين وهم ينظرون إليه، فقال عبدالله بن عمرو لبعض الجماعة اذهب إلى هذا فحذره فإني أخاف عليه أن يقتل، أو يعبث به فذهب إليه حتى وقف على رأسه وحذره، فأصغى إليه برأسه حتى استنفد كلامه، ثم ذهب في السماء حتى غاب فما يرى. والآيم: هي الحية الذكر، وبريقه: لمعانه (وفي الكتاب المذكور):

روي أن طيرين أقبلا في الجاهلية كأنهما نعامتان يسيران كل يوم ميلاً أو بريداً حتى أتيا مكة فوقعا على الكعبة، وكانت قريش تطعمهما وتسقيهما، فإذا خف الطواف من الناس نزلا فدفا(٢) حول الكعبة حتى إذا اجتمع الناس طارا فوقعا على الكعبة، فمكثا كذلك شهراً ونحوه، ثم ذهبا.

(وفي الكتاب المذكور أيضاً) ما أخرجه الأزرقي في تاريخه أن طائراً أقبل من ناحية أجياد الصغير، لونه لون الحبرة بريشة حمراء، وريشة سوداء، دقيق

(١) انظر: ابن ظهيرة القرشي، جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، الطبعة الثالثة منقحة ومصححة (مكة المكرمة: مكتبة الثقافة، سنة ١٣٩٢هـ (١٩٣٢م) ص٦١.

(٢) دفا: سارا، قال في الصحاح الدفيف: الدبيب وهو السير اللين. المؤلف.

الساقين طويلهما، طويل العنق، دقيق المنقار طويله، كأنه من طير البحر، وكان ذلك في يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وعشرين ومئتين عند طلوع الشمس، والناس إذ ذاك في الطواف، كثير من الحاج وغيرهم، فوقع في المسجد الحرام، قريباً من مصباح زمزم، فقابل الركن الأسود ساعة طويلة، ثم طار حتى صدم الكعبة في نحو وسطها، ما بين الركن الأسود واليماني، وهو إلى الركن الأسود أقرب، ثم وقع على منكب رجل محرم من الحجاج من أهل خراسان في الطواف عند الحجر الأسود فطاف الرجل أسابيع، وعيناه تدمعان على خديه ولحيته، والطائر على منكبه الأيمن، والناس يدنون منه، وينظرون إليه، ويتعجبون منه وهو غير متوحش، ثم طار حتى وقع يمين المقام ساعة طويلة يمد عنقه ويقبضه إلى جناحه، فأقبل فتى من الحجبة فأخذه ليريه رجلاً منهم كان يركع خلف المقام، فصاح أشد صياح لا يشبه صوته صوت طير ففزع منه، فأرسله، فطار حتى وقع بين يدي دار الندوة ثم خرج من باب المسجد الذي بين دار الندوة، ودار العجلة نحو قعيقعان.

(وفي الكتاب المذكور أيضاً) ما رواه أبو الطفيل قال: كانت امرأة من الجن تسكن ذا طوى في الجاهلية، وكان لها ابن ليس لها غيره، وكانت تحبه حباً شديداً، وكان شريفاً في قومه فتزوج، فلما كان يوم سابعه قال لأمه: إني أحب أن أطوف بالكعبة سبعاً نهاراً، فقالت: أراني أني أخاف سفهاء قريش، فقال: أرجو السلامة فأذنت له، فولى في صورة جان، فلما أدبر جعلت تعوذه تقول:

أعيذك بالكعبة المستورة، ودعوات ابن أبي محذورة، وما تلا محمد من سورة: إني إلى حبوته فقيرة، وإنني بعيشه مسرورة، ثم مضى فطاف سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم أقبل راجعاً حتى إذا كان ببعض دور بني سهم عرض له شاب من بني سهم أحمر، أزرق، أحول، أعسر، فقتله فثارت بمكة غبرة حتى لم تر الجبال، فقال أبو الطفيل: وبلغنا أن الغبرة إنما تثور كذلك عند موت عظيم من الجان، فأصبح كثير من بني سهم موتى على فرشهم من

قبل الجان، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها فركبوا الجبال والشعاب بالثنية، فما تركوا حية، ولا عقرباً، ولا شيئاً من الهوام يدب على وجه الأرض إلا قتلوه، وأقاموا على ذلك ثلاثاً، فسمعوا في الليلة الثالثة هاتفاً على أبي قبيس يهتف بصوت جهوري يسمعه من بين الجبال: يا معشر قريش اللهَ اللهَ فإن لكم أحلاماً وعقولاً اعذرونا من بني سهم قد قتلوا منا أضعاف ما قتلنا منهم، ادخلوا بيننا وبينهم بصلح نعطيهم ويعطون العهد والميثاق أن لا يعود بعضنا لبعض بسوء أبداً، ففعلت قريش ذلك، واستوثق البعض من البعض، فسميت بنو سهم العباطلة قتلة الجن لذلك.

(وفي الكتاب المذكور أيضاً) أن هذا البيت منذ خلقه الله تعالى ما خلا عن طائف يطوف به من إنس، أو جن، أو غير ذلك، قال بعض السلف: خرجت يوماً في هاجرة ذات سموم، وقلت: إن خلا البيت عن طائف، ففي هذا الحين، ورأيت المطاف خالياً فدنوت فرأيت حية عظيمة رافعة رأسها وهي تطوف حوله.

(وفي الكتاب المذكور أيضاً) أن يوم قتل عبدالله بن الزبير بمكة اشتدت الحرب، واشتغل الناس، فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها. انتهى كل ذلك من كتاب (الجامع اللطيف) للعلامة ابن ظهيرة القرشي».[١]

وجاء في كتاب إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام للشيخ عبدالله الغازي الهندي المكي - رحمه الله تعالى - في الجزء الأول ما نصه:

قال العلامة القطبي - رحمه الله - في تاريخه، وفي أثناء جمادى الآخرة سنة ثماني مئة وخمس عشرة [نحو ١٤١٢/٩م]:

هرب جمل لجمّال كان يحمّله فوق طاقته فدخل المسجد الحرام، وجعل يطوف بالكعبة والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم، ولا يمكّن أحداً من نفسه، فلم يقدروا عليه، فتركوه إلى أن أتم ثلاثة أسابيع، ثم جاء

(١) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥.

إلى الحجر الأسود ووقف هناك، ثم توجه إلى المقام الحنفي ووقف هناك محاذياً للميزاب ودموعه تتساقط، وألقى نفسه إلى الأرض ومات، فحمله الناس إلى ما بين الصفا والمروة وحفروا له ودفنوه ثَمّ. انتهى.[١]

وجاء في تاريخ الأزرقي - بعد أن ذكر أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس- ما نصه:

«جاءت امرأة أيضاً تطوف عريانة وكان لها جمال، فرآها رجل فأعجبته، فدخل الطواف وطاف في جنبها لأن يمسها فأدنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها فخرجا من المسجد من ناحية بني سهم هاربين على وجوههما فزعين لما أصابهما من العقوبة، فلقيهما شيخ من قريش خارجاً من المسجد فسألهما عن شأنهما، فأخبراه بقضيتهما، فأفتاهما أن يعودا فيرجعا إلى المكان الذي أصابهما فيه ما أصابهما، فيدعوان ويخلصان[٢] إلى ألا يعودا، فرجعا إلى مكانهما، فدعوا الله سبحانه وأخلصا إليه ألا يعودا، فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما في ناحية». اهـ.[٣]

وجاء في تاريخ الغازي المسمى (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) ناقلاً عن ابن فهد أنه مات في جوف الكعبة من الزحام أربعة وثلاثون نفساً، وذلك سنة خمسمئة وإحدى وثمانين هجرية [نحو ١١٨٥م].[٤]

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة (تاريخ القطبي) الطبعة الأولى، تقديم السيد محمد أمين كتبي، شرح وتعليق: محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي الخطاط (مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبدالفتاح فدا وأولاده، ت. د.) ص١٧٩.

(٢) «وفي ب يحلفان». رشدي ملحس، تحقيق أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، هامش(١) ج١، ص١٧٩.

(٣) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص١٧٨.

(٤) انظر: ابن فهد، عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الطبعة الأولى، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م) ج٢، ص٥٥٤.

وذكر الغازي في تاريخه أيضاً أنه في سنة إحدى وثمانين وثماني مئة [نحو ١٤٧٦م] مات من الزحام بالكعبة خمسة وعشرون نفراً اهـ.

وفي سنة ثلاثمئة وسبع عشرة [٩٣٠/١/١٠م]، وافى مكة أبو طاهر القرمطي في سابع ذي الحجة، وعمل فيها هو وأصحابه أموراً منكرة، منها:

أنه أمر بقلع ميزاب الكعبة وكان من الذهب الإبريز، فطلع رجل يقلعه فأصيب من أبي قبيس بسهم في عجزه فسقط فمات، وقيل: بل وقع على رأسه فمات. ومنها غير ذلك ليس هنا محل بيانه.[١]

وجاء في تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[٢] ما نصه: «قلت: ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين فزنيا في داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا، ثم حوّلا إلى الصفا والمروة فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما». اهـ المراد منه[٣].

وقال الإمام الأزرقي في تاريخه:

إن جرهم لما طغت في الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال: إنما قبّلها فيها فمسخا حجرين، واسم الرجل إساف ابن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من جوف الكعبة وعليهما ثيابهما، فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر عند زمزم، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، فلم يزل أمرهما يدرس حتى جعلا وثنين يعبدان، وكانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهما ثياباً، ثم أخذ الذي بلصق الكعبة فجعل مع الذي عند زمزم، وكانوا يذبحون عندهما، ويتمسحون بهما، وكان الطائف إذا

---

(١) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، ج١، ص٥٣٦.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٤٣٨.

طاف بالبيت يبدأ بإساف فيستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها؛ فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح فكسرهما رسول الله ﷺ مع ما كسر من الأصنام، وقيل: بعدما أخرجا من الكعبة نصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة للاعتبار، ثم تقادم عهدهما حتى صارا يمسحان، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة؛ ثم صارا وثنين يعبدان، فلما صار أمر مكة والحجابة إلى قصي بن كلاب حوّلهما من الصفا والمروة، فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، ويقال: جعلهما جميعاً في موضع زمزم، وقيل: اسم الرجل إساف بن عمرو، واسم المرأة نائلة بنت سهيل، من جرهم. انتهى من تاريخ الأزرقي بتصرف واختصار[١].

وذكر الغازي في تاريخه ناقلاً عن ابن فهد أنه في صبح يوم الجمعة ثاني ذي الحجة سنة خمس وأربعين وثماني مئة [نحو ١٤٤١م] مات بالطواف من الزحمة سبعة أنفس.

وفي (تاريخ الكعبة المعظمة) للشيخ حسين باسلامة جملة حوادث وقعت على الحجر الأسود، نذكر منها ما له علاقة بهذا الفصل:

«فإنه بينما الناس في وقت القيلولة وشدة الحر، وما يطوف إلا رجل أو رجلان سنة ثلاثمئة وثلاث وستين [نحو ٩٧٣م]، فإذا رجل عليه طِمران، مشتمل على رأسه، يسير رويداً حتى دنا من الركن الأسود، ولا يعلم ما يريد، فأخذ معولاً وضرب الركن ضربة شديدة حتى خفته الخفتة التي فيه، ثم رفع يده ثانياً يريد ضربه فابتدره رجل من الكاسك من أهل اليمن حين رآه وهو يطوف، فطعنه طعنة عظيمة حتى أسقطه، فأقبل الناس من نواحي المسجد فأخرجوه من المسجد الحرام، وجمعوا حطباً كثيراً، وأحرقوه بالنار»[٢].

---

(١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٨٨، ١١٩، والغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٥٤٣.

(٢) تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص١٥٨.

وفي عشر التسعين والتسعمئة [نحو عشر التسعين بعد الخمسمئة والألف ميلادية] جاء رجل أعمى بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود، وكان الأمير ناصر جاوش حاضراً فوجأ ذلك الأعمى بالخنجر فقتله.[١]

وذكر الغازي في تاريخه: «أن والي مكة الشريف أحمد بن محمد الجازاني قتل في الطواف في الشوط الثالث، قتله جماعة من الأتراك بمواطأة من أخيه حميضة، وألقي بالمنجنة[٢] التي بجوار الكعبة، فصار الرجال والنساء يأتون إليه ويشتمونه، ويذكرون له قبائح ما فعله، ثم إن أخاه الشريف حميضة أمر الباشا عبدالله المصري مشيع الطرحاء أن يدفنه، فحمله بحاله إلى المعلّى، ودفنه على أخيه مهيزع ببعض ثيابه بلا غسل ولا صلاة، ولم يشيعه أحد، بل حضر دفنه رجلان فقط». اهـ[٣].

«وأكبر حادثة وقعت في المطاف والمسجد الحرام حادثة القرامطة، فإنهم لما أتوا مكة في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمئة [١٠/١/٩٣٠م] ارتكبوا فيها من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف، فقد دخل عدو الله أبو طاهر القرمطي المسجد الحرام مع قومه وهو سكران راكب فرساً له، وبيده سيف مسلول فصفر لفرسه، فبال عند البيت، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحُجّاج، وكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تأخذهم، وكان علي بن مايويه يطوف بالبيت والسيوف تأخذه، فما قطع طوافه وهو ينشد:

ترى المحبين صرعى في ديارهمو ... كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وقتل في المسجد الحرام ألف وسبعمئة، وقيل: ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم حتى ملؤوها،

---

(١) انظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص١٤٩- ١٦٢.

(٢) في النسخة المطبوعة (بالمعجنة).

(٣) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، ج٣، ص٣٤٦.

وفرش بهم المسجد الحرام وما يليه، وقيل دفن البقية في المسجد بلا غسل ولا صلاة... الخ ما رواه الحافظ ابن فهد القرشي في إتحاف الورى في حوادث سنة ٣١٧ هـ»[١].

ومما يناسب المقام: ما رواه الغازي في تاريخه أنه «في سنة ألف وثلاث وثمانين [نحو ١٦٧٢م] أراد إسحاق أفندي الوارد من جهة الروم صحبة الحج، وكان من كبار الدولة أن يدخل الكعبة الشريفة ليلاً، فأراد الشيخ عبدالواحد بن محمد الشيبي الحجبي أن يفتح له البيت فتعسر فتحه فدعا بحداد نعت له بالمعرفة فأمره بفش[٢] القفل، فاضطربت يده وما قدر، فقال له الشيخ عبدالواحد فيما أخبرني الثقة: ما بالك؟ فقال له: ألا تسمع ما أسمع؟ قال الشيخ عبدالواحد: فأصغيت وإذا بالباب كان يدفع من داخل البيت، وأحسست بالدفع والقوة المانعة، قال: فصرفت الناس وقلت: أيها الناس إن هذا البيت بيد الله أن يفتحه لمن يريد، فانصرف الناس، ومنهم إسحاق أفندي، ولم يتيسر له الدخول» اهـ منه[٣].

وقد وقع لحضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم الملك عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية: أنه في صباح يوم الجمعة عاشر ذي الحجة سنة ألف وثلاثمئة وثلاث وخمسين هجرية [١٩٣٥/٣/١٥م] نزل جلالته من مِنىً ليطوف طواف الإفاضة بصحبة ابنه الأكبر ولي العهد المعظم حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود مع رجال حاشيته ورجال الشرطة؛ وبينما جلالته في الشوط الرابع من الطواف إذا رجل يخرج من الباب الشرقي لحِجْر إسماعيل عليه السلام شاهراً

---

(١) ابن فهد، عمر بن فهد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٢، ص٣٧٤.

(٢) قال في المصباح المنير (الفش): تتبع السرقة الدون، وفش الرجل الباب فهو فشاش إذا فتح الغلق بآلة غير مفتاحه حيلة ومكراً. اهـ. المؤلف.

(٣) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، ج٢، ص ٦١٤.

خنجراً، واندفع نحو جلالته يريد قتله، فتصدى له أحد الشرطة، فعاجله المجرم بالخنجر، فوقع يتضرج في دمه، ثم تصدى له شرطي آخر فوقع له ما وقع لرفيقه، ثم تقدم هذا المجرم من جلالته، فدفعه سمو ولي العهد، وألقاه بعيداً عن أبيه، فعاجله حارس جلالته الخاص بطلقة أردته قتيلاً، وفي هذه اللحظة خرج مجرم آخر من الباب الغربي للحِجْر ممسكاً بيده خنجراً يريد قتل سمو ولي العهد، وما إن لامس الخنجر كتف سموه حتى رماه حارسه الخاص بطلقة قتلته لوقته، وما أصاب سموه إلا خدش بسيط في كتفه، ثم خرج أيضاً من الحِجْر مجرم آخر يريد القتل، ولكنه لما رأى ما حل برفقائه هرب، فرماه الجنود بالرصاص فسقط قتيلاً بالمسجد الحرام، جهة باب إبراهيم.

ثم إن جلالة الملك المعظم أتم طوافه، وخرج مسرعاً إلى مِنىً حرصاً منه على سلامة الحجاج وبالأخص اليمنيين؛ لأن هؤلاء المجرمين كانوا من الحجاج اليمنيين الزيديين، ولولا حكمة جلالة مليكنا المعظم في هذه المسألة الخطيرة لعظم الخطب، واشتدت الفتنة.

ومما لا شك فيه أن شخصية جلالته جديرة بالدرس العميق، والبحث الدقيق، وحرية بالإكبار والإجلال، فإنه الأسد الضرغام، والعصامي الهمام، الذي بنى ملكه الواسع الأرجاء، المترامي الأطراف، بتدبيره وسيفه بعد مشيئة الله تعالى وإرادته.

هذه الحوادث المهمة أحببنا ذكرها، أما ما كان في جوف الكعبة المشرفة من الصحائف وغيرها فلا نتكلم عنها؛ حتى لا يتشعب بنا الكلام، ولا بأس أن نسردها من غير شرح، فمما علق في جوف الكعبة:

١- المعلقات السبع، وهي قصائد من فحول شعراء العرب.

٢- صحيفة قريش، وفيها شروطهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب سنة سبع من النبوة.

٣- كتابان لهارون الرشيد: أحدهما بالولاية لابنه الأمين، وثانيهما بالولاية لابنه المأمون، وجعلهما بالبيت الحرام حينما حج سنة ١٨٦هـ [نحو ٨٠٢م]، وفي خلافة الأمين أخذا من الكعبة إلى بغداد وأحرقا بالنار.

٤- عهد المعتمد لولديه؛ وذلك سنة ٢٦١ هجرية [نحو ٨٧٤م].

٥- استرحام من الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبي جعفر عبدالله ابن الإمام القادر بالله في الحديثة، المتوفى سنة ٤٦٧ [نحو ١٧٠٤م] يشكو إلى الله تعالى أرسلان الفساسيري حيث اعتقله، فلما هلك هذا رفع الاسترحام من الكعبة الشريفة. اهـ باختصار من كتاب (المحمل والحج).

حدود الحرم وأنصابه

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام يريه ذلك جبريل عليه السلام، فلما كان يوم فتح مكة بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعي فجدد ما رثّ منها، وقال ابن عتبة: إن إبراهيم عليه السلام نصب أنصاب الحرم يريه جبريل عليه السلام، ثم لم تحرك حتى كان قصي فجددها، ثم لم تحرك حتى كان رسول الله ﷺ فبعث سنة الفتح تميم بن أسد الخزاعي فجددها، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبعث أربعة من قريش كانوا يبتدئون في بواديها، فجددوا أنصاب الحرم – ثم ذكر أسماء هؤلاء الأربعة – ثم أمر عثمان بن عفان بتجديد أنصاب الحرم، ثم كتب معاوية بن أبي سفيان إلى والي مكة يأمره بتجديدها، ثم جددها عبدالملك بن مروان لما حج، ثم جددها المهدي لما رجع من الحج، ثم جددها المقتدر بالله العباسي، ثم في سنة ٣٢٥ هـ [نحو ٩٣٦م] أمر الراضي بالله العباسي بعمارة العلمين من جهة التنعيم، وفي سنة ٦١٦ هـ [نحو ١٢١٩م] أمر المظفر صاحب إربل بعمارة العلمين من جهة عرفة، ثم الملك المظفر – صاحب اليمن – سنة ٦٨٣هـ [نحو ١٢٨٤م] وجددهما السلطان أحمد الأول بن العثماني سنة ١٠٢٣هـ [نحو ١٦١٤م]. اهـ من (تاريخ الأزرقي)، ومن الهامش الذي به.[١]

---

(١) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص ١٢٧.؛ وانظر دراسة حديثة وافية لهذا الموضوع من إعداد معالي الأستاذ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه بعنوان: الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، الطبعة الأولى (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، سنة ١٤١٥هـ(١٩٩٥م).

وجاء في التاريخ المذكور: «أن جبريل لما جاء بالحجر الأسود ليضعه إبراهيم عليه السلام مكانه في ركن البيت كان حينئذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه، فأضاء نوره شرقاً وغرباً ويمناً وشاماً، فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم». وجاء فيه أيضاً: «لما قال إبراهيم: ربنا أرنا مناسكنا نزل إليه جبريل فذهب به فأراه المناسك، ووقفه على حدود الحرم، فكان إبراهيم يرضم الحجارة، وينصب الأعلام، ويَحْثي عليها التراب، وإن غنم إسماعيل كانت ترعى في الحرم، ولا تجاوزه، ولا تخرج منه، فإذا بلغت منتهاه من كل ناحية رجعت صابّة في الحرم»[١].

---

(١) الصبة بالضم: القطعة من الخيل ومن الغنم، والصبة: الجماعة من الناس، والصبة: القطعة من الشيء. اهـ من المصباح المنير. المؤلف.

مكة في الجاهلية

لما قدم إبراهيم عليه السلام مكة، وبنى الكعبة المشرفة، لم يكن حولها جدار يحيط بالمسجد، كما لم يكن عندها دور للناس، وإنما كانت القبائل من جرهم وغيرهم يسكنون في شعاب مكة، ولا يبنون بقرب الكعبة احتراماً وتعظيماً لها، حتى آل الأمر إلى قصيّ[١] فأمر قومه بطون قريش أن يبنوا حول الكعبة بيوتهم قائلاً لهم: إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس، ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم، فبدأ هو أولاً وبنى دار الندوة[٢]، ثم قسم

(١) قصيّ هذا هو الجد الرابع لرسول الله ﷺ، وهو أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً، وأطاع له قومه، فكانت له حجابة البيت والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة، فلما جمع قصيّ قريشاً بمكة سمي مجمعاً، وهو أيضاً قد بنى الكعبة المشرفة بنياناً لم يبنها أحد قبله مثله، وسقفها بخشب الدوم، وكان إذا وقف بمزدلفة يوقد بها ناراً حتى يراها من دفع من عرفة - وفي تاريخ الأزرقي ذكر أخبار قصيّ مفصلاً فراجعه إن شئت. المؤلف. انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص١٠٣.

(٢) دار الندوة: هي محل مقام الحنفية الآن المقابل لحجر إسماعيل، وفي تاريخ الأزرقي أنها لاصقة بالمسجد الحرام في الوجه الشامي من الكعبة، وهي دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لتبركها بأمر قصيّ تجتمع فيها للمشورة في الجاهلية ولإبرام الأمور، ولم يكن يدخلها من قريش إلا ابن أربعين سنة، وكان يدخلها ولد قصيّ كلهم أجمعون، وقال صاحب تاريخ عمارة المسجد الحرام: ويشاع على الألسنة أن دار الندوة هو مقام الحنفي الواقع خلف حجر إسماعيل من الجهة الشمالية، وهذا ليس بصحيح.. إلخ، ثم قال: وقد أجمع العلماء من المحدثين والمفسرين والمؤرخين المشهورين أن موضع دار الندوة هو رحبة باب زيادة مع باب الزيادة الحالي بما اشتمل عليه من الأروقة والحصوة. اهـ فتأمل. المؤلف.؛ انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد ابن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، هامش رقم (٥) ج١، ص١١٠.؛ وانظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، الطبعة الثالثة (جدة: تهامة، سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) ص٥٤.

قصيّ باقي الجهات بين قبائل قريش، فبنت قريش دورها حول بيت الله الحرام، وجعلوا أبوابها نحوه، وتركوا للطائفين مقدار مدار المطاف، وجعلوا بين كل دارين مسلكاً فيه باب ينفذ منه إلى المطاف[١]، وكان ارتفاع دورهم أقل من ارتفاع الكعبة تعظيماً لها، ولقد كان شيبة بن عثمان يشرف فلا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه[٢] (وشيبة هذا إليه ينتهي نسب سدنة الكعبة).

ويروى أن عمر بن الخطاب لما قدم مكة رأى حول الكعبة بناء قد أشرف عليها، فأمر بهدمه، وقال: ليس لكم أن تبنوا حولها ما يشرف عليها. اهـ.[٣]

ولقد جعل الله – عز وجل – بلده الأمين أم القرى (مكة المشرفة) بين سلسلة من الجبال تكاد يتصل بعضها ببعض من الجهة الشرقية والغربية

(١) انظر: القطبي النهروالي، قطب الدين بن علاء الدين، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة (تاريخ القطبي) ص٧٥.

(٢) وجاء في تاريخ الأزرقي عن يوسف بن ماهك قال: كنت جالساً مع عبدالله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام إذ نظر إلى بيت على أبي قبيس مشرف على الكعبة. فقال: أبيت ذلك؟ قلت: نعم فقال: إذا رأيت بيوت مكة قد علت أخشبيها كذا، وفجرت بطونها أنهاراً فقد أزف الأمر، أي: قربت الساعة. وأخشبا مكة هما: جبل أبي قبيس من جهة الشرق، وجبل قعيقعان المسمى بجبل الهندي من جهة الغرب. يقول مؤلف هذه الرسالة: لو بقي عبدالله بن عمرو إلى زماننا هذا، ورأى ما أحاط بالأخشبين من البيوت العالية، والقصور المشرفة على الكعبة، ورأى ما وصلت إليه حالتنا ماذا كان يقول، وبماذا كان يحكم علينا؟ اللهم غفرانك وعفوك وعافيتك وتوفيقك ورضاك. المؤلف.

كان ما يحكيه المؤلف في السبعينيات الهجرية من القرن الرابع عشر، ونحن في النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجري، وبالتحديد في الثاني والثلاثين بعد الأربعمئة والألف من الهجرة، وقد محيت الأحياء القديمة الشمالية للحرم الشريف، وأصبحت فضاءً وساحات، وانكشفت الجبال من تحت الأبنية التي كانت تعلوها، وظهر في الناحية الجنوبية من الحرم الشريف أبراج وقف الملك عبدالعزيز آل سعود التي تعد من أعلى ناطحات السحاب في العالم، وقد خطط للأبنية حول الحرم الشريف بناء أبراج تماثلها علواً.

(٣) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص٦٨، ١٠٩. وانظر الكلام عن دار الندوة في هامش رقم (٢) ج٢، ص١١٤.

والجنوبية، فهي لمكة بمنزلة حصن منيع، وسور طبيعي لا يمكن اختراقه والدخول إليه إلا من أبوابه الثلاثة: الشمالي والغربي والجنوبي.

فالشمالي: من جهة المعلى، وهي طريق أهل الطائف ونجد وما والاهما، والغربي: من جهة جرول، وهي طريق أهل جدة والمدينة، وطريق من يأتي من البحر، والجنوبي: من جهة المسفلة، وهي طريق أهل اليمن.

ومن هذه الجهات الثلاث يأتي رزق مكة من قديم الزمان، كما يدل عليه الحجر الذي وجدته قريش في مقام الكعبة عند بنائها؛ فإنه مكتوب فيه (مكة بلد الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاث سبل).

سور مكة

ما كنا نظن أنه كان لمكة سور لولا ما جاء في تاريخ الغازي المسمى (إفادة الأنام) ما نصه:

«وفي الإعلام. وكانت مكة في قديم الزمان مسورة، فجهة المعلاة كان بها جدار عريض، من طرف جبل عبدالله بن عمر إلى الجبل المقابل له، وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد أهداه ملك الهند إلى صاحب مكة، وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه ثقوب للسيل قصير دون القامة...

وكان في جهة الشبيكة أيضاً سور ما بين جبلين متقاربين، بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة، وكان ذلك السور فيه بابان بعقدين، أدركنا أحد العقدين يدخل منه الجمال والأحمال، ثم تهدم شيئاً فشيئاً إلى أن لم يبق منه شيء الآن، ولم يبق منه إلا فج بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج. وكان سور في جهة المسفلة في درب اليمن لم ندركه، ولم ندرك آثاره.

وذكر التقي الفاسي نقلاً عمن تقدم: أنه كان لمكة سور من أعلاها دون السور الذي تقدم ذكره قريباً من المسجد المعروف بمسجد الراية[١]، وأنه كان من الجبل الذي من جهة القرارة، ويقال له: لعلع إلى الجبل المقابل الذي إلى جهة سوق الليل[٢] قال: وفي الجبل آثار تدل على اتصال السور بها. انتهى، ولم يبق الآن شيء من آثار هذا السور الثاني مطلقاً، وأما حدوث هذه الأسوار فقد قال التقي الفاسي: ما عرفت متى أنشئت هذه الأسوار بمكة، ولا من أنشأها، ولا من عمرها؛ غير أنه بلغني: أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس الحسني، جد ساداتنا أشراف مكة، أدام الله عزهم وسعادتهم، هو الذي عمرها قال: وأظن أن في دولته عمر السور الذي بأعلى مكة، وفي دولته سهلت العقبة التي بنى عليها سور باب الشبيكة، وذلك من جهة المظفر - صاحب إربل - في سنة ستمئة وسبع [نحو ١٢١٠م]، ولعله الذي بأعلى مكة. والله أعلم»[٣].

ثم قال في كتاب (إفادة الأنام) المذكور ما نصه: «قال في المنتقى: وكان عمل باب السور الذي جهة المعلى بكنباية من بلاد الهند في سنة ست وثمانين وسبعمئة [نحو ١٣٨٤م] وأهدي للسيد أحمد بن عجلان، وركبه على باب المعلى عنان بن مغامس بن رميثة في سنة تسع وثمانين لما ولي إمرة مكة بعد قتل محمد بن أحمد بن عجلان، ثم أحرق ذلك

---

(١) «مسجد الراية: ما زال معروفاً إلى الآن بهذا الاسم، وهو المسجد الواقع بالجودرية على يمين الصاعد من المدعى إلى المعلاة، وقد جدد سنة ١٣٦١هـ وعند حفر أساسه عثر على حجرين مكتوبين يدلان على أن هذا المسجد هو مسجد الراية، أحدهما: تاريخه ٨٩٨هـ والثاني: سنة ١٠٠٠هـ» عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، من تحقيقه كتاب: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام للغازي، ج١، ص٢٦٣.

(٢) «سوق الليل: يقع بجوار المسجد الحرام في طرفه الشرقي جنوب منطقة القشاشية، وهو حي من أحياء مكة» عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، من تحقيقه كتاب: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام للغازي، ج١، ص٢٦٣.

(٣) ج١، ص٢٦١.

الباب بالنار حتى سقط إلى الأرض، وكذلك هدم عدة مواضع من سور باب المعلاة من جانبه. وسبب ذلك أن عسكر السيد رميثة بن محمد بن عجلان منعوا عسكر عمه السيد حسن من دخول مكة لما ولي إمرة مكة عوض رميثة في ثامن عشر رمضان هذه السنة، فبعض عساكر السيد حسن هدم عدة مواضع من سور باب المعلاة من جانبه، وفي يوم هدمه ذلك أحرق باب المعلاة بالنار حتى سقط إلى الأرض، وبأمر السيد حسن كان بناء ما هدم، وبأمره عوض عن الباب المحترق بباب جيد، وركب في محله في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة من السنة المذكورة، وهذا الباب كان لبعض دور السيد حسن بمكة، وكان ينقص عن مقدار باب المعلاة فزيد فيه ما كمله، وأحكمت الزيادة فيه»[1] انتهى من تاريخ الغازي.

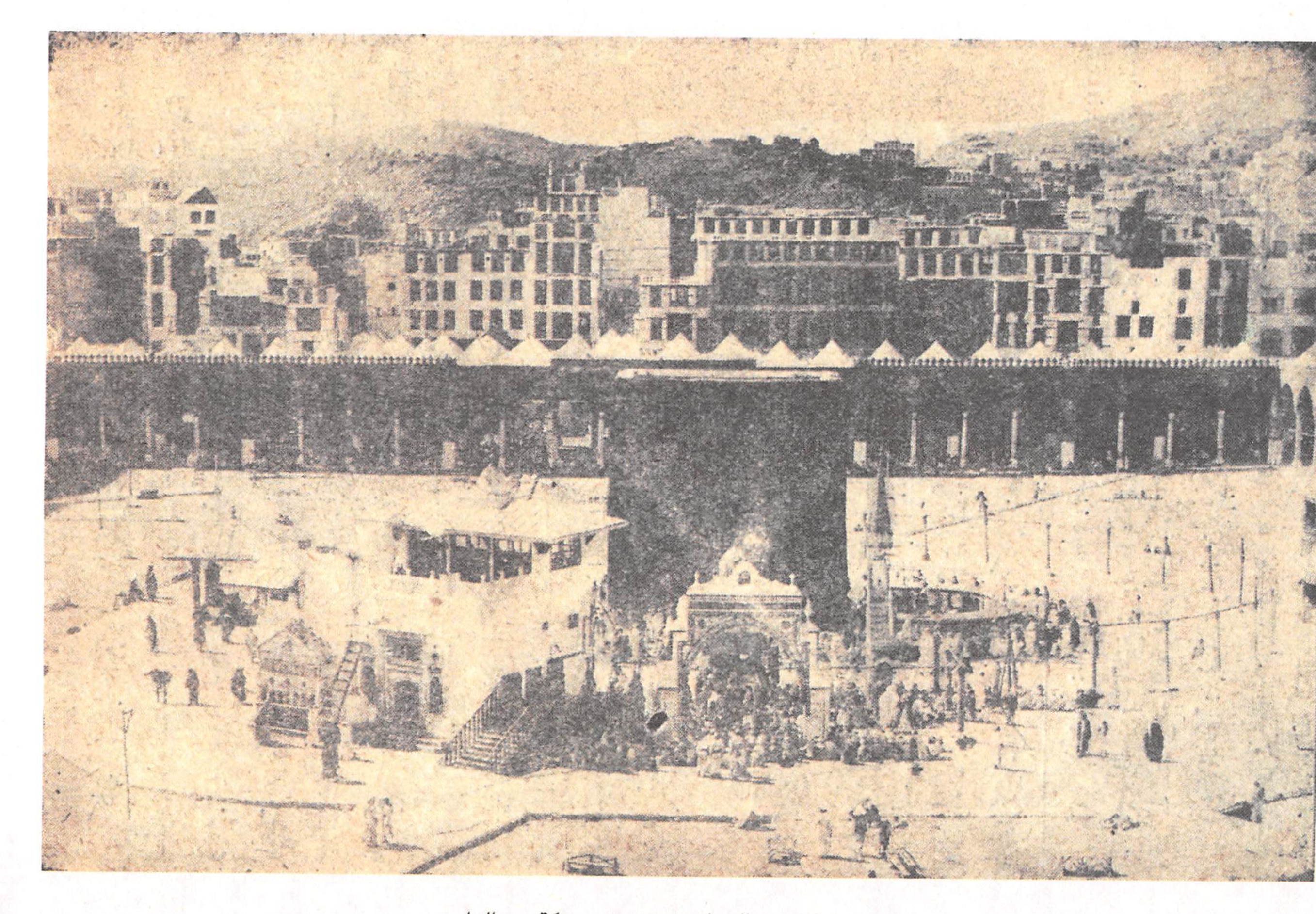
ولما كانت مكة - شرفها الله تعالى - غير فسيحة الأرجاء، والجبال المحيطة بها مرتفعة كثيراً يظن القادم عليها أن مبانيها قليلة، بينما هي كثيرة لا تكاد تحصر، ولكنها واقعة بين الجبال فكلما دخلت شعباً[2] وجدته عامراً بالمنازل والبيوت، آهلاً بالسكان؛ ولذلك ورد في المثل (أهل مكة أدرى بشعابها)، بل إن البيوت متصلة إلى رؤوس الجبال، وبالأخص ما كان منها مشرفاً على المسجد الحرام، وهي مع ذلك تسع الآلاف المؤلفة من الحجاج كل عام.

وإليك صورة مكة المكرمة بمنازلها العامرة، وجبالها الشامخة.

---

(١) ج١، ص٢٦١. «كنباية: ولاية من ولايات الهند قائمة بذاتها، وعاصمتها تسمى بها، وهي ذات أبنية عظيمة، كان يرد منها القماش والتيل واللك الكابلي...» هامش رقم ٤ ص٢٦١.

(٢) الشعب بالكسر: الطريق، وقيل: الطريق في الجبل، والجمع شعاب، والشعب بالفتح من انقسمت فيه قبائل العرب، والجمع شعوب. اهـ. باختصار من المصباح المنير. المؤلف.



جزء من المسجد الحرام وبعض بيوت مكة وجبالها

الطواف في الجاهلية

كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت سبعاً، وكانوا يجعلون الكعبة عن يمينهم حين الطواف، ويستلمون الحجر الأسود في البدء والختام، وكانوا يفتحون البيت يوم الاثنين ويوم الخميس، ولا يدخلونه بحذاء، بل يضعون نعالهم تحت الدرجة تعظيماً له، وكانوا يطوفون بالبيت عراة. فقد روى الأزرقي في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون بالبيت عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، فإذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمس: من يعير مصوناً، من يعير معوزاً: فإن أعاره أحمسيّ[1] ثوبه طاف به، وإلا ألقى ثيابه بباب المسجد، ثم دخل الطواف فطاف بالبيت سبعاً عرياناً، وكانوا يقولون: لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب، ثم يرجع إلى ثيابه فيجدها لم تحرك، فيأخذها ويلبسها، ولا يعود بعد ذلك إلى الطواف عرياناً، ولم يكن يطوف بالبيت عريان إلا الصَّرورة[2] من غير الحمس. فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها، إلى آخر ما ذكره الأزرقي من عاداتهم وأحوالهم تفصيلاً في تاريخه، فراجعه إن شئت.[3]

الجلوس في الحِجر وفي المطاف

كان الحِجْر والمطاف زمن الجاهلية مجلساً عاماً يجتمعون فيهما، ويجلسون بفناء[4] الكعبة وظلها يتذاكرون في مختلف شؤونهم. أما اجتماعهم في دار الندوة فهو اجتماع خاص لا يدخلها عامة الناس - قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت أبي يقول: كان عبدالمطلب أطول الناس

(١) الأحمسي: الشديد في دينه؛ وقد ذكر الأزرقي في تاريخه أنواعهم وعاداتهم الدينية. المؤلف.

(٢) الصرورة بالفتح: أول ما يطوف. المؤلف.

(٣) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص١٧٧، ١٨١، ١٨٢.

(٤) الفناء: بكسر الفاء: سعة أمام البيت، وقيل: ما امتد في جوانبه، والجمع أفنية. وأما الفناء بالفتح: فهو ضد البقاء. المؤلف.

قامة، وأحسن الناس وجهاً، ما رآه قط شيء إلا أحبه، وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره، ولا يجلس معه عليه أحد، وكان النديّ من قريش حرب بن أمية[١] فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش، فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام يدرج ليجلس على المفرش فجبذوه[٢] فبكى، فقال عبدالمطلب – وذلك بعدما حجب بصره –: ما لابني يبكي؟ قالوا له: إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبدالمطلب: دعوا ابني فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط، قال: وتوفي عبدالمطلب، والنبي ﷺ ابن ثماني سنين، وكان خلف جنازته يبكي حتى دفن بالحجون. اهـ من تاريخ الأزرقي.[٣]

(١) النديّ: الجواد، تقول: فلان ندي الكف: أي سخي، وحَرْبٌ المذكور: هو حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف القرشي، وهو جد معاوية بن أبي سفيان، وكان حرب يسمر مع عبدالمطلب بن هاشم، وبينهما ألفة كبيرة، وكان قائد قريش كلها يوم الفجار، وهو الذي تحمل الديات كلها من ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان، وتزعم العرب أن الجن قتلته بثأر حية، وفيه قال الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

اهـ باختصار من كتاب الأعلام، ومن الجزء الثاني من محاضرات الخضري. وحرب المذكور هو أول من أدخل الكتابة إلى مكة، وكان تعلمها في أسفاره من عدة أشخاص، منهم: بشر بن عبدالملك، ثم تعلم منهما جماعة من قريش، كما ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا: تاريخ الخط العربي وآدابه. المؤلف.

(٢) جبذه جبذاً من باب ضرب: مثل جذبه جذباً، قيل: مقلوب منه. اهـ من المصباح المنير. المؤلف.

(٣) انظر: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج١، ص٣١٤.

حرمة مكة المشرفة

قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعَضِد[١] بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله فيها فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب» رواه الشيخان.[٢]

كانت قريش تعظم البيت والحرم، وكان الناس يكرهون الأيمان عند البيت مخافة العقوبة في أنفسهم وأموالهم. قال عبدالله بن الزبير: إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة، فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيماً للحرم. وقال ابن عباس: حج الحواريون، فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيماً للحرم. وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تحتكروا الطعام بمكة فإن احتكار الطعام بمكة للبيع إلحاد. وقال أيضاً: لو وجدت في الحرم قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه، وكان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله وطعامه وثيابه ما يطرده، وكان ابن عباس يرخص أن يكشكش[٣]، وكان لعبدالله بن عمرو بن العاص فسطاطان[٤]: أحدهما في

---

(١) ولا يعضد: بكسر الضاد من باب ضرب، أي: لا يقطع. المؤلف.

(٢) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص١٢١– ١٢٦.: «أخرجه البخاري (١٥٦٧/٤، ح٤٠٥٩) من حديث مجاهد، وأخرجه مسلم (٩٨٨/٢، ح١٣٥٥) من حديث أبي هريرة نحوه» بلفظ مختلف، عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، تحقيق كتاب الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، هامش رقم ٩، ج٢، ص٦٧٠.

(٣) الكشكشة: الهروب. المؤلف.

(٤) الفسطاط: بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر، وهو أيضاً مدينة مصر قديماً. قاله في المصباح المنير. المؤلف.

الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إنا كنا نتحدث من أن من الإلحاد في الحرم أن يقول: كلا والله. وبلى والله. اهـ مختصراً من الأزرقي.[1]

(١) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص١٣١.

فضائل الحرم المكي

للحرم المكي جملة مزايا شريفة، وخصائص حميدة، يمتاز بها على جميع البلاد والأقطار [فمنها]: أنه يطلب من داخله أن يدخله بإحرام.

[ومنها]: أنه يمنع من دخوله الكافر ولا يدفن فيه.

[ومنها]: أنه يحرم صيده على جميع الناس، سواء في ذلك أهل الحرم وغيرهم، وسواء المحرم منهم والمحلّ.

[ومنها]: أنه يحرم قطع شجره، ويضمن ما قطعه.

[ومنها]: أنه يمتنع إخراج شيء من ترابه أو حجارته إلى الحل.

[ومنها]: أن ذبح دماء الهدايا والجبرانات مختص به، ولا يجوز في غيره من البقاع؛ إلى غير ذلك من المزايا التي لو أحصيناها لخرجنا عن المقصود، وقد ذكرها العلامة ابن ظهيرة القرشي - رحمه الله - في كتابه (الجامع اللطيف).[١]

فضل الصلاة في المسجد الحرام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». رواه البخاري ومسلم.

وروى أحمد والبزار وابن حبّان في صحيحه عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد

(١) انظر: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص١٦٩.

الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمئة ألف صلاة». وروي بإسناد حسن: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمئة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمئة صلاة».(١)

وسبب أفضلية الصلاة بالمقدار المذكور في المساجد الثلاثة – والله أعلم – هو أن أفضل بقاع الأرض مكة، ثم المدينة، ثم بيت المقدس. وأفضل الأماكن المساجد؛ لأنها بيوت الله يذكر فيها اسمه؛ فيكون أفضل المساجد على الإطلاق: المساجد الثلاثة المذكورة في الحديث؛ لأنها من بناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فالمسجد الحرام بناه إبراهيم خليل الله؛ ومسجد المدينة بناه محمد رسول الله، والمسجد الأقصى بناه سليمان نبي الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم إن المصلي بالمسجد الحرام إنما يقابل في صلاته عين الكعبة يقيناً، وكذلك المصلي بمسجد المدينة لصلاة النبي ﷺ بها إلى عين الكعبة يقيناً، أما المصلي في غيرهما بأي بلد كان إنما يصلي إلى عين الكعبة ظناً لا يقيناً؛ لأن استقبال عين الكعبة في البعد متعذر حتى لو كان المصلي وراء جبل أبي قبيس بمكة.

ما هو المراد بالمسجد الحرام؟

اختلفوا في المراد بالمسجد الحرام، فقيل: نفس الكعبة، لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(٢)، وقيل: الكعبة وما حولها، لقوله تعالى:

---

(١) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص٦٤.: «٧١١ – إسناده مرسل، أخرج الطرف الأول البخاري (٣٩٨/١، ح ١١٣٣) ومسلم (١٠١٢/٢، ح ١٣٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه». ابن دهيش، تحقيق أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، هامش رقم ١، ج١، ص٥٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ١٤٤.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾[١]، وقيل: جميع مكة، لقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[٢]، وقيل: جميع الحرم الذي يحرم صيده، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[٣] وقوله ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٤] وقوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٥] وعهدهم إنما كان بالحديبية، وهي من الحرم. اهـ باختصار من كتاب (الجامع اللطيف) للعلامة ابن ظهيرة القرشي، رحمه الله.[٦]

والذي يظهر لنا أن المراد من المسجد الحرام في أفضلية الصلاة فيه بالمقدار الذي ذكره ﷺ: هو نفس المسجد المحيط بالكعبة المشرفة مهما اتسع، سواء أكانت مساحته بمقدار ما كان في عهد الصحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا، أم تكون مساحته أكبر مما هو عليه الآن في مستقبل الزمان، والله تعالى أعلم.[٧]

---

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ١.

(٢) سورة الفتح، الآية رقم ٢٧.

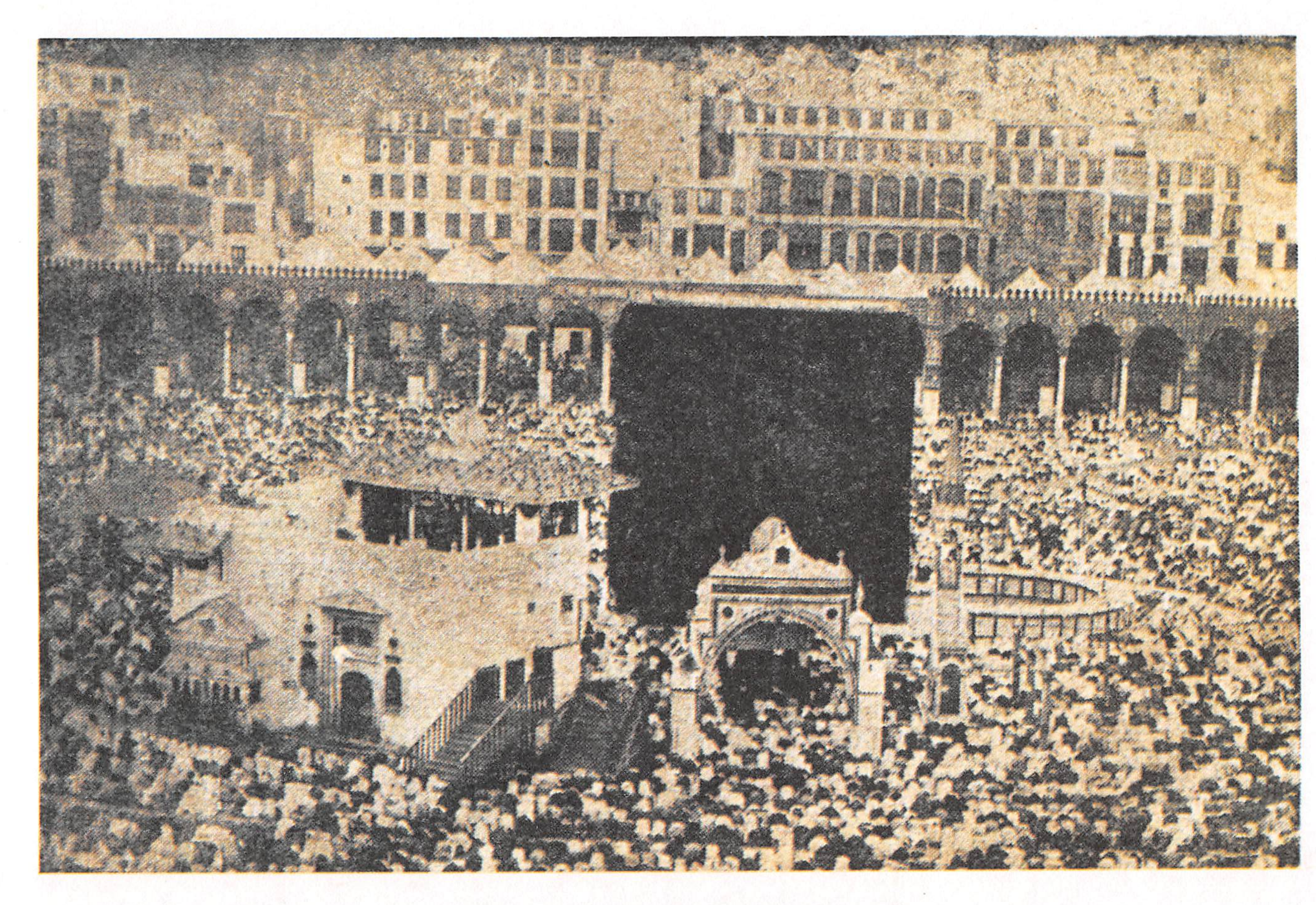
(٣) سورة التوبة، الآية رقم ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية رقم ١٩٦.

(٥) سورة التوبة، الآية رقم ٧.

(٦) انظر: ص١٧٦.

(٧) الرأي الذي استقر عليه الجمهور في المراد بأفضلية الصلاة في المسجد الحرام هو كلما هو داخل في حدود الحرم «وأن المضاعفة للثواب تشمل الحرم كله بحدوده وأعلامه المعروفة، وليست مقصورة على الكعبة وما حولها من المسجد» يقول فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالغني الخياط إمام المسجد الحرام وخطيبه - رحمه الله تعالى: «وعلى هذا القول تكون فضيلة مضاعفة أجر الصلاة شاملة لكل مساجد مكة، وليس ذلك بعظيم على فضل الله، إلا أنه يفوت فضيلة التسابق في ميادين الأعمال الصالحة كالطواف بالبيت، ونقل الخطى إليه، والاعتكاف وأمثال ذلك». الفضائل الثلاث: فضائل مكة وشرفها، فضيلة الصلاة بمكة، فضيلة الصيام بمكة، الطبعة الأولى (مكة المكرمة: مطابع الصفا، سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ص٢١.؛ وانظر: أبو سليمان، عبدالوهاب إبراهيم، ومعراج نواب مرزا، المسجد الحرام والمسعى المشعر والشعيرة دراسة فقهية حضارية، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الثالث والخمسون، السنة الرابعة عشرة، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤٢٢هـ/ فبراير (شباط) - مارس (آذار) - إبريل (نيسان) ٢٠٠٢م، ص٢٧.



المسجد الحرام والناس فيه ساجدون في صلاتهم

حدود المسجد الحرام وذرعه

كان حدّ المسجد الحرام في صدر الإسلام من الجهة الشرقية بئر زمزم وباب بني شيبة[١]، وحدّه من الجهات الثلاثة حافة المدار الذي عليه العواميد الخضر الآن، تعلق عليها المصابيح الكهربائية[٢]، أو بعبارة أخرى إن حدّه هو المطاف المفروش بالرخام الأبيض المحيط بجوانب الكعبة المشرفة، ونسميه الآن بالصحن، وقد سبق في صحيفة ٤٩ قياسه بالمتر[٣].

فهذا المقدار هو حدّ المسجد الحرام في زمن رسول الله ﷺ وزمن أبي بكر رضي الله عنه، وما وراء ذلك فهو من زيادات الخلفاء وأمراء المؤمنين.

ولم يكن المسجد الحرام محاطاً بجدار، وإنما كانت الدور محدقة به من كل جانب كالسور يدخل الناس إليه من أبواب خاصة بينها، فلما كثر المسلمون، وضاق المسجد على الناس اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة سبع عشرة للهجرة دوراً فهدمها وأدخلها في المسجد ليتسع، ثم أحاط عليه جداراً قصيراً دون القامة، وكذلك فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه اشترى دوراً وأدخلها في المسجد، ثم زاد فيه ابن الزبير رضي الله عنهما وغيرهم كما سيأتي بيانه.

---

(١) باب بني شيبة: هو باب السلام القديم، وموضعه هو محل العقد القائم أمام مقام إبراهيم عليه السلام، وكان النبي ﷺ يدخل منه إلى المسجد ويخرج منه. المؤلف.

(٢) قد أزيلت هذه العواميد مع توسعة المطاف، ولم تزل التوسعات لصحن المطاف مستمرة لكثرة أعداد القاصدين للبيت الحرام من داخل المملكة العربية السعودية وخارجها على مدار العام، آخر هذه التوسعات سنة ١٤٢٧هـ عندما غطي مدخل بئر زمزم، وسوي مع أرض المطاف، وقد اتسع نطاق صحن المطاف حتى وصل إلى أطراف الرواق من الجهات الأربع.

(٣) انظر: مقاييس الكعبة وحدود المطاف من هذا الكتاب.

أما في زماننا فالمسجد الحرام متسع جداً، بل هو أوسع مساجد الدنيا، وأرضه منخفضة عن الأرض المحدقة به بنحو ثلاثة أمتار، ويصعد من أرضه إلى أبوابه التي على الشوارع بدرج والكعبة المعظمة واقعة في وسط المسجد(١).

ولقد ذرعه كثير من المؤرخين القدماء والمتأخرين وبينوه في كتبهم؛ منهم الشيخ حسين باسلامة المتوفى سنة (١٣٥٦هـ) [١٩٣٧م] فقد ذكر أقوالهم، وذرعه بنفسه أيضاً، وبين كل ذلك في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام. ولا بأس أن نأتي بقياسه فقالوا: إن طول ضلعه الشمالي الذي يقع فيه باب الزيادة (١٦٦) متراً، وطول ضلعه الجنوبي الذي يقع فيه باب الصفا (١٦٤) متراً، وطول ضلعه الشرقي الذي يقع فيه باب السلام (١٠٨) أمتار، وطول ضلعه الغربي الذي يقع فيه باب إبراهيم (١٠٩) أمتار، فيكون مسطحه من الداخل (١٧٩٠٢) متراً مربعاً أي: أربعة أفدنة وستة قراريط وكسراً. اهـ. ولقد استخرجوا هذه المساحة السطحية بتقسيم أرض المسجد إلى مثلثين قائمي الزاوية، ثم أخذوا مساحتهما. اهـ.(٢)

ونحن في آخر ليلة من شهر المحرم الحرام سنة سبع وستين بعد الثلاثمئة والألف ذرعنا القسم المكشوف من المسجد الحرام غير المسقوف الواقع في وسطه والمفروش بالحصيات من أركانه إلى الجهات الأربع، فوجدناه مطابقاً للقياس المذكور تماماً، ولم نذرع القسم المسقوف من

---

(١) في الوقت الحاضر أعني منذ نهاية القرن الرابع عشر الهجري حتى الثلث الأول من القرن الخامس عشر الهجري قد سوي مستوى أرض رواق الحرم الشريف، فأصبح ذا مستوى واحد في جميع الرواق، وأصبح مستوى أرض المطاف من الرواق إلى الرواق من جميع الجهات واحداً، وانخفض مستوى أرض المطاف عن مستوى أرض الرواق بما يقارب المترين، يصعد إلى الرواق بدرج، وقد سويت أيضاً في جوانبها مزلقانات لسير العربات لمن لا يستطيعون السير من المعاقين، وكبار السن.

(٢) انظر: ص٣٨– ٤٨، وقد كان الشيخ حسين باسلامة – رحمه الله – دقيقاً جداً في تمتيره؛ حيث عمل جدولاً مفصلاً لكل جهة بالمقاس العصري: المتر، والسنتيمتر.

المسجد، وهو الرواق المحيط به الذي فوقه القباب، كما لم نذرع رحبة باب الزيادة، ولا رحبة باب إبراهيم.

وإليك رسماً يبيّن حدود المسجد من الداخل والخارج والصفا والمروة، وجميع أبواب المسجد الحرام.



رسم المسجد الحرام في زماننا نقلناه من كتاب المحمل والحَجّ

الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام

تقدم أن المسجد الحرام كان ضيقاً صغيراً لا يتجاوز بئر زمزم من الجهة الشرقية، ومثلها من جميع الجهات، ولم يتسع على هذا الشكل الحاضر في عصرنا إلا من الزيادات الثمانية التي حصلت من الخلفاء وهي:

١- زيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢- زيادة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣- زيادة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

٤- زيادة الوليد بن عبدالملك، رحمه الله تعالى.

٥- زيادة أبي جعفر المنصور، رحمه الله تعالى.

٦- زيادة محمد المهدي العباسي، رحمه الله تعالى.

٧- زيادة المعتضد بالله العباسي، رحمه الله تعالى.

٨- زيادة المقتدر بالله العباسي، رحمه الله تعالى.

وإليك نبذة يسيرة من بيان ذلك:

فأما عمر رضي الله عنه فقد زاد في المسجد الحرام سنة (١٧) سبع عشرة [نحو ٦٣٨م]، وأما عثمان رضي الله عنه فقد زاد فيه سنة (٢٦) ست وعشرين، [نحو ٦٤٦م] وأما عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما فقد زاد فيه سنة (٦٥) خمس وستين [نحو ٦٨٤م]، وأما الوليد بن عبدالملك فقد زاد فيه سنة (٩١) إحدى وتسعين [نحو ٧٠٩م]، وأما أبو جعفر المنصور فقد زاد فيه سنة (١٣٧) مئة وسبع وثلاثين [نحو ٧٥٤م]، وأما محمد المهدي العباسي فقد زاد فيه زيادات كبيرة، بحيث تعادل جميع زيادات من سبقه؛ وذلك في سنة (١٦٠) مئة وستين [نحو ٧٧٦م]، وفي سنة (١٦٤) مئة وأربع

وستين [نحو ٧٨٠م] أيضاً، وهو الذي أمر أن يجعل المسجد الحرام على هيئة التربيع حتى تقع الكعبة المعظمة في وسطه، وقد أنفق على ذلك أموالاً عظيمة، قدّرها الشيخ حسين باسلامة - رحمه الله - المتوفى سنة (١٣٥٦هـ) [١٩٣٧م] بمبلغ (٤٥٧٨٧٥٠) أربعة ملايين وخمسمئة وثمانية وسبعين ألفاً وسبعمئة وخمسين ديناراً ذهباً، بما في ذلك قيمة الدور التي اشتراها وأدخلها في المسجد التي بلغت قيمتها (٢٢٨٩٣٧٥) مليونين ومئتين وتسعة وثمانين ألفاً وثلاثمئة وخمسة وسبعين ديناراً ذهباً - كما حققه المذكور في كتابه (تاريخ عمارة المسجد الحرام)، بل قال: وهذا على أقل تقدير اهـ.[١]

وأما المعتضد بالله العباسي فقد زاد فيه سنة (٢٨١) مئتين وإحدى وثمانين [نحو ٨٩٤م]، وذلك بإدخال دار الندوة في المسجد، وكان محلها كما يقولون رحبة باب الزيادة، فبنى هذا الباب والباب القطبي والمنارة التي عنده وما يتبعه من الأروقة وسقوفها، وقد دامت عمارته ثلاث سنوات، والباب القطبي هو الباب الوحيد الذي لم يجدّد بناؤه في العمارة التي وقعت سنة (٩٨٤) [نحو ١٥٧٦م]، بل بقي على عمارته الأولى، وهو إلى الآن في غاية القوة والمتانة، كأنه بني قريباً مع أنه قد مرّ عليه نحو ألف ومئة سنة.

فانظر - عافاك الله، وفتح بصيرتك - إلى عمارات الإسلام في القرون الأولى كيف دامت وبقيت هذه الأعوام الطويلة مع أنه لم يكن في زمانهم من الأدوات والآلات ما هو موجود في عصرنا، ولكن قوة الإيمان وحسن النية والإخلاص في القول والعمل تؤدي إلى النجاح والفلاح، وبلوغ المرام والأمل.

---

(١) انظر: ص٥٠.

وأما المقتدر بالله العباسي فقد زاد سنة (٣٠٦) ست وثلاثمئة [نحو ٩١٨م] رحبة باب إبراهيم وما يتبعه من الرواق، وهذا الباب هو أكبر أبواب المسجد الحرام، وقد سمي باسم خياط كان يجلس عنده - قال العلامة ابن ظهيرة في كتابه (الجامع اللطيف): كان باب إبراهيم منخفضاً جداً بحيث إن السيول إذا دخلت المسجد الحرام تخرج منه، والآن ليس كذلك إنما يخرج السيل من القبو الذي تحته؛ لأنه لما رفع وعمل له هذه الدرجة جعل تحته العقود بالحجارة المنحوتة لمصرف السيل؛ وذلك في حدود سنة خمس عشرة أو ست عشرة وتسعمئة [نحو ١٥٠٩م] في دولة الأشرف الغوري على يد الأمير خاير بيك المعروف (بالعمار)، وقد أدركت عمارته وأنا إذ ذاك في المكتب. انتهى كلامه[١].

فالخلاصة أنه بعد زيادة المقتدر العباسي لم تحصل زيادات في المسجد الحرام إلى وقتنا الحاضر، وقد مرّ على ذلك أكثر من ألف سنة، وكل ما وقع فيه إنما هو إصلاح وتعمير فقط بغير زيادة. ومن أراد الوقوف على تفصيل ما وقع في المسجد الحرام من الزيادات والتعميرات فليراجع كتب التاريخ.

هذا ولما كان من اللازم توضيح هذه الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام، رأينا أن نرسم بيدنا صورة تقريبية تبيّن تلك الزيادات فيه على نمط خريطة المحقق الشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى[٢]. وإليك هذه الصورة.

(١) انظر: ص٢٠١.

(٢) انظر خريطة الشيخ حسين عبدالله باسلامة في اللاحقة الأولى في نهاية هذا الكتاب.



الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام

نادرة ظريفة في المحاورة التي وقعت بين أهل مكة وأهل المدينة

من اللطائف المستملحة: أن بعض أهل المدينة فضّلها على مكة في قصيدة بعثها إلى أميرها يدعوه إلى الإقامة صعندهم، فلما سمعها أهل مكة ردّ عليه أحدهم بقصيدة في نهاية البلاغة؛ فسمع بهما رجل من جُدة فجعل نفسه حكماً بينهما، ولم يبخس من فضل مكة والمدينة شيئاً. وإليك الحكاية كاملة: جاء في تاريخ الغازي المخطوط المسمى: (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام):

«أن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس عم رسول الله ﷺ لما ولي مكة والمدينة في خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد العباسي ولّى ابنه سليمان المدينة، وأقام داود بمكة، فكتب إليه أهل المدينة يسألونه التحول إليهم ويُعلمونه أن مقامه بالمدينة أفضل من مقامه بمكة، وأهدوا إليه في ذلك شعراً، وهو:

أداود قد فزت بالمكرمات ... وبالعدل في بلد المصطفى
وصرتَ ثِمالاً لأهل الحجاز ... وسرت بسيرة أهل التقى
وأنت المهذب من هاشم ... وفي منصب العز والمرتجى
وأنت الرضي الذي نابهم ... فعدلك فينا هو المنتهى
وبالفيء أغنيت أهل الخصاص ... وفي كل حال فأنت الرضا
ومكة ليست بدار المقام ... فهاجر كهجرة من قد مضى
مقامك عشرون شهراً بها ... كثير لهم عند أهل الحجا

فقم ببلاد الرسول التي بها الله خص نبي الهدى
ولا يلفتنّك عن قرية مشير مشورته بالهوى
فقبر النبي وآثاره أحق بقربك من ذي طوى

فلما ورد الكتاب والأبيات على داود بن عيسى أرسل إلى رجال من أهل مكة، فقرأ عليهم الكتاب فأجابه رجل منهم بقصيدة يرد عليهم، ويذكر فيها فضل مكة وما خصها الله بها من الكرامة والفضيلة، ويذكر المشاعر والمناقب فقال:

أداود أنت الإمام الرضى وأنت ابن عم نبي الهدى
وأنت المهذب من كل عيب كبيراً ومن قبله في زمان الصبا
وأنت المؤمل من هاشم وأنت ابن قوم كرام تقى
وأنت غياث لأهل الخصاص تسدّ خصاصتهم بالغنى
أتاك كتاب حسود جحود أسا في مقالته واعتدى
يخيّر يثرب في شعره على حرم الله حيث ابتنى
فإن كان يصدق فيما يقول فلا يسجدنّ إلى ما هنا
وأيّ بلادٍ تفوق امّها ومكة مكة أم القرى
وربي دحا الأرض من تحتها ويثرب لا شكّ فيما دحا
وبيت المهيمن فينا مقيم يصلى إليه برغم العدا
ومسجدنا بيّن فضله على غيره ليس في ذا مرا
صلاة المصلي تعادله مئين ألوفاً صلاة وفا
كذاك أتى في حديث النبي وما قال حق به يقتدى
وأعمالكم كل يوم وفود إلينا شوارع مثل القطا

فيرفع منها إلهي الذي يشاء ويترك ما لا يشا
ونحن تحج إلينا العباد فيرمون شعثاً بوتر الحصا
ويأتون من كل فج عميق على أينق ضمر كالقنا
ليقضوا مناسكهم عندنا فمنهم سعاة ومنهم مشا
فكم من ملبّ بصوت حزين ترى صوته في الهوى قد علا
وآخر يذكر رب العباد ويثني عليه بحسن الثنا
فكلهمو أشعث أغبر يؤم المعرف أقصى المدى
فظلوا به يومهم كله وقوفاً يضجون حتى المسا
حفاة ضحاة قياماً لهم عجيج ينادون رب السما
رجاءً وخوفاً لما قدموا وكلاً يسائل رفع البلا
يقولون: يا ربنا اغفر لنا بعفوك والصفح عمن أسا
فلما دنا الليل من يومهم وولّى النهار أجدوا البكا
وسار الحجيج له وجبة فحلوا بجمع بُعَيد العشا
فباتوا جميعاً فلما بدا عمود الصباح وولى الدجا
دعوا ساعة ثم شدّوا النسوع[1] على قلص ثم أمّوا مِنى
فمن بين ما قد مضى نسكه وآخر يبدا بسفك الدما
وآخر يهوي إلى مكة ليسعى ويدعوَ فيمن دعا
وآخر يرمل حول الطواف وآخر ماض يؤم الصفا
فآبوا بأفضل مما رجوا وما طلبوا من جزيل العطا
وحج الملائكة المكرمون إلى أرضنا قبل فيما مضى

---

(١) النسع: بكسر النون وهو الحزام في وسط البعير من أدم مضفور، قاله في شرح المقامات الحريرية. المؤلف.

وآدم قد حج من بعدهم ومن بعده أحمد المصطفى
وحج إلينا خليل الإله وَهَجَّر بالرمي فيمن رمى
فهذا لعمري لنا رفعة حبانا بهذا شديد القوى
ومنا النبي نبي الهدى وفينا تنبّا ومنا ابتدا
ومنا أبو بكر ابن الكرام ومنا أبو حفص المرتجى
وعثمان منا فمن مثله إذا عدّد الناس أهل الحيا
ومنا عليّ ومنا الزبير وطلحة منا وفينا انتشا
ومنا ابن عباس ذو المكرمات نسيب النبي وحلف الندى
ومنا قريش وآباؤها فنحن إلى فخرنا المنتهى
ومنا الذين بهم تفخرون فلا تفخرون علينا بنا
ففخر أولاء لنا رفعة وفينا عن الفخر ما قد كفى
وزمزم والحجر فينا فهل لكم مكرمات كما هِيْ لنا
وزمزم طعم وشرب لمن أراد طعاماً وفيه الشفا
وزمزم تنفي هموم الصدور وزمزم من كل سقم دوا
وكم جاء زمزم من جائع إذا ما تضلع منها اكتفى
وليس كزمزم في أرضكم كما ليس نحن وأنتم سوا
وفينا سقاية عم الرسول ومنا النبيّ امتلا وارتوى
وفينا المقام فأكرم به وفينا المحصّب والمنحنى
وفينا الحجون ففاخر به وفينا كداءٌ وفينا كدى
وفينا الأباطح والمروتان فبخٍ وبخٍ فمن مثلنا؟
وفينا المشاعر منشا النبيّ وأجياد والركن والمتكا

وثــور وهـل عندكـم مثـل ثـور		وفينـــا ثبيـــر وفينـــا حِـرا
وفيـــه اختبـــاء نبـيّ الإلـه		ومغْـــهُ أبـــو بكـــر المرتضـــى
فكـم بيـن أُحْـد إذا جـاء فخـر		وبيـــن القبيّـس فيمـــا نـــرى
وبلدتنـــا حـــرم لـم تـــزل		محـــرمـة الصيـــد فيمـا خـلا
ويثـــرب كـــانـت حـلالاً فـــلا		تُكَـــذّب كــم بيـــن هــذا وذا
وحرمهـــا بعـــد ذاك النبـي		فمـن أجـل ذلـك جـا ذا كـذا
ولـو قتـل الوحـش فـي يثـرب		لمـا فُـدِي الوحـش حتـى اللقـا
ولـو قتلـت عنـدنا نمـلـة		أخذتـم بهـا أو تـؤدّوا الفـدا
ولـولا زيـــارة قبـــر النبـيّ		لكنتـم كسـائر مـن قـد بـدا
فـإن قلـت قـولاً خـلاف الـذي		أقـول وقـد قلـت قـول الخطـا
فـلا تفحشـنّ علينـا المقـال		ولا تنطقـــنّ بقـــول الخنـا
ولا تفخـرن بمـا لا يكـون		ولا مـا يشـــينك عنـد المـلا
ولا تهـجُ بالشـعر أرض الحـرام		وكـفَّ لسـانك عـن ذي طـوى
وإلاّ فجـاءك مـا لا تريـد		مـن الشـتم في أرضكـم والأذى
فقـد يمكـن القـول فـي أرضكـم		بسـبّ العقيـــق ووادي قبـــا

فأجابهما رجل من بني عجل ناسك، كان مقيماً بجدة مرابطاً فحكم بينهما فقال:

إني قضيـت علـى اللّذيْـن تماريا		في فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسـوف أخبركـم بحـق فافهمـوا		فالحكم حيناً قد يجور ويعدل
فأنا الفتى العجلي جدة مسـكني		وخـزانة الحـرم التي لا تجهـل
وبهـا الجهـاد مـع الربـاط وإنهـا		لَبها الوقيعـة لا محـالة تنـزل

مــن آل حــام فــي أواخــر دهرنــا ... وشهيدها بشهيد بـــدر يعـــدل
شــهداؤنا قــد فضلــوا بســعادة ... وبها السرور لمن يموت ويقتل
يــا أيهــا المدنــيّ أرضــك فضلهــا ... فوق البــلاد وفضل مكة أفضل
أرض بهــا البيــت المحــرم قبلــة ... للعالمين لها المســـاجد تعـــدل
حــرم حــرام أرضهــا وصيودهــا ... والصيد في كل البـــلاد محـــلل
وبهــا المشــاعر والمناســك كلهــا ... وإلى فضيلتها البـــرية ترحـــل
وبهــا المقــام وحــوض زمــزم مترع ... والحِجْر والركن الذي لا يجهل
والمسجد العالي الممجد والصفا ... والمشعران ومن يطوف ويرمل
هــل فــي البــلاد محلــة معروفــة ... مثل المعرّف أو محل يجلل
أو مثــل جمــع فــي المواطــن كلها ... أو مثل خيف منى بأرض منزل
تلكــم مواضــع لا يــرى بحرامهــا ... إلا الدعاء ومُحْرِم ومحلّل
شــرفاً لمــن وافــى المعــرّف ضيفه ... شرفاً له ولأرضه إذ ينزل
وبمكة الحســنات ضوعــف أجرها ... وبها المسيء عن الخطيئة يُسْأَلُ
يجزى المسيء على الخطيئة مثلها ... وتضاعف الحسنات منه وتقبل
مــا ينبغــي لــك أن تفاخر يــا فتى ... أرضاً بها وُلد النبي المرسَل
بالشــعب دون الردم مســقط رأسه ... وبها نشا صلى عليه المرسل
وبهــا أقــام وجــاءه وحــي الســما ... وسرى به الملك الرفيع المنزل
ونبــوة الرحمــن فيهــا أنزلــت ... والدين فيها قبل دينك أول
هــل بالمدينــة هاشــميّ ســاكن ... أو من قريش ناشئ أو مكهل
إلا ومكـــــة أرضـــــه وقـــــراره ... لكنــهم عنــها نـــأوْا وتحــوّلوا
وكــذاك هاجــر نحوكــم لمــا أتــى ... أن المـــدينة هجـــرة فتحملوا

فأجرتمو وقربتمو ونصرتمو ... خير البرية حقكم أن تفعلوا
فضل المدينة بيّن ولأهلها ... فضل قديم نوره يتهلل
من لم يقل إن الفضيلة فيكم ... قلنا كذبت وقول ذلك أرذل
لا خير فيمن ليس يعرف فضلكم ... من كان يجهله فلسنا نجهل
في أرضكم قبر النبي وبيته ... والمنبر العالي الرفيع الأطول
وبها قبور السابقين بفضلهم ... عمرٌ وصاحبه الرفيق الأفضل
والعترة الميمونة اللاتي بها ... سبقت فضيلة كل من يتفضل
آل النبي بنوا عليّ فإنهم ... أمسوا ضياء للبرية يشمل
يا من تبصّ إلى المدينة عينه ... فيك الصغار وصعر خدك أسفل
إنا لنهواها ونهوى أهلها ... ووِدادها حق على من يعقل
قل للمديني الذي يزداردا ... ودَ الأمير ويستحث ويعجل
قد جاءكم داود بعد كتابكم ... قد كان حبلك في أميرك يفتل
فاطلب أميرك واستزره ولا تقم ... في بلدة عظمت فوعظك أفضل
ساق الإله لبطن مكة ديمة ... تروى بها وعلى المدينة تسبل»

انتهى من تاريخ الغازي، رحمه الله تعالى[1].

---

(١) ج٣، ص٤٦.

حمام الحرم المكي

بمكة حمام مملوك، وحمام غير مملوك: أما الأول فأجناس مختلفة، وأشكال متباينة، يقتنيه الناس كما في البلدان الأخرى. وأما الثاني فهو حمام الحرم الذي نعقد له هذا الفصل، وله شكل خاص، وخلقة لا تتغير ولا تتبدل، ولونه واحد لا يختلف، فمن رأسه إلى رقبته شديد الزرقة والبروق، وطرف جناحيه وذنبه أسود، وباقيه أزرق يضرب إلى البياض، وفي جناحيه مما يلي ذنبه خطان أسودان لا يوجدان في غير حمام الحرم: فهما له (ماركة مسجلة)، وشارة خاصة، ويقال لحمام الحرم حمام مكة، وحمام رب البيت، وهو منتشر بالحجاز، وبالأخص بمكة المشرفة، فإنها تكاد تكون موطنه ومنبعه؛ أما في غير الحجاز فقد يوجد بها نادراً، فقد رأينا منه بمصر قليلاً، يسمونه الحمام البري، ورأينا منه في بلد الموصل بالعراق، وهو في غير مكة لا يأوي كثيراً إلى المساجد، وإنما يكون مملوكاً، ويقال: إنه يوجد في بعض جهات الهند من هذا الحمام بعضه مملوك، وبعضه وحشي يصاد.

ولقد تكلم بعضهم على بدء وجود هذا الحمام بمكة، ولكن ترى أن كل ما ذكروه إنما هو من باب الحدس والتخمين، فإن الكلام عن بدء وجود أي حيوان لابدّ من استناده إلى دليل قاطع، وبرهان ساطع، حتى لا يتطرق الشك والاحتمال إليه.

نعم يمكننا أن نقول: إن الحمام مطلقاً كان موجوداً بمكة أيام الجاهلية. أما كون حمام الحرم متى نشأ بمكة؟ أو متى جاء إليها؟ وهل هو من نسل الحمامتين اللتين عشّشتا على غار ثور حينما اختبأ فيه

رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟[١] فكل ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

ولما كان الدين الإسلامي الحنيف منع الصيد في الحرم صار هذا الحمام لا يخاف من الناس، بل يقرب منهم، وربما وقع على رأس بعضهم أو كتفه إذا كان في يديه حبّ يلقيه إليه، وكان ابن عمر يغشاه الحمام على رحله وطعامه وثيابه ما يطرده، وإن رجلاً قال لعطاء: أجعل بيضة دجاجة تحت حمام مكة. قال: لا، أخشى أن يضر ذلك بيضها، وقتل غلام من قريش حمامة من حمام الحرم فقال ابن عباس: فيها شاة.

فهذا مما جعل حمام مكة لا يستوحش من الناس، ويا ليته ابتعد عنهم بُعدَ الصقر والغراب، فقد تضرروا منه ضرراً بليغاً، فإنه يدخل عليهم في منازلهم، ويقع على طعامهم، ويلوّث بذرقه الأرض والفراش، وكلما طردوه رجع إليهم ما دام يرى عندهم ما يؤكل، وهو يرى كثيراً في طريق مكة وجدة، حيث يركب فوق الجمال المحملة بالحنطة والحبوب، ويخرق أكياسها بمنقاره القوي، ولا يطير من فوقها حتى يشبع.

وقد لاحظنا على حمام الحرم بمكة فقط، جملة أمور، منها:

١- أن حمام الحرم لا يألف حماماً من غير جنسه، ولا يتزاوج منه إلا إذا حبس شخص حمامة من حمام الحرم وحمامة من غيره في قفص مدة طويلة، وهذا نادر جداً.

٢- حمام الحرم يشارك الحمام المملوك، في أكله وشربه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، بخلاف العكس.

---

(١) قصة الحمامتين في حديث الهجرة أخرجها البزار ح (١٧٤١)، والطبراني في الكبير ح (١٠٨٢).
وأوردها الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٣/٦) وقال: رواه البزار والطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم.
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٨٢/٣): وهذا حديث غريب.

٣- حمام الحرم أشد نَهَماً وأكثر أكلاً من الحمام الآخر، وإذا طرد حين يأكل فلا يطير سريعاً، ويرجع حالاً إذا طار.

٤- حمام الحرم أعظم نشاطاً وأسرع حركة من الحمام المملوك، سواء في طيرانه أم في حدَّة نظره وخصامه مع جنسه وانقضاضه لالتقاط الحبوب، فلا تفوته الفرصة قط.

٥- إذا نثر أحد حبوباً في المسجد الحرام أو في أي مكان تجد حمام الحرم يسقط لالتقاطها بالآلاف من غير عدد، ولا تجد بينها حمامة واحدة من غير جنسه.

٦- إذا نثر شخص حبوباً أياماً متوالية في مكان مخصوص وفي وقت معلوم فإن حمام الحرم يأتي إلى ذلك المكان في الوقت نفسه المحدد على الدوام.

٧- حمام الحرم إذا بنى عشه لبيضه وفراخه لا يبنيه في الخرابات والجبال، وإنما في وسط العمران ومنازل الناس، وفوق الأبواب والطاقات وبين الفجوات.

٨- حمام الحرم له شكل خاص، وخلقة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على مر السنين والأعوام، كما ذكرنا ذلك في أول الكلام.

بهذه الأمور يمتاز حمام الحرم من غيره، ويشترك معه في الصفات الخاصة بمطلق الحمام، كاتخاذه زوجة واحدة، وغيرته على أنثاه، وهيامه بها، وشوقه وحنينه إليها،... إلخ.



صورة الحمام بالمسجد الحرام

وقوع الحمام على الكعبة المعظمة

أغلب الناس يظن أن حمام مكة لا يعلو الكعبة المشرفة حرمة لها، وإن وقع عليها فإنما ذلك للاستشفاء من مرض أصابه.

فهذا الظن في غير محله؛ لأن حمام الحرم قد يقع على الكعبة في النادر كما نشاهده؛ أما غيره من الحمام الأبيض فلا يقع على الكعبة مطلقاً، بل لا يأتي المسجد الحرام على سعته.

والسبب في عدم وقوع الحمام على الكعبة المعظمة بكثرة ما يأتي:

١- أن الحمام يتطلب العلو، والكعبة المشرفة قياساً بما حولها من البيوت قصيرة.

٢- جميع الطيور من حمام أو غيره لا يحب الجلوس على مستوى ناعم مفروش بالرخام إلا إذا كان فوقه حب فيأكله ويطير، وإنما يحب الجلوس على ما برز من الأخشاب والأعواد والحجارة والشرفات والأغصان

والحبال الممدودة وغيرها من كل ما يمكنه أن يستمسك عليه بمخلبه، كما يحب المشي والوقوع على التراب.

والكعبة ليس فيها شيء بارز يستمسك به، بل إنها مغطاة بالكسوة الحريرية، وسطحها صغير مفروش بالرخام الأملس، معرض لحرارة الشمس المحرقة، وليس عليه حبوب، حتى يلتقطها الحمام؛ أما ميزابها فالحمام يقع عليه أحياناً لبروزه.

٣- الحمام من طبعه أن يدخل في كل فجوة وفي كل خرق بين الشبابيك والجدران، وليس في الكعبة شيء من ذلك يجلب إليها الحمام.

وأما قولهم إذا شاهدوا حمامة فوق الكعبة: إنها ما وقعت عليها إلاّ للاستشفاء فهو غير صحيح وغير معقول لما يأتي:

١- أن جميع الحيوانات لا تعقل، فكيف نسند إليهم[1] طلب الاستشفاء، وأيضاً أنهم غير مكلفين[2]، فكيف نقول: إن الحمام لا يعلو الكعبة حرمة لها. ثم من أين لنا أن نحكم بذلك ونحن لا نفهم لغتها، وهي لا تفهم لغتنا.

٢- لو كان وقوع الحمامة فوق الكعبة للاستشفاء يكون معناه أنها عرفت قدسية الكعبة وشرف المكان، فكيف إذن ترمي ذرقها عليها وعلى كسوتها وعلى أرض المسجد الحرام؟

٣- لو كانت الحيوانات تعرف حرمة الكعبة فكيف إذن كانت القطط تصيد الحمام من المسجد، ثم تدخل في جوف الكعبة فتأكله، وتتلوث أرضيتها الطاهرة بدمه وريشه، وذلك حينما هدمها السيل سنة ١٠٣٩ هجرية [نحو ١٦٢٩م]، وقبل أن يشرع السلطان مراد في عمارتها، وقبل أن يجعل أمير مكة يومئذ ستارة من الخشب وغيره حول ما سقط

(١) كذا في الأصل، والصواب: إليها.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: أنها غير مكلفة.

من البيت الشريف مؤقتاً إلى أن تتم عمارته، كما ذكره الغازي في تاريخ (إفادة الأنام) نقلاً عن رسالة للشيخ محمد علي بن علان الصديقي الشافعي في عمارة البيت الحرام.[١]

ولقد روى الإمام الأزرقي: أن الحمام كان يقع على الكعبة فتتناثر حجارتها، وذلك حينما احترقت أيام ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.[٢]

فعلم مما ذكرناه أن ما يشاع لدى الناس: بأن حمام الحرم لا يعلو الكعبة المشرفة، وإن علاها فإنما هو للاستشفاء وهم لا حقيقة له، ودعوى لا دليل عليها.

تنظيف المسجد الحرام من الحمام

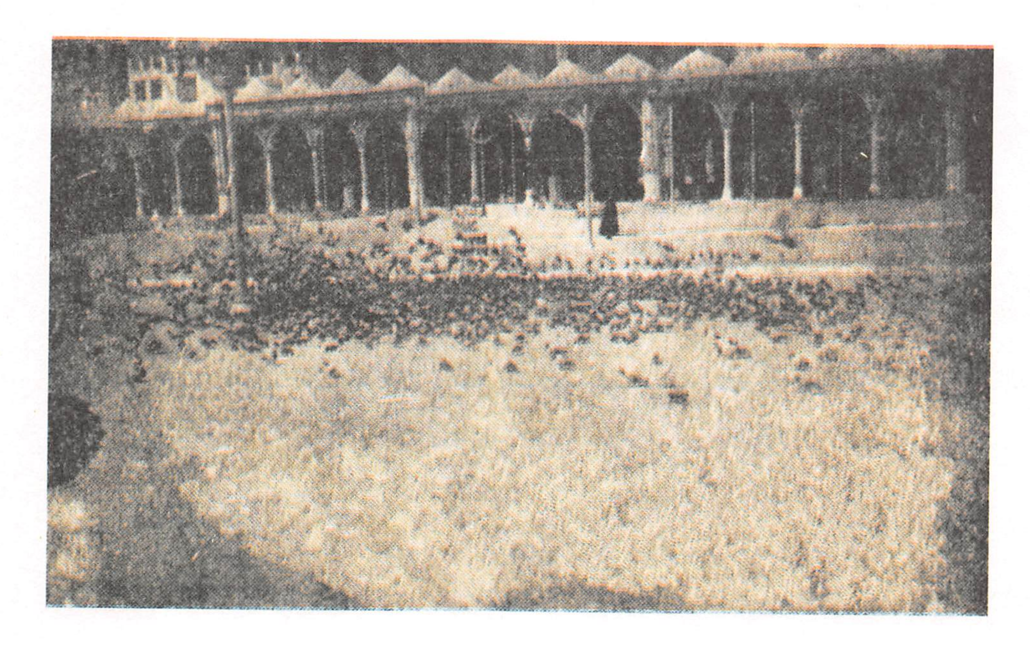
لم يتخذ الحمام المسجد الحرام مسكنه ومأواه في صدر الإسلام حيث كان صغيراً، ولم يكن له سور ولا سقف، أما الآن ففي المسجد الحرام من الحمام ما لا يحصى ولا يعدّ، لاتساعه العظيم، ولكثرة ما فيه من الأروقة والشرفات البارزة، والأعواد الممدودة، والفجوات العديدة.

والذي يغلب على الظن أن الحمام لم يستوطن المسجد الحرام إلا في عهد الدولة العثمانية لأنها خصصت له كل سنة كمية كبيرة من الحبوب تنثر له في أرض المسجد، ولا يزال الناس إلى اليوم يرمون له الحبوب فيه، خصوصاً الحجاج، فأصبح المسجد الحرام مرعى خصباً للحمام، فيه الأمن والطعام والماء والمسكن.

---

(١) انظر: ج١، ص٣١٨.

(٢) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٢٠٣.



صورة الحمام بالمسجد الحرام

ومن المؤلم حقاً أن نرى هذا المسجد الأعظم الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق، والذي فيه أول بيت وضع للناس، وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ملوثاً بذرق هذا الحمام، ومستقذراً بخرئه النجس في بعض المذاهب، حتى كاد المشي يتعذر فيه والصلاة، فتضايق منه الناس، وقد ينبعث من المسجد رائحة كريهة بسبب خرئه إذا جاء مطر قليل.

فحبذا لو قامت مديرية الأوقاف العامة المشرفة على شؤون المسجد الحرام بطرد الحمام منه من غير وصول ضرر إليه، وأن تخصص له كمية وافرة من الحبوب ترمى إليه في أواخر مكة كالمسفلة وجرول، وأن تمنع الناس من رمي الحبوب للحمام في المسجد. وبذلك يهاجر الحمام من المسجد إلى حيث يجد الطعام والماء، فيستريح الناس من أذاه، وينظف

المسجد الحرام من وساخته، ويصان من ذرقه، فإن المساجد من حقها التنظيف والتجمير والتطهير والتبخير.[١]

ولا حرج في ذلك فإنه يجوز طرد الحمام ونحوه من بقعة في الحرم إلى بقعة في الحرم إذا تضرر الإنسان منه، بشرط ألّا يحصل لهذا الحمام تلف في نفسه أو بيضه أو فرخه، فإن حصل في إطارته وطرده تلف حرم ذلك، وضمن بالجزاء المعروف في كتب الفقه.

فقد جاء في كتاب (القرى لقاصد أم القرى) تأليف الحافظ الطبري عن مالك بن دينار قال: دخلت على مجاهد بيته في مكة فرأيت في يده سعفة يطرد بها الحمام. أخرجه سعيد بن منصور. وجاء فيه أيضاً عن نافع ابن عبدالرحمن أن عمر دخل دار الندوة فعلق زاده فوقع عليه طائر فخاف أن ينجسه فطيره فنهشته حية، فقال: أنا طيرته حتى نهشته الحية، فسأل من كان معه أن يحكموا عليه فحكموا عليه بشاة. أخرجه الشافعي.

وروى الإمام الأزرقي عن عبدالله بن نافع عن أبيه قال: كان ابن عباس يرخص أن يكشكش[٢] للحمام، وروى أيضاً عن مجاهد قال: أمر

---

(١) موضوع وجود الحمام في الساحات الداخلية (الحصوات) بالمسجد الحرام، وما يسببه من إزعاج للمصلين، واتساخ للمسجد الحرام أصبح تاريخاً في الوقت الحاضر، ومظهراً من مظاهر الماضي للمسجد الحرام قد اختفى منذ أكثر من ثلاثة عقود من السنين بعد أن بلطت الحصوات بالرخام الأبيض المعالج الذي لا يشع بالحرارة، بدءاً من صحن المطاف حتى رواق الحرم الشريف في جهاته الأربع، توقف دخول الحمام إلى الحرم الشريف؛ حيث لا ينثر فيه الحب وهو غذاؤه الرئيس، وانتقل إلى الساحات الخارجية؛ حيث ينثر الحب هناك، يشتريه بعض قاصدي الحرم الشريف من الزائرين من بائعاته الإفريقيات، ثم ينثرونه إطعاماً للحمام، بل أصبح وجود الحمام حول الحرم الشريف نادراً، فقد انتجع جهات أخرى في مناطق متعددة من مكة المكرمة تنثر له فيها الحبوب من قبل بعض أهالي مكة المكرمة في أحياء نائية عن المسجد الحرام.

(٢) «الكشكشة: الهرب، وكشكش الأفعى، وقد كشكشت» الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الأولى، طبعة فنية مرقمة ومصححة (بيروت: مؤسسة الرسالة، =

عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحمامة فأطيرت فوقعت على المروة فأخذتها حية، فجعل فيها عمر شاة. قال: وأمر عثمان رضي الله عنه بحمامة فأطيرت من واقف فوقعت على واقف فأخذتها حية، فدعا نافع بن الحارث الخزاعي فحكما فيها عنزاً عفراء. اهـ.

فهذا دليل واضح على جواز طرد الحمام ونحوه في الحرم من غير أن يطرد إلى خارجه ومن غير أن يلحقه أذى، ولو لم يكن ذلك جائزاً لما رخص ابن عباس أن يكشكش للحمام، ولما أمر عمر وعثمان بإطارته، أما كونهما ضمنا الحمامتين بشاة وعنز فلموتهما بسبب الإطارة؛ فطرد الحمام شيء وتلفه شيء، آخر، فحكم الأول الجواز، وحكم الثاني الجزاء.

قال العلامة المحقق الشيخ عبدالغني بن ياسين اللبدي النابلسي الحنبلي – رحمه الله – في كتابه (دليل الناسك لأداء المناسك) ما نصه:

«ويسن قتل كل مؤذ مطلقاً، أي: لمُحِلٍّ ومحرم في الحل والحرم. فعلى هذا إذا حصل الأذى من الحمام الموجود في مكة المكرمة في بعض البيوت – فإنه يكثر ذرقه، ويوسخ بعض الأماكن، بحيث يعجز أصحابها عن إزالة ذلك لكثرته ودوامه، ولاسيما عند من يرى نجاسة ذلك – فالظاهر جواز طرده؛ فإن لم يزل بالطرد فله قتله أو مسكه وذبحه، وهل يجوز أكله حينئذ؟ محل نظر، والله تعالى أعلم». انتهى كلامه.

= سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ص٧٧٩، كلمة (كشكش). المقصود أنه أجاز أن يحرك يده لتفريق الحمام إشارة باليد لمغادرة الحمام المكان الذي يجلس فيه.

القسم الثالث

مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ



صورة مقصورة مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

مقام إبراهيم عليه السلام

لقد تقدم الكلام في الشطر الأول من الكتاب على الكعبة المعظمة والمسجد الحرام بما فيه الكفاية، وذلك لما له من المناسبة القوية، فإن المقام الشريف لم يكن إلا وسيلة لإكمال بناء البيت الحرام الذي هو المقصود قبل كل شيء.

فلنشرع الآن في بيان مقام إبراهيم - عليه السلام - الذي لأجله ألّفنا هذا الكتاب، وسميناه باسمه، ليظهر الغرض من العنوان نفسه - فنقول، وبالله التوفيق وعليه الاتكال والاعتماد:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾، قال بعضهم عند هذه الآية: يحتمل أن تكونٍ من تبعيضية، أو زائدة في الإثبات على مذهب الأخفش، أو بمعنى في، وَكُلٌّ بعيد؛ والأقرب أنها بمعنى عند. اهـ. والمقَام هو بفتح الميم من قام يقوم: موضع القيام. وأما المقام بالضم فهو من أقام يقيم.

واختلفوا في المراد بالمقام فقيل: المسجد كله مقام إبراهيم، وقيل الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: جميع مشاهد الحج كمنى ومزدلفة وعرفة، وقيل: المقام هو الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه، وقيل: مقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة، وكان يرتفع به كلما ارتفع البناء[1] وإلى هذا أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله:

---

(١) ارتفاع المقام بإبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة، وحين أذانه بالحج كان من معجزاته عليه السلام، فلا غرابة في ذلك. المؤلف.

«وكلما طال البناء ارتفعا — به المقام في الهوا ورفعا
به القواعد وفيه قدم — تشبهها للهاشمي قدم
وحين بالحج الخليل أذّنا — وفي كلا أذنيه أصبعاً ثنى
أيضاً كأطوال الجبال ارتفعا — به وكل من يحج أسمعا»(١)

فهذا القول الأخير هو الصحيح المعوّل عليه، حيث يفهم من الآية أنه مقام مخصوص، وذلك بالنظر إلى الأمر بالصلاة عنده؛ أما بالنظر إلى معناه اللغوي فإنه يصدق بجميع الأماكن التي قام عليها إبراهيم عليه السلام، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ظهر له ذلك جلياً.

ويؤيد صحة هذا القول الأخير: ما حدث جابر عن حجة النبي ﷺ قال: «لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾». وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ مرّ بالمقام ومعه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى؛ قال: أفلا نتخذه مصلّىً؟ قال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية». وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: «وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾...إلخ» الحديث. وعن جابر أنه قال: (استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين» قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل»(٢).

---

(١) المجالسي الموريتاني، حماد بن الأمين، تحفة الألباب شرح الأنساب، ج١، ص٥٩.
(٢) ج١، ص٣٩٢.

فالخلاصة: أن مقام إبراهيم عليه السلام هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء البيت الحرام لما ارتفع جداره، وكان إسماعيل يناوله الحجارة فيضعها بيده، وكلما كمل من ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، حتى انتهى إلى وجه البيت.

فالسنة: أن تكون الصلاة خلف المقام، بأن يكون المقام بين المصلي والكعبة، ولا يشترط مقابلة عينه ومحاذاته؛ لأن حجم المقام الذي هو الحجر صغير، نحو ذراع، لا يكفي أن يكون مصلى لشخص واحد؛ فمن صلى وراء المقام فقد أتى بالسنّة وإن لم يقف خلف الحجر بالتمام؛ لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه، فلو اشترطنا على المصلي مقابلة عين الحجر للزم أن يصلي الناس خلفه فرداً فرداً لصغره، وفي ذلك من الحرج والمشقة ما لا يخفى.

ولقد نزل المقام والركن مع أبينا آدم عليه السلام من الجنة وهما ياقوتتان من يواقيتها، فقد روى الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»[1].

ولقد كان من معجزات إبراهيم عليه السلام أن صار الحجر تحت قدميه رطباً فغاصت فيه قدماه، وقد بقي أثر قدميه ظاهراً فيه من ذلك العصر إلى يومنا هذا وإن تغير عن هيئته الأصلية بمسح الناس بأيديهم قبل وضع الحجر في المقصورة النحاسية، والعرب تعرف ذلك في جاهليتها، قال أبو طالب[2] في قصيدته اللامية المشهورة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢١٤)، والترمذي ح (٨٧٨)، وابن حبان في صحيحه ح (٣٧١٠)، والحاكم في المستدرك (١/٤٥٦). وضعفه ابن حجر في فتح الباري (٣/٤٦٢).

(٢) أبو طالب: هو عم النبي ﷺ، وله قصيدة لامية مشهورة، قالها حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وأول هذه القصيدة:

ولما رأيت القوم لا ودّ عندهم ... وقد قطعوا كل العرى والوصائل

المؤلف.

وثـور ومـن أرسـى ثبيـراً مكانـه — وراق لبـرّ فـي حـراء ونـازل

وبالبيـت حق البيـت من بطن مكة — وباللـه إن اللـه ليـس بغافـل

وبالحجـر المسـودّ إذ يمسـحونه — إذا اكتنفـوه بالضحـى والأصائـل

وموطئ إبراهيـم في الصخر رطبة — علـى قدميـه حافيـاً غيـر ناعـل

فيكون هذا الحجر المقام، والحجر الأسود أقدم أثر محترم لدى المسلمين بالاتفاق، إذ بيننا وبين إبراهيم ﷺ نحو أربعة آلاف سنة.

ومما هو جدير بالذكر والالتفات: أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجار، وبالأخص حجارة مكة والحرم، لم يسمع عنهم أن أحداً عبدالحجر الأسود، أو حجر المقام، مع عظيم احترامهم لهما ومحافظتهم عليهما.

ولقد تأملنا في سر ذلك وسببه، فظهر لنا أن ذلك من عظمة الله تعالى، فإنهما لو عبدا من دون الله في الجاهلية، ثم جاء الإسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود، والصلاة خلف المقام، لقال المنافقون وأعداء الدين، إن الإسلام أقر احترام بعض الأصنام، وأنه لم يخلص من شائبة الشرك، ولتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما من قبل.

فلهذا حفظ الله تعالى هذين الحجرين الكريمين من أيام إبراهيم ﷺ إلى يوم القيامة من عبادة أهل الجاهلية لهما، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضاً، ولا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا ينتبه لها كل أحد.[١]

---

(١) انظر تفصيل حكم الصلاة خلف المقام في المذاهب الأربعة في اللاحقة رقم ١١ (مقام إبراهيم ﷺ تشريعاً) في نهاية هذا الكتاب.

صفة المقام

كنا نعتقد أن مقام إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – الموجود في باطن الصندوق الخشبي والمغطى بستارة حريرية مكتوبة ومنقوشة، والذي يحيط بجوانبه الأربعة شباك من الحديد المضروب باللون الأخضر المقابل لباب الكعبة المعظمة – هو حجر كبير لا يمكن أن يحمله أقل من خمسة رجال تقريباً، وكنا نظن أن ما بقي من أثر قدمي خليل الله إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – شيء يسير بقدر ما يظهر أقدام الإنسان في الأرض الترابية، ولكن جاء الأمر بعكس ما كنا نعتقده ونظنه بعد مشاهدتنا له برؤية العين في اليوم السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمئة وسبع وستين هجرية، كما سنبين ذلك، وقبل أن نذكر كلامنا يجب أن نسوق عبارات المؤرخين فيه لموازنة عباراتنا بعباراتهم، ونسأل الله التوفيق والهداية إلى الصواب؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الإمام الأزرقي المتوفى في حدود الأربعين بعد المئتين من الهجرة [نحو ٨٥٤م] في كتابه القيم النفيس (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) في الجزء الثاني بصحيفة ٢٩ عند ذكر ذرع المقام ما نصه:

«قال أبو الوليد – يعني نفسه – وذرع المقام ذراع، والمقام مربع، سعة أعلاه أربعة عشر أصبعاً في أربعة عشر أصبعاً، ومن أسفله مثل ذلك، وفي طرفيه من أعلاه وأسفله طوقا ذهب، وما بين الطوقين من الحجر من المقام بارز بلا ذهب عليه، طوله من نواحيه كلها تسعة أصابع، وعرضه عشرة أصابع عرضاً في عشرة أصابع طولاً، وذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذي هو عليه اليوم من عمل أمير المؤمنين المتوكل على الله، وعرض حجر المقام من نواحيه واحد وعشرون إصبعاً، ووسطه مربع.

والقدمان داخلتان في الحجر سبعة أصابع ودخولهما منحرفتان، وبين القدمين من الحجر إصبعان، ووسطه قد استدق من التمسح به.

والمقام في حوض من ساج مربع حوله رصاص ملبس به، وعلى الحوض صفائح رصاص ملبس بها، ومن المقام في الحوض إصبعان، وعلى المقام صندوق ساج مسقوف، ومن وراء المقام ملبس[1] بساج في الأرض في طرفيه سلسلتان تدخلان في أسفل الصندوق، ويقفل فيهما قفلان»[2]. انتهى كلام الإمام الأزرقي في تاريخه المذكور.

وقال ابن جبير الأندلسي في رحلته - وكان قد حج سنة ثمان وسبعين وخمسمئة - ما نصه:

«وهذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم ﷺ، وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله، وأثر القدمين... وأثر الأصابع بيّن» ثم قال: «لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد، موضوعة إلى جانب قبة زمزم، فإذا كان في أشهر الحج وكثر الناس رفعت القبة الخشب، ووضعت قبة الحديد؛ لتكون أحمل للازدحام»[3]. انتهى كلام ابن جبير الأندلسي.

وروى التقي الفاسي في (شفاء الغرام) عن القاضي عز الدين بن جماعة أنه قال: «حررت لما كنت بمكة سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة [نحو ١٣٥٢م] مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان سبعة أثمان الذراع، وأعلى المقام مربع من كل جهة ثلاثة أرباع الذراع، وموضع غوص القدمين ملبس

---

(١) في النسخة المحققة بتحقيقي رشدي ملحس، وعبدالملك بن دهيش (ملبن) بدلاً من (ملبس).

(٢) أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج٢، ص٣٨.

(٣) اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف بـ رحلة ابن جبير، الطبعة الأولى، تقديم: إبراهيم شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٢م) ص٦٨، ٦٩.

بالفضة، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل بمصر»[1]. انتهى كلام ابن جماعة كما رواه الفاسي.

وقال الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة المتوفى في عصرنا في كتابه (تاريخ عمارة المسجد الحرام) بصحيفة ١٥١ ما نصه:

«وأما صفة حجر المقام ومقاسه فهو حجر رخو من نوع حجر الماء، ولم يكن من الحجر الصوان، وهو مربع على وجه الإجمال، ومساحته ذراع يد في ذراع يد طولاً وعرضاً وارتفاعاً أو نحو خمسين سنتيمتراً في مثلها طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وفي وسطه أثر قدمي إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي حفرتان على شكل بيضاوي مستطيل، قد حفرهما الناس بمسح الأيدي، ووضع ماء زمزم فيهما مرات عديدة فنتج من كثرة مرور الأيدي محو أثر القدمين واستبدل بموضعهما حفرتان، كما دلت على ذلك الروايات المتقدمة في أول الباب، وقد رأيت حجر المقام بعيني سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة وألف بصحبة المرحوم صاحب الفضيلة رئيس السدنة في تلك السنة الشيخ محمد صالح بن أحمد ابن محمد الشيبي فوجدته مصفحاً بالفضة، وهو موضوع على قاعدة، وشكله مربع كما وصفته، ولونه بين البياض والسواد والصفرة، ورأيت أثر القدمين»[2].

وهنا أذكر زيادة على ما تقدم ما ورد في أثر القدمين من الأخبار والروايات، فروى الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن ابن الجوزي أنه قال:

---

(١) ج١، ص٣٨٥. مع اختلاف بسيط في طريقة احتساب الذرع، وبعض العبارات لا يترتب عليه اختلاف في المعنى.

(٢) ص١٥١.

«وإنّ أثر قدميه يعني إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - في المقام كرقم الباني، ولم تزل آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام، معروفة عند أهل مكة حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... علـى قدميـه حافيـاً غيـر ناعـل

وفي موطأ ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. وأخرج الطبري في تفسيره، عن قتادة في هذه الآية ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ أنه قال: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه قال: ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها، فما زالوا يمسحونه حتى اخلولق وانمحى»[١]. انتهى كلام الشيخ حسين باسلامة في تاريخه المذكور.

هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون عن صفة مقام إبراهيم - عليه السلام - نقلناه بالحرف الواحد من غير أن نشرحه أو نعلق عليه بحاشية؛ اكتفاء بذكاء أولي العلم والمعرفة، واعتماداً على ما نوضحه من التفصيل التام، والبيان الدقيق، فنقول، وبالله التوفيق:

إننا - لما شرعنا في تأليف كتابنا هذا عن مقام إبراهيم - عليه السلام - وما كان أحد سبقنا إلى مثله[٢] من قبل - حصلت عندنا رغبة شديدة، وميل عظيم إلى مشاهدة المقام الكريم نفسه، فالتمسنا فتح مقصورة المقام لنا من حضرة صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير المعظم (سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل)، حفظه الله، فصدر أمر سموه الكريم بفتح مقصورة مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام-

---

(١) تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ص١٥٢.

(٢) انظر قسم الدراسة حول هذا الموضوع من هذا الكتاب.

الذي هو أمام الكعبة المشرفة لننظر إليه، ونكتب عنه الحقيقة بالتفصيل التام؛ خدمة للدين والعلم؛ ليعرف المسلمون حقيقة المقام الكريم الذي هو مستور عن أعينهم فنقول:

إنه في صباح يوم الأحد السابع والعشرين من شعبان سنة ألف وثلاثمئة وسبع وستين هجرية [١٩٤٨/٧/٤م] جاء إلى المسجد الحرام السادن الثاني لبيت الله المعظم صاحب السعادة الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ عبدالقادر الشيبي بصحبة ابنه الفاضل الشيخ عبدالعزيز لغسل الكعبة المشرفة حسب العادة، ولفتح مقام إبراهيم ﷺ لنا، فدخلنا أولاً بيت الله الحرام، وتشرفنا بغسل داخله بالزمزم بعطر، وكان معنا صاحب السعادة الشيخ محمد صالح قزاز ابن المرحوم عبدالرحمن قزاز مدير شؤون الحج، وحضرات الأفاضل الكرام السيد هاشم - نائب الحرم، رئيس مجلس إدارة الحرم - والشيخ عمر عبدالجبار - رئيس شرطة الحرم - والشيخ صالح باخطمة - رئيس القسم الإداري بالأمن العام - والسيد عبدالله ابن المرحوم السيد محمد علي الدباغ، والشيخ عبدالله بن الشيخ أحمد الباز، وبعض الخدمة الخاصة، ثم بعد انتهائنا من غسل الكعبة المعظمة توجّه بنا سادنها سعادة الشيخ عبدالله الشيبي المذكور إلى مقصورة مقام إبراهيم -ﷺ- ففتحها بحضور مندوب رياسة القضاء الشيخ عبدالعزيز العقيلي، وحضور الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ أمين ميرداد، وحضور الجماعة المذكورين، وحضور جمع غفير من أهل مكة والحجاج القادمين إليها.

وبعد تنظيف المقام من الأتربة والغبار دخلت أنا محمد طاهر الكردي المكي الخطاط، مؤلف هذا الكتاب إلى داخل الصندوق الذي فيه حجر مقام إبراهيم نفسه ﷺ؛ لإجراء البحث الدقيق عليه، ومكثت في داخل

الصندوق نحو ساعة ونصف، أي: تسعين دقيقة تقريباً، وحجر المقام الشريف بهيئته بين يديّ، ثم طلبت من صديقنا الشيخ عمر عبدالجبار المذكور أن يجلس بجانبي داخل الصندوق ليساعدني في مسك الأوراق، وضبط القياسات، فجلس بجواري ملتصقاً بي لضيق الصندوق، وقد جلس أمامنا جمع كثير، والذين ذكرنا أسماءهم يشاهدون أبحاثنا الدقيقة حول المقام الكريم.



صورة مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام
أخذناها بالفتوغراف يوم فتحها، ويظهر فيها سعادة الشيخ عبدالله الشيبي - سادن بيت الله الحرام رقم (١) - وابنه الشيخ عبدالعزيز الشيبي رقم (٣)، وبينهما مؤلف الكتاب محمد طاهر الكردي رقم (٢)، وبعض من حضر ذلك بالمسجد الحرام.

وإليكم بيان ذلك بالتفصيل التام، والتحقيق الكامل بتوفيق الله تعالى:

لقد وجدنا حجر مقام إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مثبتاً فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر بقدر قياس المقام الشريف نفسه طولاً وعرضاً. وأما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتيمتراً، وقد استمسك المقام بهذه القاعدة، بواسطة الفضة التي تحيط بالمقام نفسه مع جزء من هذه القاعدة، حتى صار المقام ثابتاً فيها ثبوتاً قوياً، بحيث لا يمكن تحريكه أبداً.

ثم إن هذه القاعدة الصغيرة ثابتة ثبوتاً محكماً جداً في وسط قاعدة كبيرة من الرخام المرمر أيضاً تشبه الدِّكَّة[1]، طول ضلعها من جميع الجهات متر واحد، وارتفاعها من الأرض ستة وثلاثون سنتيمتراً، ولون الرخامتين أبيض.

ويحيط بهذه القاعدة الكبيرة صندوق من الخشب كهيئة الهرم الرباعي ارتفاعه نحو القامة، ليس به منافذ مطلقاً سوى الباب الذي يرى منه المقام الكريم، وهو في الجهة الشرقية، وهذا الصندوق ملبس كله من الظاهر بصفائح الفضة، مكتوب عليه من الجهة الشرقية فقط ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم وبه الهداية - إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» كتبه الحافظ إسماعيل الزهدي أدرنوي خوجه، كتبه سنة ألف ومئتين وثمان وعشرين.

---

(١) (الدكة) بفتح الدال المشددة استعمال محلي يقصد بها المصطبة، وهي هنا القاعدة، والمكان المرتفع عن الأرض، أما بكسر الدال فهي قطعة قماش على قدر وسط المرء، ذكراً أو أنثى تستعمل قديماً لتثبيت السراويل وسط الجسم، وقد استبدل بها المطاط الذي يخاط في السراويل نفسه.

وباب الصندوق مصفح من الظاهر بالفضة أيضاً، وقد كتب عليه هذه العبارة:

«صاحب الخيرات والحسنات سلطان البرين وفاتح الحرمين الغازي السلطان محمود خان بن عبدالحميد خان - دام ملكه - سنة ألف ومئتين وثمان وعشرين هجرية».

والذي يظهر لنا من هذه العبارة: أن الذي أمر بتلبيس هذا الصندوق بصفائح الفضة هو السلطان محمود خان المذكور، وأما الصندوق من الداخل فهو خشب عادي بلونه الطبيعي لا أثر فيه لكتابة أو نقش.

وهذا الصندوق مغطى كله من قمته إلى الأرض بكسوة من الحرير، مكتوب فيها بعض آيات قرآنية، كتبها مؤلف هذا الكتاب، سنة ألف وثلاثمئة وثمان وأربعين [نحو ١٩٢٩م]، وصنعت بدار الكسوة بمكة المشرفة في السنة المذكورة، ومن هذه السنة إلى الآن لم تغير الكسوة؛ ثم يحيط بهذا الصندوق الشباك الحديد المضروب باللون الأخضر من الجهات الأربع.

أما مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فهو حجر، لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال، وهو حجر ليس بصوان[١].

---

(١) روى الإمام الأزرقي في الجزء الثاني من تاريخه صحيفة ٨٢ أن أمير المؤمنين المهدي حج سنة ستين ومئة فنزل دار الندوة، فجاء عبيد الله بن عثمان بن إبراهيم الحجبي بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار مشتملاً عليه، فقال للحاجب: ائذن لي على أمير المؤمنين، فإن معي شيئاً لم يدخل به على أحد قبله، وهو يسر أمير المؤمنين، فأدخله عليه، فكشف عن المقام فسر بذلك، وتمسح به، وسكب فيه ماء، ثم شربه، وقال له: اخرج، وأرسل إلى بعض أهله فشربوا منه، وتمسحوا به، ثم أدخل فاحتمله ورده إلى مكانه، وأمر له بجوائز عظيمة، وأقطعه خيفاً بنخلة يقال له: ذات القويع فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار. اهـ. المؤلف.

وأما حجم حجر المقام الكريم: فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمتراً، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة وثلاثون سنتيمتراً، وطول ضلعه الرابع ثمانية وثلاثون سنتيمتراً، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح مئة وستة وأربعين سنتيمتراً.

وأسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه من جهة القاعدة نحو: مئة وخمسين سنتيمتراً.

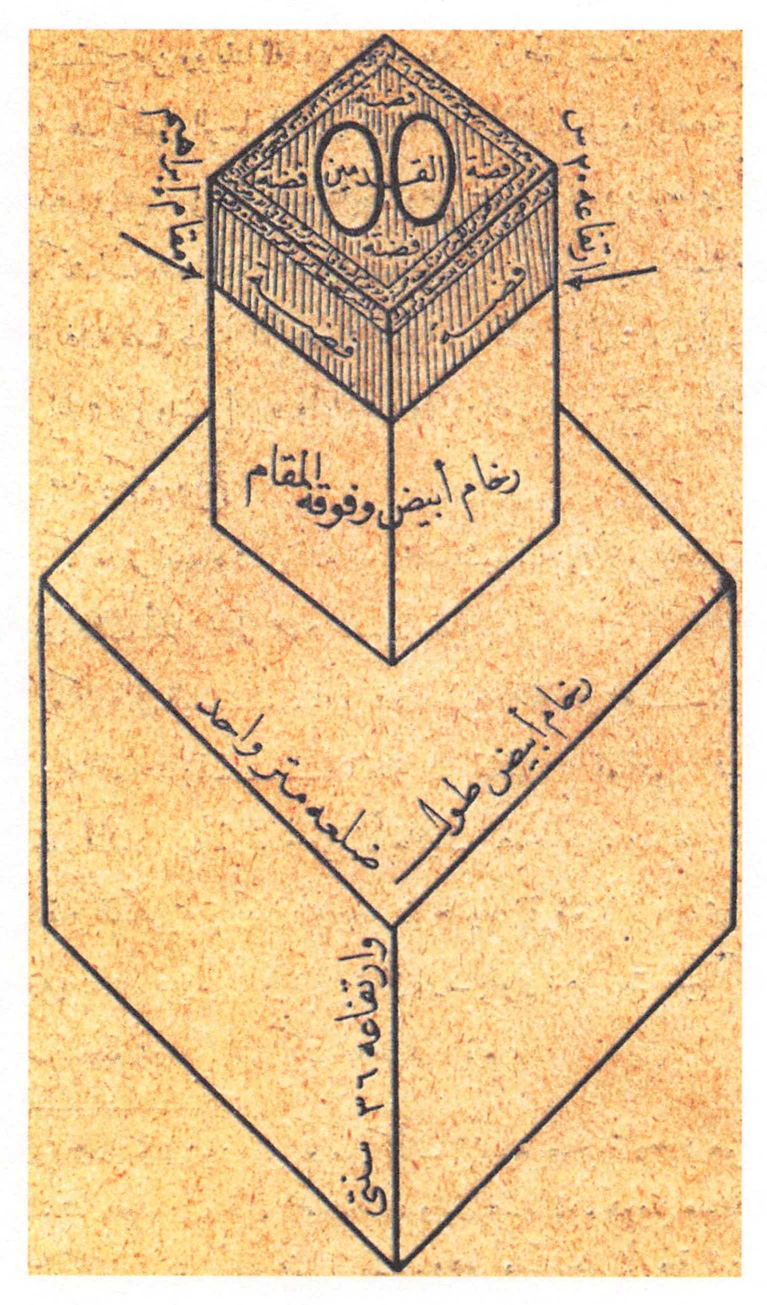
وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – مقداراً كبيراً إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين عشرة سنتيمترات، وعمق الثانية تسعة سنتيمترات، ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً، فقد انمحى من طول الزمن ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين: فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل، وحافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنهما، من كثرة مسح الناس بأيديهم.

وطول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة سبعة وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أربعة عشر سنتيمتراً، أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منهما اثنان وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمتراً.

وما بين القدمين فاصل مستدق نحو سنتيمتر واحد، وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما بسبب المسح أيضاً، ومع أنه قد مر على حجر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة، فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة بينة لم تتغير ولم تتبدل، وتبقى كذلك إلى يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾.

وحجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة، فلا تظهر حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين وجوانبهما، وإن باطنهما غير مستو، بل فيهما بعض نتوءات صغيرة، وقد كتب على الفضة حول القدمين من سطح المقام آية الكرسي بخط الثلث الواضح الجميل، وكتب عليها من الجوانب بخط الثلث أيضاً ما يأتي: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ثم كتب بعد ذلك: (أمر بتجديد صحيفة القدم الشريف ابتغاء لمرضاة الله تعالى، ومحبة لصاحبه مولانا السلطان مصطفى خان بن السلطان محمد خان دام عزه ونصره سنة ١١١٣ سنة ألف ومئة وثلاث عشرة) ويوجد على الفضة شيء من النقش، أما ما نزل من الفضة في حفرة القدمين، فليس عليه شيء من الكتابة ولا من النقش.

ولما كان المقام الشريف ملبساً كله بالفضة، وثابتاً ثبوتاً قوياً لا يتحرك لم يظهر لنا هل فيه شطب وكسر أم لا؟، ونحمد الله تعالى أن وفق سلاطين المسلمين وملوكهم للعناية والاهتمام بهذا المقام الإبراهيمي الشريف، ويحق للمسلمين والعرب أن يفخروا بهذا المقام الأثري القديم المقدس.



هذا رسم تقريبي لكنه إلى الحقيقة أقرب رسمناه بيدنا لحَجَر مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حسب مشاهدتنا له حينما فتح لنا المقام في ٢٧ شعبان ١٣٦٧ هجرية [١٩٤٨/٧/٤م]، والمقام الكريم كله محاط بالفضة من سطحه وجوانبه كما هو ظاهر في هذا الشكل وهو ملتصق بالرخامة التي تحته لا يمكن تحريكه

والذي نستنتج من رؤية القدمين الشريفتين أن طول سيدنا إبراهيم الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - هو كطول الرجل العادي في زماننا، لا بالطويل ولا بالقصير، ولذلك كان نبينا محمد يشبه جده إبراهيم، صلى الله وسلم عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين. فقد ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق عند وصف موسى وإبراهيم عليهما السلام صريح قول نبينا محمد ﷺ ضمن الأحاديث مراراً، [فمنها]: قال: «رأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به... إلخ»، [ومنها]: «وأنا أشبه ولد إبراهيم به...» إلخ، [ومنها]: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم...» إلخ.

ولقد ذكر بعض العلماء: أن قدم نبينا محمد يشبه قدم إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، وإلى ذلك أشار ناظم عمود النسب بقوله:

«وكلما طال البناء ارتفعا ... به المقام في الهوا ورفعا
به القواعد وفيه القدم ... تشبهها للهاشمي قدم»[١]

وهو حق لا شك فيه؛ لما تقدم من الأحاديث الصحيحة، ولما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم. وكان أبو جهم بن حذيفة القرشي[٢]، الذي حضر بناء الكعبة العظيمة مرتين: بناء قريش، وبناء ابن الزبير - يقول: ما رأيت شبهاً كشبه قدم النبي ﷺ بقدم إبراهيم التي كنا نجدها في المقام.

---

(١) المجالسي الموريتاني، حماد بن الأمين، تحفة الألباب شرح الأنساب، ج١، ص٢٩.

(٢) وترجمته كما في الجزء الرابع من كتاب الإصابة بصحيفة ٣٥: هو أبو جهم بن حذيفة بن غانم القرشي العدوي، قيل: اسمه عامر، وقيل: عبدالله، وهو من مسلمة الفتح، وهو أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب، وهو أيضاً أحد الأربعة الذين تولوا دفن عثمان، ولما أصيب عثمان أرادوا الصلاة عليه فمنعوا، فقال أبو جهم: دعوه فقد صلى الله عليه ورسوله، كان من معمري قريش ومن مشيختهم، حضر بناء الكعبة مرتين حين بنتها قريش، وحين بناها ابن الزبير، وروى ابن أخي الأصمعي في النوادر عن عمه عن عيسى بن عمر قال: وفد أبو جهم على معاوية ثم على يزيد ثم ذكر قصة له مع ابن الزبير، وثبت ذكره في الصحيحين من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «صلى النبي ﷺ في خميصة لها أعلام، فقال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي». انتهى من كتاب الإصابة. الخميصة قيل: هي كساء مربع من صوف، والأنبجانية هي بفتح الهمزة وكسرها، وبفتح الباء وكسرها، وبتشديد الياء وتخفيفها. المؤلف.

موضع المقام

اختلف العلماء في موضع المقام - فقد أخرج البيهقيّ في سننه عن عائشة رضي الله عنها «أن المقام كان في زمن رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب».

ونقل المحب الطبري عن الإمام مالك في المدونة أنه قال:

«كان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام في مكانه اليوم، وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل، فكان كذلك في عهد النبي ﷺ وأبي بكر، فلما ولي عمر رده...»[١].

وروى الأزرقي عن ابن أبي مليكة:

«أن موضع المقام الآن هو موضعه في الجاهلية، وفي عهد النبي ﷺ والخليفتين بعده، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر رضي الله عنه، فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده إلى مكانه بمحضر من الصحابة، رضي الله عنهم»[٢].

وروى السنجاري في كتابه (منائح الكرم) عن الإمام النووي أنه قال:

«هذا الموضع الذي فيه المقام اليوم هو الموضع الذي كان فيه في الجاهلية وفي زمن رسول الله ﷺ وبعده إلى عصرنا لم يتغير. إلا أنه جاء السيل زمن عمر رضي الله عنه - وذكر القصة - ثم قال:

---

(١) التكملة: «بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة، قيس بها حين أخروه...» الطبري، محب الدين، أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر المكي، القرى لقاصد أم القرى، ص٣٤٦.

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص٣٥.

وهو الآن في الموضع الذي كان فيه»[١].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري:

«وكان المقام من عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أن أخره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن». أخرجه عبدالرزاق بسند صحيح عن عطاء وغيره، وعن مجاهد أيضاً. وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: «كان المقام في صقع البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر، فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه».

قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا.

قال الحافظ ابن حجر – بعد ذكر ما تقدم: ولم ينكر الصحابة فعل عمر، ولا من جاء بعدهم فصار إجماعاً، وكان عمر رأى أن بقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين والمصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج وتهيأ له ذلك؛ لأنه الذي كان أشار باتخاذه مصلى.

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في تفسيره في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ما نصه:

«وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحِجر[٢] يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك؛ وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عند البناء فتركه هناك؛ ولهذا – والله أعلم– أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء

(١) ج١، ص٥١٧.

(٢) الحجر: بكسر الحاء وسكون الجيم هو حجر إسماعيل عليه السلام، وقوله يمنة الداخل من الباب أي من باب الكعبة. المؤلف.

الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين»[١].

وجاء في تفسير ابن كثير أيضاً في سورة النساء عند آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٢] أن ابن مردويه روى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في هذه الآية «أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وأخذ من عثمان بن أبي طلحة مفتاح الكعبة وفتح بابها، وغمس بالماء التماثيل التي كانت فيها أخرج مقام إبراهيم وكان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة، ثم قال: يا أيها الناس هذه القبلة...» إلخ، والرواية مذكورة بكاملها في المجلد الثاني من التفسير بصحيفة[٣] ٤٩٢ فليراجعه من شاء، فإننا نقلنا منه هذه الجملة بصورة مختصرة لنستشهد بأن المقام كان في الكعبة.

«وذكر العمري[٤] في (مسالك الأبصار) «أن موضع المقام كان موضع الخلوق[٥]»، أي: الحفرة الملاصقة للكعبة، ثم قال: وصلى ﷺ عنده حين فرغ من طوافه ركعتين، وأنزل الله تعالى عليه ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن، وذلك على عشرين

---

(١) باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٤٤.

(٢) الآية رقم ٥٨.

(٣) ج٢، ص٩٥٤.

(٤) هو ابن فضل الله العمري المتوفى سنة تسع وأربعين وسبعمئة. المؤلف.

(٥) الخلوق: بفتح الخاء: ضرب من الطيب. قال بعض الفقهاء: وهو مائع فيه صفرة. قاله في المصباح المنير، ويفهم من رواية العمري أنهم كانوا يضعون طيب الكعبة في الحفرة التي عندها. والله تعالى أعلم، فإنه علام الغيوب. المؤلف.

ذراعاً من الكعبة...» إلخ.[١] وذكر ابن سراقة ما نصه: «أن مابين الباب يعني: باب الكعبة ومصلى آدم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – حين فرغ من طوافه، وأنزل الله عليه التوبة أرجح من تسعة أذرع، وهناك كان موضع مقام إبراهيم، وصلى النبي ﷺ حين فرغ من طوافه ركعتين، وأنزل عليه ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن؛ وذلك على عشرين ذراعاً من الكعبة؛ لئلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه، ثم ذهب به السيل في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أسفل مكة فأتى به، وأمر عمر برده إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ...». اهـ من تاريخ عمارة المسجد الحرام.[٢]

أرجح الأقوال في موضع المقام

لقد ذكرنا هذه الأقوال المتقدمة في موضع المقام بنصها ولفظها من غير تعليق عليها، ثم رأينا أن نأتي هنا بأرجح الأقوال على رأينا وما نميل إليه، فنقول، وبالله العون والتوفيق:

إذا لاحظت ما تقدم عن حدّ المسجد الحرام قديماً، وأن مكان البيت كان ربوة مرتفعة عن الأرض ذات الرمال والحصى، وأن إبراهيم عليه السلام ما بنى الكعبة بالطين ولا بالجص، وإنما رضمها رضماً، ولم يسقفها، وتصورت أن أهل الجاهلية كانوا يجلسون في ظل الكعبة، ويقعدون حولها يتذاكرون شؤونهم العامة، وأنه لم يكن حينئذ للمسجد الحرام على صغره سور ولا حائط حتى بنى عليه عمر بن الخطاب جداراً قصيراً بعد أن زاد فيه ووسعه.

ظهر لك أن أرجح الأقوال المتقدمة وأقربها إلى الصواب هو ما رواه البيهقي في سننه من أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر ملصقاً

(١) باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ص١٤٦.

(٢) باسلامة، حسين عبدالله، ص١٤٧.

بالبيت حتى أخره عمر بن الخطاب، وما ذكره أيضاً ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بأن المقام كان في عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أن أخره عمر إلى المكان الذي هو فيه الآن، وما قاله أيضاً ابن كثير في تفسيره بأن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحِجر، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، وأنه أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه... إلخ كلامه المتقدم، وهو كلام حسن جيد جداً، وما ذكره ابن كثير أيضاً في تفسيره من رواية ابن مردويه أن مقام إبراهيم كان في الكعبة فأخرجه رسول الله ﷺ فألزقه في حائط الكعبة يوم فتح مكة.

ولقد رجحنا هذه الأقوال الأربعة مما تقدم؛ لأن المعقول أن إبراهيم عليه السلام لابد أن يضع الحجر الذي قام عليه في بناء البيت الحرام بلزقه وجواره، لا أن يضعه بعيداً عن البيت حيثما اتفق، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة ومقامه الذي كان يقوم عليه، وأيضاً لابد أن الله تعالى أمره بحفظه وعدم التفريط فيه، حيث يأتي في آخر الزمان خاتم النبيين محمد ﷺ فيؤمر هو وأمته بالصلاة عنده وقبلتهم البيت المعظم. ويؤيد كلامنا هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الأزرقي «أن إبراهيم عليه السلام قام على المقام حينما أذن في الناس بالحج، فلما فرغ من التأذين أمر المقام فوضعه قبلة فكان يصلي إليه مستقبل الباب، ثم كان إسماعيل بعد يصلي إليه إلى باب الكعبة...» إلخ.

فلدى المتأمل في هذه النقطة يظهر جلياً أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الذي قام عليه لبناء الكعبة بلصقها، ولا يبعده عنها بمسافة أذرع مخصوصة إلا لسبب وأي سبب لذلك في أيامه، وأيضاً أهل الجاهلية كانوا ألصقوا المقام بالبيت خيفة السيل، بل وضعوه في جوف الكعبة حتى أخرجه رسول الله ﷺ منها فألزقه في حائطها كما تقدم بيان ذلك، فما الذي يدعو أهل الجاهلية إلى إبعاد ذلك الحجر الأثري المحترم عن الكعبة، ووضعه في هذا المحل الذي هو عليه الآن كما في رواية السنجاري المتقدمة، ولا أحد

منهم يتعبد عنده، بل لو أبعدوه عن البيت لكان المعنى أنهم لم يعتبروه ولم يحترموه، حيث رموه في آخر ساحته عند أبواب بيوتهم المحيطة بالبيت، وكيف يقع ذلك منهم وهم الذين يعتقدون أنه ذلك الحجر المقدس الذي عليه أثر قدمي إبراهيم عليه السلام؟ وقد قال أبو طالب فيه وفي الحجر الأسود:

وبالحجـر المسـودّ إذ يمسـحونه ... إذا اكتنفـوه بالضحـى والأصائـل

وموطئ إبراهيـم في الصخر رطبة ... علـى قدميـه حافيـاً غيـر ناعـل

فلما جاء الإسلام أكد احترامهما، وجعل لهما مغزى خاصاً، ورمزاً تعبدياً، وإن كان الحجر الأسود أعظم حرمة من المقام، فإنه يمين الله في الأرض، وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بالحق، كما ورد ذلك. وقد تقدم أن الحجر الأسود والمقام هما من ياقوت الجنة، وفي الأزرقي عن مجاهد أنه قال: «يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة». اهـ.

فيكون الحجر الأسود والمقام من أقدم الأحجار الأثرية الدينية المحترمة، حيث مر عليهما آلاف السنين والأعوام، وسيبقيان في موضعهما بإذن الله حتى قيام الساعة، ففي الأزرقي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من استلام هذا الحجر فإنكم توشِكون[1] أن تفقدوه، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة»[2].

وفي الأزرقي أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة».

---

(١) توشكون بكسر الشين المعجمة، أما فتحها فلغة رديئة. اهـ من مختار الصحاح. المؤلف.

(٢) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ح(٥٠٢)، والديلمي في الفردوس ح (٢١٦). وإسناده ضعيف؛ لضعف زهير بن محمد.

وضع المقام في مكانه الحالي

كان وضع مقام إبراهيم عليه السلام في مكانه الذي هو فيه الآن من عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أنه جاء سيل أم نهشل[١] في خلافته سنة سبع عشرة من الهجرة [نحو ٦٣٨م] إلى مكة من أعلاها، فدخل المسجد الحرام، وكان سيلاً عظيماً، بحيث اقتلع المقام من موضعه وذهب به، فلما جف الماء وجدوه بأسفل مكة، فأُتي به وألصق في وجه الكعبة وربط بأستارها، وكان عمر يومئذ بالمدينة، فلما بلغه ذلك هاله الأمر، وركب من ساعته فزعاً إلى مكة، فدخلها بعمرة في رمضان من السنة المذكورة، فلما دخل المسجد الحرام ووقف على حجر المقام قال: أنشد الله[٢] عبداً عنده علم في هذا المقام. فقال المطلب[٣] بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك، فقد كنت أخشى عليه من هذا الأمر، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن، ومن موضعه إلى

---

(١) سمي السيل بسيل أم نهشل، لأنه ذهب بأم نهشل بنت عبيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس فوجدوها ميتة بأسفل مكة (وفي زمن) مؤلف هذا الكتاب في يوم الأربعاء سادس ربيع الأول سنة ألف وثلاثمئة وستين من الهجرة أمطرت السماء مطراً غزيراً بمكة، من صباح اليوم المذكور إلى قرب وقت العصر وسال منه وادي إبراهيم سيلاً عظيماً، بشكل لم يسبق له نظير من مدة، حتى امتلأ المسجد الحرام من الماء بحيث وصل إلى قرب باب الكعبة وصار المسجد كالبحر الخضم، لأنه عظيم متسع جداً، وقد تهدم بعض البيوت وجرف السيل معه كثيراً من أمتعة الناس، وخرب كثيراً من المقابر، وذهب برجل واحد فوجدوه ميتاً بالمسفلة. وقد رأى مؤلف هذا الكتاب كل ذلك، حيث كان وقتئذ بمكة المشرفة، وقد جاء في آخر تاريخ الأزرقي بين السيول التي جرت بمكة فليراجعه من شاء. المؤلف.

(٢) نشد الضالة: بالفتح ينشدها بالضم من باب قتل، أي: طلبها، وأنشدها بالألف أي: عرّفها، ونشده من باب نصر: قال له نشدتك الله وبالله: ذكرتك به واستعطفتك، أو سألتك به مقسماً عليك وأنشدت الشعر إنشاداً. اهـ. مختصراً من مختار الصحاح، والمصباح المنير. المؤلف.

(٣) هو صحابي جليل روى عن النبي ﷺ بعض أحاديث، وذكره ابن سعيد في مسلمة الفتح، وقال الواقدي: نزل المدينة وله بها دار وبقي دهراً. اهـ. ملخصاً من الإصابة في تمييز الصحابة. المؤلف.

باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط[1] وهو عندي بالبيت، فقال له عمر: فاجلس عندي[2]، وأرسل إليها، فأتى بها فمدها، فوجدها مستوية إلى موضعه هذا، فسأل الناس وشاورهم، فقالوا: نعم هذا موضعه، فلما استثبت ذلك عمر رضي الله عنه أمر به، فأعلم ببناء تحت المقام، ثم وضعه، فهو في مكانه هذا إلى اليوم. اهـ من الأزرقي باختصار.

فيفهم من هذه الرواية: أن المقام كان في موضعه الآن قبل سيل أم نهشل، وعمر رضي الله عنه ما وضعه إلا موضعه الأول، وهذا يوافق قول ابن أبي مليكة، وقول العمري، وقول ابن سراقة؛ وقد تقدمت أقوالهم – وسواء أكان المقام قبل السيل في مكانه الآن أم لا؟ فقد وضعه أحد الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد السيل المذكور في المكان الذي هو فيه الآن، بعد مشاورة الصحابة – رضي الله عنهم – وإجماعهم على موافقته، فنحن مأمورون باتباعهم والتمسك بطريقتهم.

ولئن كان عمر أخر المقام إلى هذا المكان الذي هو فيه الآن مخافة التضييق على الطائفين والمصلين – كما ذكره ابن حجر العسقلاني في قوله المتقدم – لقد أصاب عمر عين الحق، ووفق أعظم توفيق، وهذا يعدّ من مناقبه العظمى، فلو لم يؤخر المقام إلى موضعه هذا فكيف كان اليوم حال الطائفين مع المصلين وراء المقام وهو بجوار الكعبة؟ ولو كان عمر في زماننا، ورأى هذا الازدحام العظيم في المطاف، والمسجد الحرام على اتساعه الكبير يموج بآلاف الحجاج موج البحر، لأمر بتأخير المقام إلى أبعد من ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) المقاط: بالكسر حبل مثل القماط فهو مقلوب منه، والقماط: حبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح، وكذا ما يشد به الصبي في المهد. اهـ من مختار الصحاح. المؤلف.

(٢) أمره عمر بالجلوس عنده زيادة في الاحتياط والتثبت، ولأن ذلك أدعى للتصديق ونفي الشبهة، وإن كان المطلب بن أبي وداعة لا يتهم في كلامه. المؤلف.

والحقيقة أن فضائل عمر رضي الله عنه لا تعدّ، ومناقبه لا تحصى، ومن الذي يحصي مناقب رجل ينزل القرآن وفق رأيه حتى هنا في اتخاذ المقام مصلى. وكفاه شرفاً قوله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[٢]، ومعنى جعل هنا: أجرى؛ فجزاه الله وجميع صحابة رسول الله ﷺ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ووفقنا لاتباعهم، وحشرنا في زمرتهم آمين.

---

(١) رواه الشيخان في صحيحيهما، ومعنى محدثون ملهمون، وهو بفتح الدال المشددة. المؤلف.

(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما. ولقد جمع بعضهم موافقات عمر رضي الله عنه في منظومة أولها:

الحمد لله وصلى الله	على نبيه الذي اجتباه
يا سائلي والحادثات تكثر	عن الذي وافق فيه عمر
وما يرى أنزل في الكتاب	موافقاً لرأيه الصواب

المؤلف.

زيادة عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام

لما انتهى عمر بن الخطاب من أمر المقام رأى المسجد الحرام لا يسع الناس لكثرة المصلين، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد، وأدخلها فيه، وأحاط عليه جداراً ارتفاعه دون القامة، وجعل فيه أبواباً يدخل الناس منه، لكنه لم يسقفه، وإنما سقفه عبدالله بن الزبير لما زاد في المسجد، ولم يعرف مقدار ما سقفه كله أم بعضه؟ ثم إن عبدالملك بن مروان رفع جدرانه، وعمره عمارة حسنة من غير أن يزيد فيه شيئاً. ومن أراد الاطلاع على ما وقع من الزيادات في المسجد الحرام، فليراجع كتب التاريخ (وانظر في الرسم الموجود بصحيفة ٩١ لبيان الزيادات في المسجد)، فيكون عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من وسع المسجد الحرام، وأول من أحاطه بالجدار، وأول من عمل الردم لمنع السيول عنه، كما سيأتي بيانه، وأول من صلى خلف المقام بعد وضعه في محله، كما قاله السيوطي في الأوائل[١]، وأول من حصَّب أرضية المسجد الحرام، أي فرشه بالحصباء، وقد كان أول بدئه بالمسجد النبوي، فقد ورد عن ابن عمر أنه سئل عن ذلك فقال: مطرنا ليلة فخرجنا لصلاة الغداة، فجعل الرجل منا يحمل في ردائه من الحصباء فيفرشه على البطحاء ويصلي عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: ما أحسن هذا البساط! ثم أمر عمر بن الخطاب في خلافته بتحصيبه من وادي العقيق. وقيل: إن عثمان رضي الله عنه أول من اتخذ

---

(١) لكن روى الأزرقي أن عبدالله بن السائب العابدي وكان يصلي بأهل مكة قال: أنا أول من صلى خلف المقام حين رد في موضعه هذا ثم دخل عمر وأنا في الصلاة فصلى خلفي صلاة المغرب، فلما قضى صلاته قال عمر أحسنت. ولم يصل عمر بالناس صلاة المغرب؛ لأنه كان يشتكي رأسه وكان نازلاً بمكة في دار ابن سباع. ذكره الأزرقي في تاريخه. المؤلف.

الأروقة للمسجد حين وسّعه، قال صاحب تاريخ المسجد الحرام ناقلاً عن كتاب ابن فهد المسمى (إتحاف الورى): إنه في سنة ثلاثين وثماني مئة [نحو ١٤٢٦م] حرثوا المسجد الحرام بالبقر، ثم جعلوا فيه الحصباء، وقال أيضاً ناقلاً عن السنجاري، وهو نقل عن العلامة المرشدي: إن مماشي المسجد الحرام الأربع مع الفرش الذي خلف مقام الحنفي، والذي في جانبيه مع الذي تجاه المنبر، كل ذلك محدث بعد أن فرش المطاف بالمرمر، وذلك سنة ثلاث وألف، فإنهم كانوا كلما قلعوا شيئاً من المطاف جعلوه في هذه الأماكن، وقال أيضاً ناقلاً عن كتاب (تحصيل المرام): إنهم أصلحوا المماشي، وزيد في ممشى باب الصفا، وأحدث ممشى باب علي، وأصلحوا بعض أعمدة الحرم المائلة، وعملوا دكة عند باب الزيادة، وطبطبوا ظاهرها، كل هذا كان بأمر السلطان عبدالمجيد خان، وذلك سنة ألف ومئتين وسبع وخمسين [نحو ١٨٤١م] اهـ والله تعالى أعلم.[١]

ومن اللطائف: أن رجلاً سأل عمر بن القيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو خفه أو جبهته من حصى المسجد؟ فقال: ارم بها، قال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد، فقال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها، فقال الرجل: سبحان الله، ولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟.

ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأعلى مكة جهة المدّعى

رأى عمر بعد فراغه من أمر المقام أن المسجد الحرام وما حوله عرضة لخطر السيول، وأنه لابدّ من وضع حاجز في وجه الماء يمنع دخوله، فعمل في هذه السنة أيضاً الردم بأعلى مكة من جهة المدّعى، وبناه بالضفائر[٢] والصخور العظام وكبسه بالتراب والأحجار، فلم

(١) انظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ص٢٧٢.

(٢) الضفيرة: الحائط يبنى في وجه الماء. قاله في المصباح المنير. المؤلف.

يعله منها شيء، كما ذكره أبو الوليد عن جده. وفي سنة اثنتين ومئتين [نحو ٨١٧م] جاء سيل ابن حنظلة فكشف عن بعض أحجار ردم عمر، وشوهدت فيه صخار عظيمة، حتى قال بعضهم: ورأينا فيه صخراً ما رأينا مثله، وكان هذا السيل في خلافة المأمون، وعلى مكة يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي، فسمي السيل سيل ابن حنظلة، وكان سيلاً عظيماً أحاط بالكعبة، وبلغ دون الركن بذراع.

فانظر – رحمك الله – إلى قوة ردم عمر رضي الله عنه، ومكثه مائتي سنة لا تعلوه السيول ولا تخربه، مع أنه كبسه بالتراب والأحجار، لا بالجصّ والنورة، ولا بالأسْمنت والبلاط[1] ولا بناه بالآلات الفنية والمقاييس المبتكرة الحديثة، وإنما بناه بإخلاص النية والتقوى على أيدي عمّال خير القرون، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) البلاط: بفتح الباء معروف، أما الأسمنت فلم يكن ظهوره إلا في عصرنا، ويسمونه النورة الإفرنجية؛ لأنه من مخترعات الإفرنج وهو أنعم من الدقيق، وإذا عجنت به الحجارة والحصى ثم وضعت في قالب فإنه يكون هذا الخليط صلباً شديداً متماسكاً مثل الحديد. المؤلف.

تطويق الحجر الأسود بالذهب والفضة

أول من طوّق الحجر الأسود بالفضة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه[1]. وسببه: أن الكعبة احترقت في أيامه، فاحترق الركن الأسود معها، وانصدع ثلاث فرق، فشده ابن الزبير بالفضة. روى أبو عون عن أبيه قال: رأيت الحجر قد انفلق واسود من الحريق فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة، قال ابن جريج: فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر، قال بعضهم: هو مورد، وقال بعضهم: هو أبيض، ثم في سنة ألف ومئتين وثمان وستين هجرية [نحو ١٨٥١م] طوّقه بالذهب السلطان عبدالمجيد خان، وهي أول مرة طوق الحجر الأسود بالذهب، ثم في سنة ألف ومئتين وإحدى وثمانين طوقه بالفضة السلطان عبدالعزيز خان، ثم في سنة ألف وثلاثمئة وإحدى وثلاثين [نحو ١٩١٢م] غيرت تلك الفضة بالفضة التي هي عليه الآن، وذلك في زمن السلطان محمد رشاد خان، رحمه الله تعالى، ثم جرى إصلاح في طوق الحج، وذلك سنة ألف وثلاثمئة وست وستين هجرية [نحو ١٩٤٦م]، وإليك صورة الحجر الأسود وهو مطوّق بالفضة، وهو عدة قطع كما هو ظاهر في الرسم:

(١) بويع له بمكة سنة أربع وستين هجرية، وقتل بها سنة ثلاث وسبعين. المؤلف.



هذه صورة الحجر الأسود أخذت منذ أربعين سنة تقريباً، وقد تكسر لاعتداء بعض المجرمين عليه عدة مرات، كما جاء ذلك في التواريخ، وقد ظهر منه في هذه الصورة خمس عشرة قطعة، ولكنِ الذي هو ظاهر منه في أيامنا هذا قطع قليلة، وسببه: اعتداء بعضهم عليه في عصرنا الحاضر أيضاً فيتطاير منه شظايا عندئذ. ثم يجمع ما تكسر ويخلط ببعض الأجزاء من نحو الشمع ويعاد إلى موضعه، بعد أن يلقى المعتدي الجزاء الصارم. لهذا أحيط هذا الحجر الكريم بالفضة صوناً له، ولم يترك منه إلا بعض قطع صغار يقبله الناس. على أن الحجر الأسود نفسه كله داخل في بناء الكعبة المشرفة



صورة المؤلف واضعاً يده على الطوق الفضي المحيط بالحجر الأسود

تطويق المقام بالذهب والفضة

أول من طوق مقام إبراهيم – عليه السلام – أي الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت الحرام بالذهب – أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي، وذلك سنة مئة وإحدى وستين [نحو ٧٧٧م]، فإنه لما بلغه أن المقام قد مرّ عليه زمان طويل، ويخشى عليه أن يتفتت أو يتداعى بعث بألف دينار فضبّبوه بها، ثم في سنة مئة وتسع وسبعين [٧٩٥م] رأى هارون الرشيد أن الفضة التي ضبّب بها الحجر تخلخلت، فأمر بضبطه وإصلاحه، فثقب الحجر بالماس وسكب فيه فضة، ثم إن أمير المؤمنين جعفر المتوكل أمر أن يجعل فوق ذلك الذهب ذهباً أحسن منه، فضبّبوه به وأحكموا شده وضبطه، وذلك سنة ست وثلاثين ومئتين [نحو٨٥٠م]، ثم إن الحجبة سدنة البيت الحرام ذكروا لعامل مكة علي بن الحسن العباسي أن المقام تسللت أحجاره ويخشى عليه، فأمر أن يعمل له طوقان: طوق من ذهب، وطوق من فضة، وذلك في المحرم سنة ست وخمسين ومئتين [نحو ٨٦٩م] فأحضر المقام إلى دار الإمارة، وأذيبت له العقاقير بالزئبق وشد بها شداً جيداً، حتى التصق، وكان قبل ذلك سبع قطع، وكان الذي شده بيده في السنة المذكورة بشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسي، ثم حمل المقام بعد تركيب الطوقين عليه، ولصقه وشده إلى موضعه، وكان ذلك يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ست وخمسين ومئتين. قال الفاسي: وهذا ملخص ما ذكره الفاكهي[1]، وروى صاحب كتاب (إتحاف فضلاء الزمن): أن إبراهيم بيك عمّر المقام وجدّد ما كان

---

(١) ذكره صاحب تاريخ عمارة المسجد الحرام. المؤلف.

محتوياً على موضع قدم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالفضة المطلية بالذهب، وصبَّ الرصاص بين الفضة والحجر، حتى أحكموا الفضة، وشدوا أحجار المقام، وذلك سنة ألف ومئتين واثنتي عشرة هجرية[١] [نحو ١٧٩٧م].

(١) انظر: ابن فهد، عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٢، ص٣٠٢، ٣٣٣.

وضع المقام في مقصورة

كان المقام في أرض المطاف من أيام إبراهيم عليه السلام إلى ما بعد الإسلام معرضاً للتلف من تأثير السيول والأمطار والمس واللمس[1]، فلابد بمرور هذه الأحقاب الطويلة والعصور البعيدة أن تضعف قوة صلابته، فيصبح رخواً قابلاً للتفتت والتلف، خصوصاً وقد أظهر الإسلام فضله، وازدحم الناس لاستلامه، وإن لم يؤمروا بذلك ما لم يحفظ في مكان لا تصل إليه الأيدي؛ لذلك عملت له مقصورة، عليها قبة ووضعت فوق المقام فبذلك صار في حرز مكين مأمون العاقبة. ولقد كان حجر المقام موضوعاً على كرسي ملبّس بصفائح الرصاص، ثم في سنة إحدى وأربعين ومئتين أمر أمير المؤمنين محمد المستنصر بالله بأن تبدل صفائح الرصاص صفائح فضة، كما ذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه (أخبار مكة).

ولم يعرف بالضبط أول من وضع له تابوتاً، غير أنه قيل: إن أقرب وقت صنع فيه ذلك سنة عشر وثماني مئة [نحو ١٤٠٧م]؛ بمعنى أنه صنعت للمقام مقصورة ثابتة لا تنتقل ولا تتحرك، وإلا فقد كانت للمقام قبة قبل هذا التاريخ، فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته – وقد حج سنة خمسمئة وثمانية وسبعين للهجرة [نحو ١١٨٢م] صفة المقام، ثم قال: لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد، موضوعة إلى جانب زمزم، فإذا جاءت أشهر الحج وكثرت الناس رفعت القبة الخشب، ووضعت القبة الحديد. اهـ.

---

(١) المس واللمس: تقريباً بمعنى واحد إلا أن الفقهاء قالوا: المس لا يكون إلا بباطن الكف بخلاف اللمس فإنه يكون بأي جزء من البدن. المؤلف.

ثم إننا رأينا على أحد أعمدة المقام كتابة تدل على تجديد عمارته سنة ثمان وخمسين وثماني مئة [نحو ١٤٥٤م]، وذكر ابن فهد في تاريخه: أنه في سنة ثمان وعشرين وسبعمئة عمر ابن هلال الدولة الشبابيك الحديد المطيفة بالمقام اهـ، ثم تجدد سقف المقام وقبته سنة تسعمئة [نحو ١٤٩٤م]، ثم تجدد تعمير المقام سنة تسعمئة وخمس عشرة [نحو ١٥٠٩م]، وقام بتعميره محمد بن عبدالله الرومي بأمر الملك الأشرف قانصوه الغوري، ثم تجدد تعمير المقام بأمر الملك سليمان خان ابن السلطان سليم خان، كما هو مكتوب في أعلى المقام المواجه لباب الكعبة، والملك سليمان هذا هو الذي أهدى للمسجد الحرام المنبر الرخام الموجود به الآن، ثم تجدد تعميره سنة إحدى وألف [نحو ١٥٩٢م]، ثم تجدد تعميره بأمر السلطان مراد بن أحمد خان سنة ألف وتسع وأربعين، ثم إن الأغا محمد كزلار السلطان محمد بن إبراهيم خان أنفق على نقش قبته بالذهب والألوان، وذلك سنة ألف واثنتين وسبعين [نحو ١٦٦١م]، ولما حصل خلل في رفرف المقام جدده محمد بيك سنة ألف وتسع وتسعين، ثم إبراهيم بيك قام بتعمير جميع المقام، وبنى أرضه بالرخام، وغير القبة ونقشها بالذهب، وشد حجر المقام وأحكمه بالفضة، وجدد موضع قدم إبراهيم عليه السلام بالفضة المطلية بالذهب، وذلك سنة ألف ومئة واثنتي عشرة [نحو ١٧٠٠م]، ثم إن محمد أفندي المعمار غير صندوق حجر المقام وأبدله خشباً، وجلا صفائحه الأولى، ثم أعاده، وذلك سنة ألف ومئة وثلاث وثلاثين [نحو ١٧٢٠م]، ثم إن السلطان عبدالعزيز العثماني زاد في ارتفاع قبة المقام نحو ذراع ونصف، وأمر بترميم المسجد الحرام، وذلك سنة ألف ومئتين وتسع وسبعين [نحو ١٨٦٢م]، ولا ندري أعمل فيه أحد بعده شيئاً أم لا؟.

جاء في هامش تاريخ الأزرقي المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المشرفة سنة ١٣٥٧هـ [نحو ١٩٣٨م] في الجزء الثاني عند ذكر المقام ما نصه:

«وفي سنة ألف ومئتين وخمس وعشرين للهجرة حج سعود بن عبدالعزيز الحجة السابعة، قال ابن بشر: وفي تلك الحجة كشف سعود القبة التي فوق صخرة مقام إبراهيم، وصارت الصخرة والقدمان بارزتين، ورآها الناس من أهل مكة وغيرهم، ورأيتها وهي صخرة بيضاء مربعة، طولها نحو الذراع، وعليها سبيكة صفراء، لا أدري أذهب أم صفر[1] مستديرة بالصخرة، مكتوب بالسبيكة: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)، وعلى القدمين الشريفين تراب، ولا رأيت ما حواليهما، وبين السبيكة ورأس الصخرة التي فيها القدمان نحو أربع أصابع. اهـ باللفظ من هامش تاريخ الأزرقي.

وفي زماننا هذا – ونحن في القرن الرابع عشر للهجرة – المقام موجود داخل تابوت خشبي، عليه ستارة من الحرير، مكتوب فيها آيات قرآنية، ويحيط بالتابوت شبابيك نحاسية مثبت على أربعة أعمدة بغاية الضبط والإحكام، وعلى السقف قبة صغيرة ظريفة.

ولا ندري من بنى هذه المقصورة بشكلها الحاضر أهي من تعميرات إبراهيم بك التي أجراها سنة ألف ومئة واثنتي عشرة، أم من إصلاحات السلطان عبدالعزيز من سلاطين آل عثمان في زيادة ارتفاع قبة المقام كما ذكرناه؟ أم بنيت فيما بعد ذلك، والظاهر أن سعود بن عبدالعزيز المتقدم ذكره حينما كشف قبة المقام سنة ١٢٢٥هـ [نحو ١٨١٠م] لم يهدم مقصورة المقام كلها ولم يتعرض للشبابيك الحديدية، وإنما أزال القبة وسقف المقام، ورفع الستارة والتابوت الخشبي الذي فوق حجر المقام فقط، كما يعلم ذلك لدى التأمل، والله تعالى أعلم.

---

(١) الصفر بضم الصاد وكسرها: النحاس، قاله في المصباح المنير. المؤلف.

كسوة المقام

أما وضع الكسوة على المقام فالذي يظهر أنه من اختراع دولة آل عثمان، فقد كان من عادة سلاطينهم أن يكسوا مقام إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – الذي هو بجوار الكعبة بكسوة سوداء مطرزة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب، على شكل ستارة باب الكعبة المعظمة، وتوضع هذه الكسوة على التابوت الخشبي الذي هو داخل الشباك الحديد فوق حجر المقام، وكانت هذه الكسوة تأتي سنوياً مع كسوة الكعبة من مصر زمن الدولة العثمانية، وأحياناً كانت تأتي كسوة المقام في كل خمس سنين مرة، ثم انقطعت كسوة المقام عدة سنوات إلى اليوم، والكسوة التي على المقام الآن هي قديمة، لها أكثر من سبع عشرة سنة.

والحقيقة أن وضع كسوة فوق المقام تحجب الحجر المكرم بدعة منكرة ما فعلتها الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم، وإنما حدث ذلك في زمن الدولة العثمانية، على أنه لو كان تحتها ضريح لقلنا تلك عادة جارية، ولو كان تحتها سر من الأسرار، أو كان المقام يتأثر من ضوء الشمس والقمر لقلنا: يجب ستره حتى لا ينكشف السر ولا يتضرر المقام من الضوء.

أمّا وحيث كان تحتها ذلك الحجر المكرم المحترم الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقال جل جلاله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإنه يجب رفع الستارة عنه لينظر المسلمون إلى هذا المقام المقدس الذي أمرهم الله تعالى بالصلاة خلفه، وليعرفوا أنه حجر ليس غير، فتغطية المقام بالكسوة توقع الناس في الجهل بحقيقته، وتوجب لهم الوسواس وانشغال البال في تصور شكله وهيئته.

فحبذا لو رفعت الستارة عن المقام، ورفع التابوت الخشبي الذي فوقه، ثم يعمل صندوق من الزجاج الشفاف القوي، ويوضع فوق المقام ،ويربط ربطاً جيداً، حتى لا يحركه السيل إذا دخل إليه؛ وبذلك يصير المقام ظاهراً للناس، محفوظاً من وصول الأيدي والأتربة إليه، ولا شك أن هذا عمل جليل يحمده جميع المسلمين.

ويستحسن أيضاً إحاطة المقصورة من الداخل من جهاتها الأربع بألواح الزجاج وإنارتها ليلاً بالمصابيح الكهربائية ليكون منظرها جميلاً جداً خصوصاً في وقت الحج، ولتكون المقصورة نظيفة من الغبار، ومحفوظة من وصول الخطابات والأوراق التي يرميها العوام والجهلة من الحجاج فيها.[1]

---

(١) قد تحققت أمنيات فضيلة المؤلف، رحمه الله تعالى، وأصبحت آماله ومقترحاته لمقام إبراهيم عليه السلام واقعاً ملموساً، وفي أبدع شكل، بحيث يراه الطائفون بالبيت الحرام دون عناء، والحمد لله، كما يعد المؤلف – رحمه الله تعالى – أول من اقترح الصندوق الزجاجي للمقام ليراه زائرو البيت الحرام، وبهذا يرد على من يدعي أنه هو صاحب هذا الاقتراح ممن جاء متأخراً عنه.

منبر المسجد الحرام

يقع الآن منبر المسجد الحرام بجوار مقصورة المقام، بينه وبينها أربعة أمتار، وعدد درجاته من بابه إلى موضع جلوس الخطيب أربع عشرة درجة، ويبلغ طوله ٥٨٠ سنتيمتراً وعرضه ١٨٦ سنتيمتراً، أما ارتفاعه فلم نتمكن من قياسه ومعرفته - والذي بعث هذا المنبر للمسجد الحرام السلطان سليمان بن سليم خان - رحمه الله تعالى - سنة ست وستين وتسعمئة هجرية.

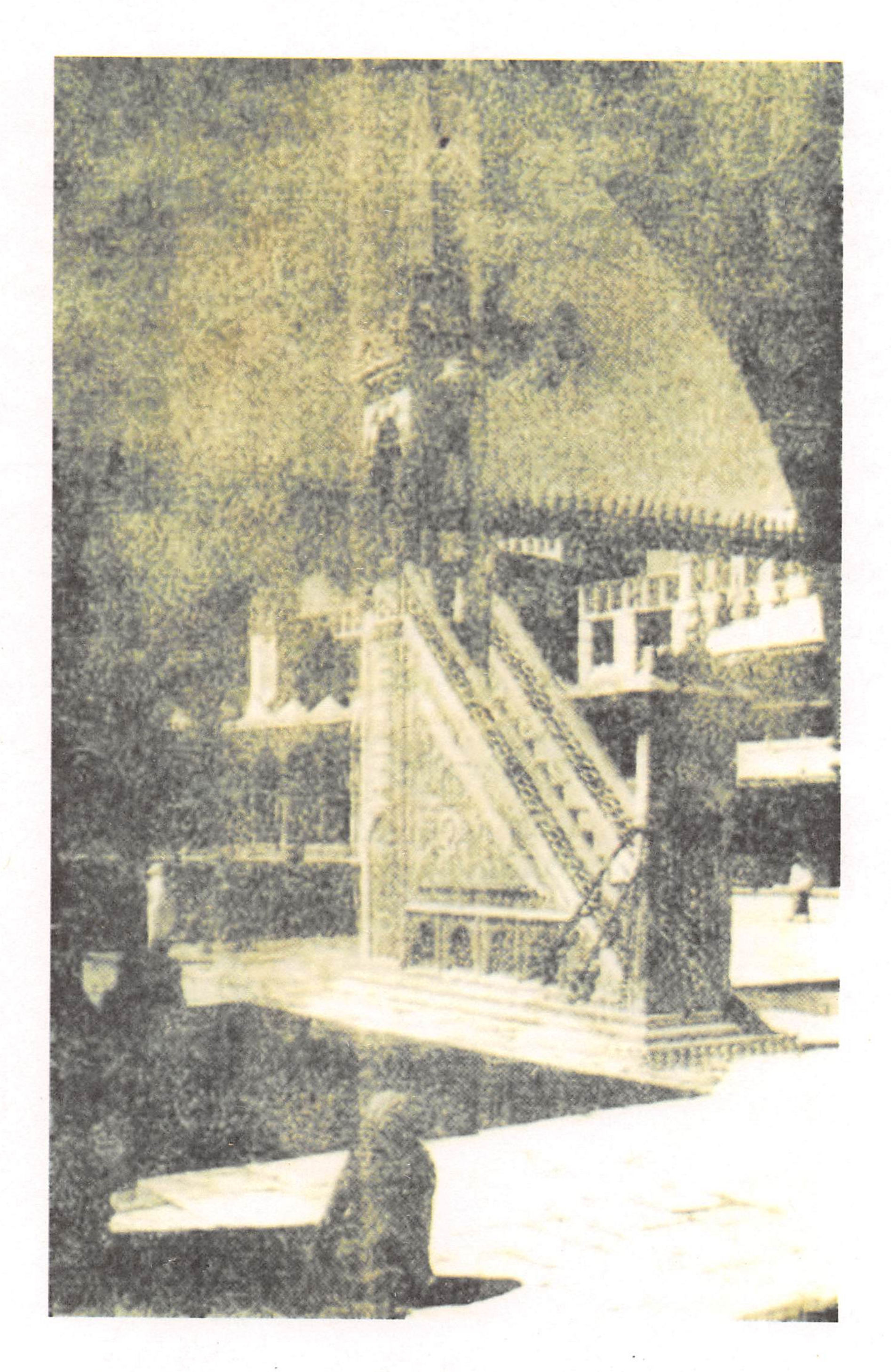
فإنه جاء في تاريخ (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) المخطوط تأليف الشيخ عبدالله الغازي الهندي المكي - رحمه الله تعالى - بصحيفة ٣٢٩ من الجزء الأول ما نصه:

«وفي (تحصيل المرام) وفي تاريخ السيد مصطفى بن سنان الشهير بجنابي: ولما كانت سنة خمس وستين وتسعمئة [١٥٥٧م] أمر الملك المجاهد سليمان بن سليم خان بعمل المنبر الذي بالمسجد الحرام، وأن يعمل من رخام في طراز بديع، فلما حفروا مكان الأساس ظهر رجلان ميتان مدفونان بما عليهما من السلاح ولم يفقد منهما شيء فاختلف الناس في أمرهما. وأما أنا فلم أشك في كون أحدهما عبدالله بن عثمان؛ لأنه استشهد مع ابن الزبير، وخفي أثره، ودفن في المسجد خوفاً أن ينبشه أصحاب الحجاج، والآخر عبدالله بن صفوان، والعلم لله»[١]. انتهى من تاريخ الغازي.

---

(١) ج١، ص٧٦٢.

وهذا المنبر من حجر الرخام الأبيض الناصع الجميل، الذي يقف كالدمية اللطيفة من العاج، تتجلى فيه روعة الفن، ودقة الصنعة، وإتقان التركيب، بحيث إنه يعد الآن آية من آيات الفنون الجميلة، وأثراً قيماً من الآثار التركية البديعة؛ وأكثر ما يلفت نظر المدقق الخبير بالفنون الجميلة النقوش العجيبة، والزخرفة البديعة المحفورة في حجر الرخام نفسه كيف أنهم حفروها في ذلك الزمن الذي لم تستكمل فيه الصناعات الدقيقة جميع أدواتها وآلاتها، ولكن لا يستبعد ذلك على دولة آل عثمان وسلاطينهم الفخام، رحمهم الله تعالى. ولقد مرّت على المنبر من السنوات إلى سنة تأليفنا هذا الكتاب أربعمئة سنة تماماً بلا زيادة ولا نقصان، وهو لا يزال حافظاً شكله الجميل، وصورته البديعة، مع أنه عرضة للشمس والهواء والأمطار والسيول واستعماله بالطلوع والنزول هذه المدة الطويلة، وما ذاك إلا من إحكام صنعه، وإتقان عمله.



صورة منبر المسجد الحرام

وكان أول من خطب بمكة فوق منبر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قدم به من الشام سنة حج في خلافته، وكان منبره صغيراً على ثلاث درجات، وبقي منبره بمكة حتى حج الرشيد هارون أمير المؤمنين في خلافته، فأهدى إليه عامله على مصر منبراً عظيماً في تسع درجات فكان هذا منبر مكة، وكان الخلفاء والولاة قبل منبر معاوية يخطبون يوم الجمعة على أرجلهم قياماً في وجه الكعبة وفي الحجر. اهـ من تاريخ الأزرقي.[١]

(١) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٢، ص٩٩، وانظر: الغازي، عبدالله بن محمد المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، ج١، ص٧٥٨.

تقتضي الدراسة تحديث المعلومة عن منبر الحرم الشريف توصيلاً للحدث التاريخي الذي تكلم عليه فضيلة الشيخ محمد طاهر كردي المكي الخطاط فقد طرأ على المنبر عدة تطورات يُذكر التالي في هذا السياق:

منبر الحرم الرخامي القديم قد نقل من مقره الأول مرتين: المرة الأولى لدى توسعة المطاف فأخر عن مكانه الأول، وأعيد تركيبه، ثم نقض، ونقل إلى بدروم الحرم، حيث إن آثار الحرم القديمة كافة قد وضعت في الدور السفلي للحرم الشريف، ثم حطمت معظم تلك الآثار بما فيها المنبر التاريخي الشريف في فتنة جهيمان العتيبي سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)، استبدل بهذا المنبر في الحرم الشريف منبر خشبي منقوش، أقيم على عجل، جعل مقره برواق باب أجياد أولاً، ويُحضَّر إلى صحن المقام أمام الكعبة المشرفة لخطبة الجمعة، والمناسبات الدينية الخطابية الأخرى، ثم استبدل به منبر يدار بالكهرباء، يتولى قيادته بعض خدمة الحرم الشريف، ومن ثم إحضاره قبل الصلاة إما بقرب باب الكعبة، عندما يزدحم الحرم الشريف، وإما بجانب مقام إبراهيم في الأيام العادية، فإذا انتهت الصلاة أعيد إلى مكانه عند باب أجياد، ثم استبدل بمقر وقوفه برواق باب أجياد مقر وقوف رواق باب السلام، فـأصبح هذا مقره في الوقت الحاضر.

«هذا المنبر المنصوب حديثاً يعد الوحيد من نوعه في العالم، حيث يحتوي على محرك يعمل على بطارية مدمجة لتحريك المنبر ونظام تكييف، وشاشة لعرض نص الخطبة للإمام، ونظام صوتي متقدم. وقد نفذ المنبر شركة SL RASCH الألمانية بالتعاون مع شركة بن لادن السعودية، وبلغت تكاليف المنبر ٩٥٠٠٠٠٠ (تسعة ملايين وخمسمئة ألف) ريـال سعودي.

الجدير بالذكر أن شركة SL RASCH هي المنفذة مشروع خيام منى، ومظلات الحرم النبوي، والقبب المتحركة، للاستزادة: يرجع إلى الموقع الآتي: http://www.sl-rasch.de/.

وجوب صون المقام والمحافظة عليه

منذ أن أمر الله - عز وجل - بالصلاة خلف المقام في قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وجب علينا أن نتعهده بالحفظ والوقاية بكل الوسائل المصونة له، كما نحافظ على الحجر الأسود، ولنا في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسوة حسنة، فقد اهتم، وفزع وهو بالمدينة حينما بلغه أن السيل اقتلع المقام من موضعه، وركب من ساعته حتى قدم مكة، وأصلح من شأن المقام، كما تقدمت الإشارة إليه. وأنَّ عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما حين هدم البيت جعل الحجر الأسود في ديباجة، وأدخله في تابوت، وأقفل عليه ووضعه عنده في دار الندوة، فلما بلغ البناء موضع الركن أمر بوضعه، فيه كما ذكره الأزرقي في تاريخه[1]، وما ذاك إلا للمحافظة عليه والحرص على صيانته، فالمقام مثله يجب صونه، وهؤلاء أهل الجاهلية كانوا وضعوه في جوف الكعبة حرمة له وحرصاً عليه، كما تقدم بيان ذلك، بل حتى بعد الإسلام كان المقام يجعل أحياناً في جوف الكعبة، كما ذكره الفاسي في (شفاء الغرام) عن ابن جبير الأندلسي.

ولئن كان المقام في صدر الإسلام موضوعاً على الأرض ظاهراً للناس لقد كان ذلك العصر المبارك عصر دين وعلم وأمانة، وشرف وأخوّة وائتلاف، فلا خوف على المقام، ولا على غير المقام، أما في عصورنا المظلمة التي فسد فيها أهل الزمن، وظهرت الفتن، وقلت الأمانات، وكثرت الخيانات، وانتشر الدجالون والمحتالون فكيف لا يخاف على المقام وغير المقام؟ فكم من مرة تعدى أهل الخبال والإجرام على الحجر الأسود فضربوه بالحديد، حتى خرج منه بعض القطع. فليس ببعيد إذاً أن

(١) انظر: أخبار مكة وما فيها من الآثار، ج١، ص٢١٦.

يتعدى على المقام بعض أهل الجراءة والإفساد ممن أغواهم الشيطان بسرقته أو تكسيره إذا لم يكن في حرز مكين!.

فوائد وضع المقام في مقصورة

لوضع المقام في مقصورة أو نحوها لا تصل إليه أيدي الناس ثلاث فوائد:

(الأولى) وقايته من التلف والتغيير بسبب احتكاك الناس ومسحهم له، وبسبب الأمطار والأتربة والأهوية وغيرها، ولو كان محفوظاً أيام الجاهلية داخل شيء لما تكسر، ولما احتاج إلى إصلاح وشدّ، كما تقدم بيان ذلك عند تطويق المقام بالذهب والفضة.[1]

(الثانية) حفظه من سرقته أو تكسيره ممن لا ديانة له ولا عقل، كما حدث للحجر الأسود مراراً، وأشهر الحوادث في ذلك حادثة القرامطة الذين استولوا على مكة سنة ثلاثمئة وسبع عشرة هجرية [نحو٩٢٩م]، وقتلوا فيها يوم التروية ثامن ذي الحجة الحجاج قتلاً، وطرحوهم في بئر زمزم، ثم أرادوا أخذ المقام فلم يظفروا به؛ لأن سدنة الكعبة أخفوه في شعاب مكة فاغتاظوا من ذلك، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم إلى بلدتهم (هجر) بالبحرين، ثم في سنة ٣٣٩ هـ [نحو ٩٥٠م] ردّوا الحجر الأسود إلى مكة، وذلك في خلافة المطيع لله الفضل بن المقتدر. وقال العلامة ابن ظهيرة القرشي - رحمه الله - في كتابه «الجامع اللطيف» ما نصه:

«ويروى أن رجلاً يهودياً أو نصرانياً كان بمكة يقال له: جريج فأسلم، ففُقد المقام ذات ليلة، فوُجد عنده، وكان أراد أن يرسله إلى ملك الروم، فأُخذ منه وقتل»[2].

---

(١) جاء هذا تحت عنوان (تطويق المقام بالذهب والفضة) في هذا الكتاب.

(٢) ص٣٢.

(الثالثة) حفظ الناس من الوقوع في البدعة إذا استلموه أو مسحوه بأيديهم؛ فإن مسح المقام أو تقبيله، وكذلك الأعتاب، والأبواب، والشبابيك، وإدخال الأيدي في حلقاتها بدعة لم يأت بها الدين الحنيف، ولم يفعلها أحد من الصحابة، والتابعين، ولا من العلماء والصالحين، وإنما السنة الصلاة خلف المقام فقط، من غير مسحه أو تقبيله، اللهم إلا الركن الأسود والركن اليماني فإنه يسن مسحهما واستلامهما، فقد روى الأزرقي في تاريخه أن عبيد بن عمير قال لابن عمر: إني أراك تزاحم على هذين الركنين، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن استلامهما يحط الخطايا حطاً».، وروى أيضاً عن ابن عمر عن النبي ﷺ «أنه كان لا يدع الركن الأسود والركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما، قال: وكان لا يستلم الآخرين» وروى فيه أيضاً عن عكرمة قال: «كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال: أشهد أنك حجر لا تضر ولا تنفع وأن ربي الله الذي لا إله إلا هو، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يمسحك ويقبلك ما قبلتك ولا مسحتك».[١]

على أنه يشترط في مسحهما وتقبيلهما عدم حصول الأذية والضرر، فقد روى الأزرقي في تاريخه أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «يا عمر إنك رجل قوي وإنك تؤذي الضعيف، فإذا رأيت خلوة فاستلمه، وإلا فكبر وامض»، وروى فيه أيضاً عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول: «إذا وجدت على الركن زحاماً فلا تؤذ ولا تؤذَ»[٢].

---

(١) انظر: ابن ظهيرة القرشي، جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص٣٥ «فوائد– في حكمة قول عمر رضي الله عنه».

(٢) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣٣٤.

والحديث أخرجه كذلك أحمد (٢٨/١)، وعبدالرزاق في المصنف ح (٨٩١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه ح (١٣١٥٢)، والبيهقي في سننه (٨٠/٥). وفي إسناده راوٍ لم يُسَمّ.

فينبغي للمسلم أن يكون على بصيرة من أمر دينه القويم، وأن يتبع منهج السلف الصالح الذين مشوا على الصراط المستقيم؛ حتى لا يقع فيما وقع فيه العوام والجهلة، وإذا أمكنه إرشاد أحد بالتي هي أحسن لم يُحرم من الأجر والثواب، فالدال على الخير كفاعله.

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان باللطف واللين كان أسرع إلى القبول والامتثال، وإذا كان بالعنف والغلظة كان أدعى إلى النفور والعناد، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، الآية رقم ١٢٥.

حجر إسماعيل وقبره عليه السلام

حِجْر إسماعيل[١] هو حائط قصير دون القامة على شكل نصف دائرة من جهة ميزاب الكعبة[٢]، وهو من البيت؛ فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر فقال لي صلّي في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت، ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت»[٣].

ويسمى حجر إسماعيل بالحطيم، وفيه قبر إسماعيل عليه السلام كما رواه الأزرقي في تاريخه[٤]: فقد جاء فيه أن الزهري سمع ابن الزبير على المنبر يقول: «إن هذا المحدودب قبور عذارى بنات إسماعيل عليه السلام، يعني مما يلي الركن الشامي من المسجد الحرام... إلخ»[٥].

---

(١) الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم له جملة معان في اللغة، قال في المصباح المنير: والحجر: حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب. اهـ وانظر صورته في الرسم الذي بصحيفة ١٧. المؤلف.؛ آخر العنوان (نبذة من ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣٢٠ «صفة الحجر وذرعه».

(٣) وذلك أن قريشاً لما أرادوا بناء البيت جمعوا له من طيب أموالهم، ولم يدخلوا فيه مالاً من ربا، ولا مالاً من ميسر، ولا مهر بغي، ولكن ما جمعوه من النفقة لم يكف لعمارة البيت كله، فاستقصروا في بنائه على القواعد، وتركوا بقيته في الحجر وأداروا عليه جداراً يطوف الناس من ورائه. واعلم أن من استقبل في صلاته حجر إسماعيل فقط لا تصح صلاته، لأن كون الحجر من البيت مظنون لا مقطوع به، لأنه إنما ثبت بالآحاد كما أفاده العلامة الخطيب في كتابه [الإقناع على أبي شجاع]. المؤلف.

(٤) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٢١٥.

(٥) وسنده ضعيف لانقطاعه؛ فالزهري لم يسمع من ابن الزبير.

وفي تاريخ الأزرقي أيضاً أنه مات بمكة نوح وهود وصالح وشعيب[١] وقبورهم بين زمزم والحجر، وقيل: إن هوداً وصالحاً لم يحجا فقد تشاغلا بأمر قومهما، والله أعلم، وورد في الحديث «كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها ومن معه حتى يموت فيها».[٢]

روى الأزرقي في تاريخه أن المبارك بن حسان الأنماطي قال: رأيت عمر بن عبدالعزيز في الحجر، فسمعته يقول: «شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حرّ مكة فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة في الحجر يجري عليك منه الرَّوح[٣] إلى يوم القيامة». وفي ذلك الموضع توفي. قال خالد: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي فيه قبره. اهـ.

وقد اختلف العلماء أدفن إسماعيل أو أحد من أهله في الحجر أم لا؟ ورأينا الخاص: أنه قد يجوز أن يكون قبر إسماعيل وقبر أمه وبناته في الحجر، وما المانع أن يدفن نبي الله وأهله في أشرف بقعة على وجه الأرض، وهم أول من نزلوا فيها وعمروها، وبنوا بها بيت الله الحرام، خصوصاً أن أم إسماعيل توفيت قبل بناء الكعبة[٤]، وأن أباه إبراهيم عليه السلام قد جعل الحجر إلى جانب البيت عريشاً من أراك تقتحمه العنز، فكان الحجر زَرْباً[٥] لغنم إسماعيل كما ذكر الأزرقي في تاريخه[٦].

---

(١) وهؤلاء من أنبياء العرب ما عدا نوحاً عليهم الصلاة والسلام. المؤلف.

(٢) تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٦٨. وإسناد الحديث ضعيف لإرساله، محمد بن سابط لم يسمع من النبي ﷺ.

(٣) الروح بفتح الراء: النسيم وهو الريح الطيبة. المؤلف.

(٤) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٥٦.

(٥) قال في المنجد: زرب المواشي: أدخلها في الزريبة، وهي حظيرة المواشي. المؤلف.

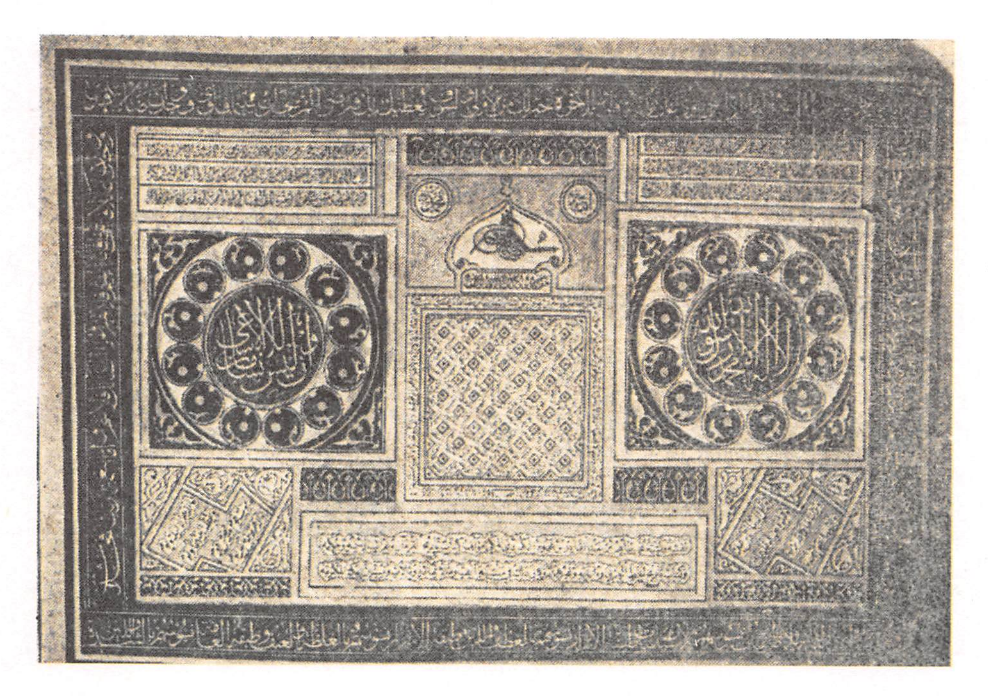
(٦) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٦٤- ٦٥.

نعم نحن الآن نستعظم الدفن حول المطاف، بل في المسجد؛ لأن المكان لا يخلو من لحظة واحدة من الطائفين والمصلين والمتعبدين ليلاً ونهاراً، وشريعتنا تحرم اتخاذ القبور مساجد والدفن فيها.

أما في تلك العصور الغابرة فإنه لم يكن يعمر مكة قبل إسماعيل ﷺ أحد من الناس، ولم تسكنها قبيلة جرهم إلا بعد أن رأوه مع أمه بها، فلماذا لا يدفن إسماعيل الذبيح نبي الله وابن خليل الله بجوار بيت الله، وهو الذي بناه - ؟ على أنه لا يمكن إثبات ذلك بغير استناد إلى نصّ صريح، ولا نظنه ورد، والله تعالى أعلم؟

وهنا نقطة دقيقة يجب التنبيه عليها وهي: إن قلنا إن إسماعيل ﷺ مدفون في الحِجر، فإنه يكون قبره في شطره الذي جهة الكعبة، ولما كان هذا الشطر داخلاً في الكعبة قبل بناء قريش لها، فإنه يفهم صريحاً أنهم دفنوا إسماعيل ﷺ في جوف الكعبة حين موته.

وقول العلماء: أدفن إسماعيل في الحِجر أم لا؟ إنما هو بحسب ما كان الحِجر بعد بناء قريش الكعبة إلى اليوم، كما هو ظاهر؛ لأن قريشاً حين بنتها نقصت من جدارها الذي من جهة الحِجر، وبذلك صار الحِجر متسعاً بعد أن كان ضيقاً، وصار شطره الثاني خارجاً عن الكعبة بعد أن كان داخلاً فيها؛ فتنبه لهذه النقطة، فربما لا تجدها في كتاب.



صورة صحيفة من خط مؤلف هذا الكتاب

الرخامة الخضراء التي بداخل الحجر

يظن كثير من الناس أن الرخامة الخضراء التي هي تحت ميزاب الكعبة بالحِجر ما وضعت هناك إلا لتكون علامة على قبر إسماعيل عليه السلام، فهذا الظن ليس في محله، فالرخامة لم توضع لهذا القصد، وإن كان قبر إسماعيل في الحِجر، وإنما وضعت لسبب ستعرفه مما يأتي:

وهذا الْحَجَر ليس بحَجَر واحد، وإنما هو رخامتان من جنس واحد ملتصقتان بعضهما ببعض، فالقطعة الأولى: بيضاوية الشكل، رأسها الأول مما يلي الكعبة، ورأسها الأخر مقطوع، قطرها الصغير ٤٥ سنتيمتراً، وقطرها الكبير ٦٤ سنتيمتراً، وهي منفلقة إلى فِلْقتين(١)، والقطعة الثانية:

---

(١) فلق الشيء فلقاً: شقه، وبابه نصر وضرب، يقال: فلقه فانفلق. وتفلق الشيء: تشقق، والفلقة: القطعة وزناً ومعنى. والفلق بوزن الرزق: الداهية والأمر العجيب، تقول: منه أفلق الرجل وافتلق، وشاعر مفلق. اهـ. باختصار من المصباح المنير، ومختار الصحاح. المؤلف.

على شكل نصف دائرة قطرها ٧٩ سنتيمتراً، منفلقة إلى أربع قطع، وفيها بعض انخفاض، ويحق لها أن تنخفض وتتصدع، فلقد مضى عليها أكثر من ألف ومئة سنة والناس يصلون فوقها.

وحقيقة أمر الرخامتين: أن عبدالله بن عبيد الله بن عباس بن محمد الهاشمي أمر أن يقلع له لوح من رخام الحِجْر يسجد عليه[١]، فقلع له في الموسم، فأرسل أحمد بن طريف - مولى العباس بن محمد الهاشمي - مكان ذلك اللوح برخامتين خضراوين من مصر، هدية لحِجر إسماعيل، وذلك سنة إحدى وأربعين ومئتين [نحو ٨٥٥م]، فجعلت الرخامة البيضاوية[٢] الشكل على سطح جدار الحجر مقابل الميزاب أي: في وسط جدار الحجر، وجعلت الثانية تحت الميزاب تلي جدار الكعبة، ثم في سنة ثلاث وثمانين ومئتين نقلت الرخامة البيضاوية من جدار الحجر وجعلت مع الرخامة الثانية تحت الميزاب، كما ذكره الأزرقي في تاريخه.[٣]

وفي (الجامع اللطيف) للعلامة ابن ظهيرة القرشي - رحمه الله تعالى -: أن المحب الطبري سئل عن البلاطة الخضراء التي في الحِجر، فقال: البلاطة الخضراء قبر إسماعيل، ويشبر من رأسها إلى ناحية الركن الغربي مما يلي باب بني سهم ستة أشبار، فعند انتهائها يكون رأس إسماعيل عليه السلام[٤]. اهـ.

---

(١) أي: يصلي فوقه. المؤلف.

(٢) البيضاوية: نسبة إلى بيض الطيور لشبهها بها، وهذه الرخامة هي التي عبر عنها أبو الوليد الأزرقي في تاريخه بأنها على هيئة الزورق. المؤلف.

(٣) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣١٧.

(٤) يفهم من كلام المحب الطبري أن رأس إسماعيل عليه السلام يقع جهة باب الحجر الغربي، وأن رجليه في جهة بابه الشرقي، وأن ميزاب الكعبة والبلاطة الخضراء التي تحته يقابلان وسط قبره، فكلامه لا يتعارض مع رواية الأزرقي المتقدمة، وهي أن قبر إسماعيل عليه السلام ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي فتأمل. المؤلف.الجامع اللطيف، ص١٤١.

والسبب الفني في اختيار هذه الرخامة بالذات لوضعها في الحِجْر: هو أن الإنسان ميال بطبيعته الغريزية إلى اقتناء الأحجار الكريمة، والجواهر الثمينة: كالألماس واللؤلؤ والمرجان والعقيق والياقوت والزبرجد وغيرها، وبالأخص الملوك والأمراء.

وكان من عادة هؤلاء في الزمن السابق أن من يمتلك منهم شيئاً نفيساً نادر الوجود والمثال بعثه هدية إلى أشرف بقعة ومكان كالكعبة المعظمة، وحجر إسماعيل، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى؛ فكان من جملة الهدايا هاتان الرخامتان النادرتان الجميلتان اللتان بعثهما أحمد بن طريف من مصر لتوضع إحداهما تحت ميزاب الكعبة داخل حجر إسماعيل، وتوضع الثانية فوق جداره، ثم نقلت هذه فوضعت مع الأولى تحت الميزاب، وهما كذلك إلى الآن[١]، بحيث يظن الرائي أنهما قطعة واحدة.[٢]

وعلة وضعهما تحت الميزاب، علاوة على قلع اللوح الذي كان تحتهما، والذي كان حاملاً على بعثهما: هي أن ذلك الموضع أفضل مكان في الحِجر، فقد روى الأزرقي عن عطاء بن أبي رباح قال: «من قام تحت ميزاب الكعبة فدعا استجيب له، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».[٣] وعن ابن عباس قال: «صلوا في مصلى الأخيار، واشربوا من شراب الأبرار، قيل له: ما مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل وما شراب الأبرار؟

(١) تعبير المؤلف بكلمة (الآن) يعني بها تاريخ ما قبل طبع الكتاب سنة ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م) وقبل حدوث التوسعة السعودية للحرم المكي الشريف سنة ١٣٧٥هـ أما بعد هذا التاريخ فقد حدثت تطورات كثيرة في الحرم المكي الشريف.

(٢) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣١٧. لا وجود للرخام الملون في أرضية الحجر في الوقت الحاضر، حيث جُددت أرضية الحجر وجدار الحجر الداخلية والخارجية في الترميم العام للكعبة المشرفة سنة ١٤١٧هـ.

(٣) «٤٠٢ – إسناده ضعيف» عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، تحقيق كتاب: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، ج١، ص٤٣٩.

قال: ماء زمزم».[١] ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يدعو تحت الميزاب إلاَّ استجيب له».[٢]

واعلم أن حِجر إسماعيل كله مفروش بالرخام الأصلي الجميل، ومنقوش بألوان الحجارة الظريفة نقشاً فنّياً بصورة هندسية دقيقة، وقياسات محررة على طراز المساجد العظيمة بمصر القاهرة، فإن من عادة المصريين أنهم يزخرفون مساجدهم بالرخام الملون؛ لعدم تغير لونه مهما تقادم عهده.

والرخام الأبيض وجد منه شيء كثير بمختلف القياسات والأحجام، أما الرخام الملون كالأسود والأحمر والأزرق والأصفر، فإنه قليل الوجود، وأغلب ما يوجد منه يكون صغير الحجم.

أما الرخامة التي تحت ميزاب الكعبة فلا يوجد مثلها، لا في المسجدين الحرامين، ولا في قطر من الأقطار، ولا مبالغة في قولنا هذا، ولونها لا يضرب إلى الخضرة الخالصة، وإنما هو أخضر أدكن أي: خضرة مائلة إلى السواد قليلاً، منقوشة بنقط خضراء خالصة أكسبتها منظراً جميلاً، كل ذلك من أصل الخلقة، لا دخل للصناعة فيها بشيء.

وتوجد بجانبي الرخامة الخضراء المذكورة الشرقي والغربي قطعتان من جنس هذه الرخامة ولونها، كل منهما على هيئة الدائرة، قطر كل منهما ٢٥ سنتيمتراً، وكل واحدة منهما تبعد عن الرخامة التي تحت الميزاب

---

(١) «٤٠٣ – إسناده صحيح» عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، تحقيق كتاب: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، ج١، ص٤٣٨.

(٢) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣١٨.

ولم يعثر على هذا الحديث في شيء من كتب الحديث، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في منسكه (ص٣٧٢): «وما يذكره كثير من الناس من دعاء معين تحت الميزاب ونحو ذلك فلا أصل له».

مقدار مترين تماماً، والدائرة الغربية متصدعة إلى ثلاث قطع، والدائرة الشرقية متصدعة إلى قطعتين.[١]

ومما يجب ذكره أيضاً بهذه المناسبة الرخامات الصفر الموضوعة بأعلى شاذروان الحفرة التي عند باب الكعبة، وفوق الْحَجَر المكتوب داخل الحفرة، فهي رخامات نفيسة جداً، نادرة الشكل والمثال، كالرخامة الخضراء التي تحت الميزاب.

ولونها لا يضرب إلى الصفرة الخالصة، وإنما هو أصفر مائل إلى الحمرة قليلاً، يتخللها نقوش بديعة جداً، لونها أصفر فاقع أكسبت الرخامات حسناً وجمالاً، كل ذلك من أصل الخلقة أيضاً.

وهذه الرخامات ثمانية أحجار، متقاربة الأحجام، متلاصقة بعضها ببعض، كل حجر منها مستطيل الشكل، أكبرها طوله ٣٣ سنتيمتراً، وعرضه ٢١ سنتيمتراً، وكلها مرصوصة وموضوعة بأعلى الشاذروان في محل على هيئة المربّع، طوله ٧٤ سنتيمتراً، وعرضه كذلك.[٢]

والظاهر أنها وضعت في محلها فوق الشاذروان حين عمارة المطاف التي كانت سنة إحدى وثلاثين وستمئة، [نحو ١٢٣٣م] حسبما هو مكتوب بالنقر على الْحَجَر الأزرق الذي تحت الرخامات الصُّفر، وهو حَجَر ثمين من الرخام الأزرق الصافي، طوله ٦٩ سنتيمتراً، وعرضه ٣٢ سنتيمتراً، فيكون قد مضى على هذه الرخامات الصفر والرخامة الزرقاء إلى عامنا هذا ٧٣٦ سنة، ومضى على الرخامة الخضراء التي تحت الميزاب إلى عامنا هذا أيضاً ١١٢٦ سنة.

---

(١) قد استبدل بها وبكافة رخام الحجر رخام أبيض في أثناء ترميم الكعبة المشرفة سنة ١٤١٧هـ.

(٢) ما زالت هذه الرخامات الملونة موجودة في مكانها من شاذروان الكعبة المشرفة، ولم تمس بالإزالة في الترميم الأخير للكعبة المشرفة سنة ١٤١٧هـ ولكن طمست الكتابة عليها، فأصبحت غير مقروءة.

فالرخامة الخضراء التي تحت الميزاب والرخامات الصُّفر التي على الشاذروان تكون من أفخم الآثار العربية وأغلاها وأندرها وأبركها؛ فلولا أنها من القدر والقيمة بمكان ما وضعها ولاة الأمر الأقدمون في أشرف بقعة عند الكعبة المعظمة، فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء وجواهرها واختيار الأمكنة لحفظها وصيانتها، وكانت أعمالهم الجليلة في غاية الجودة والإتقان، تمر عليها مئات السنين والأعوام، وهي على حالها، ما أصابها تلف ولا خراب.

ونحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحِجر والمطاف من الرخام النادر الوجود، فلو قمنا وبحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جداً؛ وهذا مما يدلّنا على عناية الملوك والسلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس، والبقعة الطاهرة المباركة، وما ذكرنا تلك الرخامات الْخُضر والصُّفر إلا للمناسبة.

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الْخُضر والصُّفر عند ذوي الخبرة من رجال الآثار القديمة، فإننا لا نبالغ إن قلنا: إن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من ألف جنيه مصري.

ولا نعتقد أن أحداً ممن كان قبلنا ولا ممن هو في عصرنا الْتفت إلى هاتين الرخامتين، ولا توصل إلى ملاحظاتنا فيهما، هذه الملاحظات الدقيقة الفنّية، فالحمد لله على التوفيق.

أثمن هدايا الكعبة المشرفة

يستحسن هنا أن نذكر شيئاً من أثمن الهدايا وغرائبها التي أهديت إلى الكعبة المعظمة، فإن الناس كانوا منذ أن بناها إبراهيم – عليه السلام – يهدون إليها نفائس الأموال، وأثمن الأشياء إلى ما بعد الهجرة بألف سنة، فإن آخر ما أهدي للكعبة الشريفة هدية ملكة بندر آشي، فإنها أرسلت خمسة قناديل من ذهب للكعبة في إمارة الشريف سعيد بن بركات سنة ١٠٩٤ ألف وأربع وتسعين هجرية [١٦٨٢م]، هذا ما ذكره صاحب (تاريخ الكعبة المعظمة) بعد أن ذكر جملة من الهدايا لها.[١]

ومن الهدايا الثمينة للكعبة: ما ذكره الأستاذ يوسف أحمد – صاحب كتاب «المحمل والحج» مدرس الخط الكوفي، ومفتش الآثار العربية بمصر، رحمه الله تعالى – فإنه قال فيه ما نصه: وقال ابن زولاق ما ملخصه: وصل المعز لدين الله تعالى إلى قصره بمصر في رمضان من سنة ٣٦٢هـ [٩٧٢م]، وبعد ما استقر وقابل الأعيان وقبل هداياهم نصب في يوم عرفة الشمسية التي عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها ١٢ شبراً في ١٢ شبراً، وأرضها ديباج أحمر، ودورها ١٢ هلال ذهب، في كل هلال أترجة ذهب مسبك، جوف كل أترجة ٥٠ درة كباراً كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر، والأصفر، والأزرق، وفي دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله، وحشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس في القصر، ومن خارج القصر لعلو موضعها اهـ. وقد ذكر صاحب الكتاب المذكور نقلاً عن كتاب (الذخائر والتحف): «أنه أدخل في

---

(١) انظر: باسلامة، حسين عبدالله، ص٢١٧.

هذه الشمسية ثلاثون ألف مثقال ذهباً، وعشرون ألف درهم مخرقة، وثلاثة آلاف وستمئة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه». اهـ. وذكر أيضاً نقلاً عن كتاب (اتعاظ الحنفاء) للمقريزي: «أن المعز غدا لصلاة عيد النحر في عساكره وانصرف في زيّه، فلما وصل إلى القصر أذن للناس عامة، فدخلوا والشمسية منصوبة على حالها، فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق، فذكر أهل العراق وأهل خراسان ومن يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسية، وذكر أصحاب الجواهر، ووجوه التجار: أنه لا يثمن ما فيها. وقد قال المقريزي في كتابه المذكور: «إن أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التي بعثها المأمون، وصارت تعلق كل سنة في وجه الكعبة، وكان يؤتى بالسلسلة في كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر، قيمتها شيء كثير، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق، فتدفع إلى حجبة الكعبة، ويشهد عليهم بقيدها، فيعلقونها يوم سادس الثمان، فتكون على الكعبة، ثم تنزع يوم التروية». اهـ من كتاب [المحمل والحج].

والمراد بالشمسية المذكورة ستارة من الديباج الأحمر مربعة الشكل مساحتها ١٤٤ شبراً، حسب الوصف المذكور، تعلق على باب الكعبة. وقد ذكر صاحب كتاب [المحمل والحج] للشمسية ثلاثة معان:

١- تطلق على النافذة المربعة في أعلى الحائط.

٢- تطلق على المظلة التي نستعملها في عصرنا الحاضر للوقاية من الشمس والمطر.

٣- تطلق على الكسوة أو الستور، وقد استشهد بما يدل على كل ذلك في كتابه.

وذكر فيه أيضاً: «أن جعفر المتوكل على الله بعث بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر، والياقوت الرفيع والزبرجد، تعلق بسلسلة من الذهب في وجه البيت كل موسم». اهـ، وذكر فيه أيضاً بعض الهدايا للكعبة لم نتعرض لذكرها هنا، فليراجعه من شاء.

وذكر الأزرقي في تاريخه: «أن ملكاً من ملوك التِّبت أسلم، وكان له صنم من ذهب يعبده في صورة إنسان، وكان على رأس الصنم تاج من الذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد، وكان على سرير مربع مرتفع من الأرض على قوائم، والسرير من فضة، وكان على السرير فرشة الديباج، وعلى أطراف الفرش إزار من ذهب وفضة مرخاة، والإزار على قدر الكرين في وجه السرير، فلما أسلم ذلك الملك أهدى السرير والصنم إلى الكعبة بواسطة أمير المؤمنين عبدالله المأمون. وكان يومئذ بمرو من خراسان، فأمر المأمون أن يبعث به إلى الكعبة، فجاء به نصير بن إبراهيم الأعجمي من أهل بلخ من القواد، فقدم به مكة في سنة إحدى ومئتين [نحو ٨١٦م]. وحج بالناس في تلك السنة إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى، فلما صدر الناس من منى، نصب نصير بن إبراهيم السرير وما عليه من الفرشة والصنم في وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفا والمروة، فمكث ثلاثة أيام منصوباً، ثم دفعه إلى الحجبة، وأشهد عليهم بقبضه، فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان، ثم في سنة اثنتين ومئتين [نحو ٨١٧م] أخذه يزيد بن محمد من الحجبة وضربه دنانير، ودراهم ليستعين به على حرب إبراهيم بن موسى الذي أتي إلى مكة من اليمن، وقال: أمير المؤمنين يخلفه للكعبة». اهـ من تاريخ الأزرقي باختصار.[١]

ولقد كانت في خزانة الكعبة أشياء كثيرة مما أهدي إليها عدلنا عن ذكرها خوف التطويل، فمن أراد البحث عنها فليرجع إلى كتب التاريخ، على أنه يوجد الآن بعض أشياء معلَّقة بسقف الكعبة المعظمة لم نتمكن من البحث والكتابة عنها.[٢]

---

(١) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٢٢٥.

(٢) شوهدت بعض القناديل الفضية المعلقة بالكعبة المشرفة في الوقت الحاضر في أثناء ترميم الكعبة المشرفة سنة ١٤١٧هـ ولا يزال يحتفظ بها معلقة في سقف الكعبة المشرفة.

فرش الحِجْر بالبلاط

لم يكن حِجر إسماعيل مفروشاً بالبلاط والرخام؛ فكان أول من وضع عليه حجارة الرخام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة مئة وأربعين هجرية [نحو ٧٥٧م]، فإنه لما حج وطاف دعا زياد بن عبيد الله الحارثي، وهو يومئذ أمير مكة، فقال له: إني رأيت الحجر حجارته بادية فلا أصبحنّ حتى يستر جدار الحِجر بالرخام، فدعا زياد بالعمّال فعملوه على السرج قبل أن يصبح، وكان قبل ذلك مبنياً بحجارة بادية ليس عليها رخام.

ثم إن الخليفة محمد المهدي العباسي في سنة مئة وإحدى وستين وأربع وستين [٧٧٧م و٧٨٠م] زاد في المسجد الحرام، وأمر بتجديد رخام الحِجر، ففرشوه بالرخام المرمر بإتقان تام، وكان رخاماً أبيض وأخضر وأحمر، وصرف في ذلك مبالغ طائلة؛ ثم إن الخلفاء والسلاطين عملوا فيه وفي المسجد الحرام عمارات ليس هنا محل بيانها، ولا بأس أن نشير إلى أن السلطان مراد خان الرابع هو أول من جدّد عمارة حِجر إسماعيل من آل عثمان حينما بنى الجدار الشامي من البيت؛ وذلك في سنة أربعين وألف [نحو ١٦٣٠م]، ثم عمره السلطان عبدالمجيد خان سنة ستين ومئتين وألف، ثم حصل تجديد نصف أرض الحِجر من جهة المقام الحنفي، وذلك في عهد السلطان عبدالعزيز خان العثماني سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف [نحو١٨٦٦م].[١]

---

(١) قد تم تجديد كامل بلاط حجر إسماعيل عليه السلام وتلبيس حائطه المستدير من الداخل والخارج بالرخام الأبيض النقي (كرارة) في الترميمات العامة للكعبة المشرفة سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م)، وكحل التلبيس الخارجي بالرخام من اللون البني الغامق في تربيع هندسي في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى. انظر: طاشكندي، عباس صالح، وزملاؤه، عمارة الكعبة المشرفة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ين عبدالعزيز رحمه الله تعالى، مرقوم على الحاسب الآلي، ص١٤٧.

وضع كسوة على جدار الحِجر

لم تجر العادة من قديم الزمان إلى اليوم أن يغطى جدار حجر إسماعيل عليه السلام بكسوة، غير أنه في القرن التاسع، أي: سنة اثنتين وخمسين وثماني مئة [نحو ١٤٤٨م] وصلت كسوتان من قِبَل جقمق الجركسي لجدار الحجر الدائر، فوضعوهما عليه، إحداهما من الداخل، والثانية من الخارج، وكانتا من الحرير الأسود ككسوة الكعبة المعظمة، ثم لم يكس جدار الحِجر بعد ذلك؛ فكانت هذه هي الأولى والأخيرة.[١]

والحقيقة أن وضع كسوة على جدار حجر إسماعيل عليه السلام تكون من جنس كسوة الكعبة لا بأس به؛ لأن الحجر إنما هو قطعة من البيت، ولذلك كان الطواف من خارجه وراء جداره، فتغطيته بالكسوة من الأمور التي لا يمنعها العلماء، وإن لم تجر العادة بذلك، وقد يستظرفها أرباب الهندسة والفنون الجميلة.

(١) ذكره مؤلف تاريخ الكعبة المعظمة ناقلاً عن الطبري في (الأرج المسكي). وفي كتاب الأعلام صحيفة ١٠١ مذكور أن كسوة حجر إسماعيل لما وصلت إلى مكة سنة ٨٥٢ هـ حفظت في جوف الكعبة سنة كاملة، ثم كسي بها الحجر في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ٨٥٣ هـ. المؤلف.؛ انظر: باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ص١٧٦.

الحفرة التي عند باب الكعبة

تكلم كثير من العلماء على الحفرة التي على يمين باب الكعبة المشرفة التي يبلغ طولها ٢٠٦ سنتيمترات، وعرضها ١١٢ سنتيمتراً، وعمقها ٢٧ سنتيمتراً.

ونأتي هنا بخلاصة شافية نسأل الله الهداية إلى الصواب.

قيل: إنها المعجن، عجن فيها إسماعيل عليه السلام الطين لبناء البيت الحرام، فهذا القول غير صحيح وبعيد الاحتمال لأمرين:

الأول: أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ما بنيا الكعبة المشرفة بالطين ولا بالجصّ، وإنما رضماها رضماً ولم يسقفاها، «فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أما والله ما بنياه بقَصّة ولا مَدَر[1]، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه، ولكنهما أُعلِماه فطافا به»[2] رواه الأزرقي في تاريخه.

الثاني: لو فرض أن إسماعيل كان يعجن الطين للبناء للزم أن يعجنه عند كل جهة من الجهات الأربع للبيت، حتى لا يحمله ويدور حول البيت فيتعب، على أن هذا الموضع صغير لا يكفي لعجن الطين الكثير اللازم لبناء البيت الحرام.

فعلم مما ذكرناه أن ما قيل: إن الحفرة هي معجن إسماعيل عليه السلام غير صحيح.

---

(١) القصة بالفتح: الجصّ، والمدر بفتحتين: الطين أو التراب المتلبد. قاله في المصباح المنير. المؤلف.

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٦٢.

وقيل: إن هذه الحفرة هي مصب لغسيل الكعبة، قاله ابن جبير في رحلته، فهذا القول لا يطابق الحقيقة والواقع كما هو مشاهد عندنا، ولربما سأل ابن جبير عن بعض من لا خبرة له فأفهمه ذلك، أو رأى بالمصادفة غسل الكعبة وامتلاء الحفرة من الماء فظنها كذلك، ولو كانت الحفرة لأجل تجمّع ماء غسيل الكعبة لكان من المعقول أن تجعل عند بابها تحت العتبة.

وبهذه المناسبة نذكر استطراداً أن أول من غسل الكعبة رسول الله ﷺ، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أمر بلالاً فرقِيَ على ظهر الكعبة فأذن بالصلاة، وقام المسلمون وتجردوا في الأزر، وأخذوا الدلاء، وارتجزوا على زمزم، فغسلوا الكعبة ظهرها وبطنها، فلم يدعوا أثراً من آثار المشركين إلا محوه وغسلوه»[١]. اهـ فمن هنا جرت العادة بغسل الكعبة من ذلك التاريخ إلى اليوم، وهي تغسل في العام مرتين بماء زمزم مضافاً إليه ماء الورد، ثم يطيبونها بالعطر ويبخرونها بالعود والعنبر والندّ، وغالباً يكون ذلك بحضور ولاة الأمور وكبار رجال الدولة. وقد تشرفنا بغسلها - ولله الحمد - سنة ١٣٦٧هـ [نحو ١٩٤٧م] يوم أن فتحوا لنا مقصورة المقام.

وقيل: إن شطر[٢] الحفـرة الملاصق للكعبة هو موضع مقام إبراهيم عليه السلام قبل أن ينقـله عمر رضي الله عنه، وهو أيضـاً موضـع المقـام حينما أخـذه سيل أم نهشل إلى أسفل مكة، فلما جاء عمر من المدينة نقله منه إلى موضعه الآن؛ فهذا القول غير بعيد، بل هو الصواب، كما علم ذلك مما سبق في تحقيق موضع المقام.

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٥/٢٢١). وسنده ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة.

(٢) قال في المصباح المنير: شطر كل شيء: نصفه. اهـ المؤلف.

وقيل: إن الحفرة هي مصلى جبريل بالنبي ﷺ حين فرضت الصلوات الخمس، وقد ذكر ذلك كثير من العلماء، منهم: الأزرقي، فروى بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أمّني جبريل عند باب الكعبة مرتين». فهذا القول إلى الصحة، بل هو الصواب أيضاً، ويطابق القول المتقدم؛ لأن مقام إبراهيم كان في شطر الحفرة الملاصق للكعبة، كما ذكر، فوافقت صلاتهما عنده قبل نزول: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فكأن صلاة جبريل بالنبي ﷺ هناك إشارة إلى أنه سيؤمر هو وأمته بالصلاة عند المقام، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الرد على من يقول إن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود

من المعروف في التاريخ أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمئة [نحو ٩٢٩م]، وفعل فيها وقومه أموراً منكرة، وأمر أبو طاهر جعفر بن أبي علاج البنَّاء بقلع الحجر الأسود، فقلعه لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من السنة المذكورة؛ وذهب به معه إلى بلاده هجر، وبقي موضعه من الكعبة المعظمة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك. ثم إن سنبر بن الحسن القرمطي وافى مكة بالحجر الأسود سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة [نحو ٩٥٠م] فوضعه بيده إلى موضعه من الكعبة وقال: أخذناه بقدر الله، ورددنا بمشيئة الله، وذلك يوم النحر من السنة المذكورة... إلخ.

فبعض المغفلين يظن أن القرامطة استبدلوا بالحجر الأسود حجر آخراً حينما ردوه إلى الكعبة، فهذا الظن في غير محله، وهو مردود بأمرين: تاريخي وديني: فالأمر التاريخي: أن التقي الفاسي ذكر في (شفاء الغرام) بعد أن ساق قصة القرامطة، وردّ سنبر القرمطي الحجر الأسود، ووضعه بيده في موضعه بالكعبة ما نصه: «ونظر الناس إلى الحجر فتبيّنوه وقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى، وكان رد الحجر الأسود في موضعه قبل حضور الناس لزيارة الكعبة يوم النحر، وكانت مدة كينونته عند القرمطي وأصحابه اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام، هذا معنى كلام المسبحي اهـ».

فقوله: ونظر الناس إلى الحجر فتبيّنوه وقبلوه... إلخ، صريح في أن الناس لم يستلموه إلا بعد التحقق منه والتثبت من عدم تغييره وتبديله، ولا يخفى أن مدة إقامة الحجر الأسود عند القرامطة هي اثنتان وعشرون سنة، وهذه المدة لا تحتمل موت جميع أهل مكة الذين أخذ الحجر الأسود أمام

أعينهم، ثم إن الحجر الأسود له مميزات خاصة ما كانت خافية على أهل ذلك العصر، وإن خفي علينا الآن بسبب الطوق الفضي العظيم المضروب عليه، حتى إنه لا يظهر منه إلا بعض قطع صغار.

جاء في كتاب (الإشاعة لأشراط الساعة) «أن محمد بن نافع الخزاعي قال: تأملت الحجر وهو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط، وسائره أبيض، وطوله قدر عظم الذراع». اهـ. ورؤيته الحجر كانت حينما قلعه القرمطي، وانظر في صحيفة ١٢٦ كيف يصفه بعضهم أيضاً.

وأما الأمر الديني: فقد روى الأزرقي عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا استلام هذا الحجَر فإنكم توشِكون أن تفقدوه، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة» وروى أيضاً عن عثمان أنه قال: وحُدِّثت عن مجاهد أنه قال: «كيف بكم إذا أسري بالقرآن ورفع من صدوركم ونسخ من قلوبكم ورفع الركن»، قال عثمان: وبلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يرفع الركن والقرآن ورؤيا النبي ﷺ في المنام»، وروى أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال، والحَجر الأسود قبل يوم القيامة»، وروى أيضاً عن يوسف بن ماهك أنه قال: «إن الله تعالى جعل الركن عيد أهل هذه القبلة، كما كانت المائدة عيداً لبني إسرائيل، وإنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم، وإن جبريل وضعه في مكانه، وإنه يأتيه فيأخذه من مكانه».

وجاء في (الإشاعة في أشراط الساعة): عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن، والمقام، ورؤيا النبي في المنام» أخرجه السجزي.

فيعلم من كلام النبي ﷺ المتقدم: أن الحجر الأسود نفسه يبقى في موضعه من الكعبة إلى يوم القيامة، فيرفع عندئذ بواسطة الملائكة، فلا يفقد بطريقة السرقة، ولا بالاعتداء.

هذا ما يؤمن به المسلمون، وهم أدرى بأمور دينهم، ولا عبرة بكلام غيرهم من أهل الشك والشرك، ومن أهل النفاق والشقاق.

بقي علينا من بحث الحجر الأسود نقطة مهمة يجب ذكرها، وهي:

أن الأستاذ يوسف أحمد – مفتش الآثار العربية سابقاً بالديار المصرية، ومحيي الخط الكوفي هناك في عصرنا الحاضر – رحمه الله – يقول في كتابه (المحمل والحج) بصحيفة ١٠٣ ما نصه:

«ولا ندري إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك[١] أو من طريق آخر» ويقول في صحيفة ١٠٤ من الكتاب المذكور ما ملخصه:

إن إبراهيم – عليه السلام – وضع الحجر الأسود إما أن يكون تذكاراً لصدعه بأمر ربه ببناء البيت المعظم، وإما أن يكون للعهد الذي أخذه على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس، وإما أن يكون قد أقامه حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه اهـ. هكذا يقول الأستاذ يوسف أحمد – رحمه الله تعالى – عن الحجر الأسود في كتابه المذكور.

ونحن مع احترامنا للأستاذ يوسف أحمد – رحمه الله – أحد مشايخنا الذين أخذنا عنهم الخط العربي حين إقامتنا بمصر، وأنه رجل من خيار الناس وأفاضلهم، لا يسعدنا إلا أن نردّ قوله بياناً للحقيقة فنقول:

---

(١) قال في المنجد: (يستعملون النيازك لما يظهر في السماء كنجوم تتساقط). المؤلف.

يظهر لنا أن الأستاذ يوسف أحمد لم يطلع على ما ورد من الأحاديث في حق الحجر الأسود، وأنه لم يقتنع بما رواه المؤرخون عن كيفية وضع إبراهيم عليه السلام له، وإلا لما قال ما قال عنه في كتابه، بل إنه نظر إلى الحجر الأسود كما ينظر إلى بعض الآثار القديمة، فكتب عنه ما بدا له على طريقة الاستنتاج، ونحن لا نتهمه قط، وهو رجل الاستقامة والفضل والذكاء، وإنما نلتمس له العذر؛ لأن نفسه متشبعة بالأبحاث الأثرية؛ فكم تقلبت بين يديه مئات الأحجار القديمة عندما كان مفتشاً للآثار بمصر ليبدي رأيه فيها، ويقيد ملاحظاته عليها؛ لكن لما كان الحجر الأسود المبارك غير تلك الأحجار وجب علينا أن نبين حقيقته؛ حتى لا يبقى أدنى شبهة لدى أحد من الناس فنقول:

لما بلغ إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في بناء البيت إلى موضع الحجر الأسود جاء به جبريل عليه السلام فوضعه في مكانه، وبنى عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه، فأضاء نوره شرقاً وغرباً، ويَمَناً وشاماً، فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم، وإنما كان سواده من خطايا بني آدم كما جاء في الحديث، وهذا أمر معنوي لا يدركه كل فرد، وقد اسودّ أيضاً من إصابته بالحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإسلام، كما تقدم بيانه في بناء قريش، وبناء ابن الزبير للكعبة.

فالحجر الأسود ليس من النيازك كما يظنه الأستاذ يوسف أحمد، وإنما هو والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، نزل بهما جبريل عليه السلام، ولولا أن الله تعالى أطفأ نورهما لأضاءا ما بين السماء والأرض، كما جاء ذلك صريحاً في بعض الأحاديث، «قال ابن عباس: «ولولا أن الله طمس ضوء الحجر الأسود ما استطاع أحد أن ينظر إليه»[١] وقال مجاهد: «الركن من الجنة ولو لم يكن من الجنة لفني».

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣٢٩

وكما أن إبراهيم - ﷺ - رفع قواعد البيت بأمر الله، فقد وضع الحجر الأسود فيه بأمره عز شأنه أيضاً، لا للعلل التي ذكرها الأستاذ يوسف أحمد، قال عكرمة: «إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر، فقد بايع الله ورسوله»، وقال ابن عباس: «الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده، كما يصافح أحدكم أخاه»[١].

ولقد جاء في فضل الحجر الأسود واستلامه أحاديث كثيرة لا لزوم لسردها؛ حتى لا يطول الكلام، نسأل الله التوفيق والهداية للصواب.[٢]

---

(١) انظر: الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص٣٢٤.

(٢) انظر: الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الآثار الواردة في (ما جاء في فضل الركن الأسود)، ج١، ص٣٢٢.

فضل إبراهيم وموسى على الأمة المحمدية

لئن جمعنا في هذا الفصل بين النبيَّيْنِ الكريمين: خليل الله، وكليم الله (إبراهيم وموسى) -عليهما السلام- في أياديهما البيضاء على الأمة المحمدية؛ لقد جمع الله بينهما أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[1]، وذلك أنه أنزل على سيدنا إبراهيم عشر صحف كانت كلها أمثالاً، وأنزل على سيدنا موسى قبل التوراة عشر صحف كانت كلها عبراً.[2]

فقد تساويا في مقدار إنزال الصحائف عليهما، كما تقارب مضمون صحائفهما في معانيهما، من الأمثال والعبر، والاتعاظ والذكرى، وقد تشابها أيضاً في الابتلاء والاختبار، فإبراهيم نجاه الله في صغره من قتل نمرود، كما نجاه من النار حين ألقي فيها، وموسى نجاه الله من قتل فرعون في صغره، كما نجاه من الغرق حينما ألقي في اليمّ وهو رضيع.

ولنذكر هنا ما لكل منهما علينا من الفضل: فسيدنا إبراهيم -عليه السلام- له فضل سنة على العرب والأمة المحمدية، وفضل خاص على أهل مكة.

فأما الفضل العام، على العرب والأمة المحمدية: فدعاؤه لهم بالهداية والتوفيق، كما في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان رقم ١٨ و١٩.

(٢) انظر في تفسير روح المعاني للعلامة الألوسي، فقد ذكر في آخر سورة الأعلى ما جاء بصحف إبراهيم وموسى عليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. المؤلف.: الطبعة الأولى (مصر: إدارة الطباعة المنيرية، ت. د.) ج٣٠، ص١١١.

ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(١)]، وفي آية أخرى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[(٢)].

وأما الفضل الخاص، على أهل مكة: فإنه أول من اكتشفها ونزل بها وعمرها، وأسكن فيه ابنه إسماعيل وأمه هاجَر، اللذين بسببهما ظهر ماء زمزم، وعلى يدي إبراهيم وإسماعيل بنيت الكعبة المعظمة، وإن إبراهيم ترك لديهم مقامه الكريم المحترم، وحرّم مكة وصيّرها مأمناً، ودعا لأهلها، وهو الذي أذّن في الناس بالحج ودعاهم إليه، فصاروا يقصدون مكة في أيام معدودات من كل فج عميق، وبذلك اتسع عمرانها، وكثرت أرزاقها وخيراتها. كما أتى كل ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[(٣)] وفي سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[(٤)] ولقد استجاب الله تعالى منه جميع دعائه بفضله ورحمته، فجزاه الله عنا ما هو أهله.

أما موسى الكليم عليه السلام: فإحسانه عظيم أيضاً على الأمة المحمدية قاطبة، حيث طلب من نبينا محمد ﷺ ليلة عرج به واجتمع معه في السماء أن يراجع ربه – عز وجل – في تخفيف الصلاة عن أمته التي فرضها الله تعالى عليهم أولاً، وقال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل رسول الله

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٢٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٤١.

(٣) الآية رقم ١٢٦.

(٤) الآيات من رقم ٣٥– ٣٧.

يرجع بين ربه عز وجل وبين موسى عليه السلام حتى بلغ التخفيف عنا إلى خمس صلوات كل يوم وليلة بعد أن كانت خمسين صلاة.

فموسى عليه السلام قد أحسن إلى جميع المؤمنين والمؤمنات في هذه المسألة إحساناً كبيراً، ووفق فيها أعظم توفيق، كيف لا؟ وهو الذي رأى من أحوال بني إسرائيل العجب العجاب، والحق أننا وصلنا في هذا الزمان إلى حالة من العجز والتقصير، لا نقدر أن نقوم بأداء هذه الصلوات الخمس حق أدائها، بل تهاون كثير بها في غير قطرنا حتى تركوها بتاتاً، والعياذ بالله، فكيف لو لم يخفف الله عنا بفضله ورحمته، فجزى الله موسى وإبراهيم ونبينا عنا ما هم أهله.

ولنختم هذا الكتاب القيم بآية شريفة جامعة، وهي: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[١].

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وآلهم وأصحابهم أجمعين ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٢٨٦.

(٢) سورة الصافات، الآيات من رقم ١٨٠- ١٨٢.

كلمة ختامية

يقول مؤلفه: (محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود الكردي المكي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة): لقد فرغت من تأليف هذا الكتاب الوحيد، القيم النفيس الفريد، في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ألف وثلاثمئة وسبع وستين هجرية [١٩٤٨/١/١٩م]؛ وذلك بمكة المشرفة بحارة الشامية[1]، زادها الله أمناً، وأماناً، ورزقاً، ورُخصاً، وعُمراناً، فكان اشتغالي به مدة أربعة أشهر، وبضعة أيام، وقد سميته [مقام إبراهيم عليه السلام] مع أن شطره الأول يتعلق بالكعبة والمسجد الحرام، والشطر الثاني يتعلق بالمقام، لكن لا تعاب الزيادة على العنوان، وإنما يعاب فيه النقصان، ومن حسن المصادفات أن يتلو طبعَ هذا الكتاب طبعُ مصحف مكة المكرمة الذي هو أول مصحف يطبع بها، والذي هو أول مصحف كتبته بيدي بتوفيق الله تعالى وفضله.

ولما كنت مشتغلاً بالتصنيف، مخالطاً العلماء أرباب التأليف يمكنني أن أقول: إنني لم أجد أصعب ولا أتعب ولا أشغل للإنسان من تأليف الكتب مهما تنوعت واختلفت، ولئن كان شيء يسرع في ضعف الإنسان وهرمه،

---

(١) حي من أحياء مكة القديمة، ومن أرقى الأحياء فيها، وهو من الأحياء المجاورة للحرم الشريف، تسكنه الطبقة الرفيعة من أبناء مكة المكرمة، من أشهر عوائله: آل شطا، والقطان، والعجيمي، والبصنوي، وعطا إلياس، وغيرهم، قد أزيل هذا الحي بكامله سنة ١٤٣٠هـ مع بقية الأحياء الأخرى كالقرارة، والشبيكة، وحارة الباب امتداداً إلى البيبان، وبئر طوى، حتى العتيبية في مخطط لتوسعة الحرم الشريف من الجهة الشمالية، شملت الإزالة الجانب الشرقي للحرم الشريف فهدم سوق الغزة، وريع أطلع من جبل أبي قبيس، تمت إزالتها في شهر رمضان سنة ١٤٣١هـ وقد سبق هدم كل من سوقي المدعى والجودرية حتى بلغ سوق المعلاة شمالاً.

إن ذلك الشيء إنما هو الاشتغال بالتأليف وحده، وفي الوقت نفسه تجد المؤلف مع وهنه وضعفه، قوياً في معلوماته، راسخاً في دراساته ومراجعاته، فكل شيء ينقص إذا أنفقت منه إلا العلم؛ فكلما أنفقت منه لغيرك بالإفادة، زادت معرفتك، مهما تكررت منك الإعادة.

فالاشتغال بالتأليف أو بالفنون الجميلة، هو الشغل الذي لا شغل بعده، والعمل الذي ينقطع إليه المرء وحده، وبينما تجده يبحث عن مسألة، إذا هو يعثر على أخرى؛ ولما يكمل الأولى بعد، وبينما تراه يحقق في بحث إذا هو يصل إلى غيره؛ لتشعّب الكلام وارتباط بعضه ببعض، وإنه كثيراً ما تطرأ عليه المسائل، وتنكشف له الدقائق، وهو يأكل أو يمشي، أو يريد النوم، لذلك يكون المؤلف الخبير بالأحوال لا يخلو عن القلم والورق، أنّى سار، وحيثما كان، ليقيد رؤوس المسائل التي تطرأ على فكره بغتة، حتى إذا ما رجع إلى حالة الاشتغال، قتلها بحثاً، وأشبعها درساً، تجده يبتعد عن الأهل والولد؛ خوفاً من أن يقطع أحد عليه أفكاره، ينفرد عن الناس بنفسه، وقد يصطفي شخصاً من شكله وجنسه، يساعده على البحث والتنقيب، ويبيض له مسوداته بنظام وترتيب. وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة ... يقرّ بها قلبي ويصفو بها ذهني
ويأخذ لي من سَورة الفكر نشوة ... فأخرج من فنّ وأدخل في فنّ
ويفهم ما قد قال عقلي تصوري ... فتنقلي عن أذني وسمعي بها مني
وأسمع من نجوى الدفاتر طُرفة ... أزيل بها همي وأجلو بها حزني
ينادمني قوم لديّ حديثهم ... فما غاب منهم غير شخصهمُ عني

ولست مبالغاً إن قلت: إنه يقضي الساعات الطوال، ويسهر أغلب الليالي بالاشتغال في المطالعة والكتابة، لا يسأل عن أكل ولا شرب، ولا

يصغي إلى حديث أو خبر، ولا تجد الراحة إلى جسمه سبيلاً، قد يعتريه الملل، وتتعب أعصابه، وهو مع ذلك يتطلب برهاناً ويستنبط دليلاً، وقد يريد النوم فيمتنع عليه لشدة تعبه المتواصل لإتمام ما لديه، فهو لذلك قد يكون مقصراً عن زيارات إخوانه وأحبائه، فإن الذى لا يؤدي حقوق نفسه، كيف يؤدي حقوق غيره؟ وهو في ذلك معذور مأجور، وفي عمله مغبوط مشكور.

مسكين المؤلف، يشغل حواسه الخمس، ويصل يومه بالأمس، ليريح طلاب العلم والفنون، ولأن يصل في بحثه إلى نتيجة مرضية، وخلاصة شافية، وأجوبة سديدة، أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، وأشد ما يكون فرحاً إذا ما اهتدى إلى حلّ مسألة عويصة كانت مستعصية عليه، أو أتى ببحث لم يسبقه إليه أحد.

ومن أعظم نعم الله على المؤلف، أن يرى عند عزمه على التأليف أنه سهل ميسور، وأنه لا تمر عليه مدة وجيزة إلا أنجزه وأتمه، فإذا ما ابتدأ فيه وظهر جزء منه، تفتق ذهنه عن مسائل لم يحلم بها، وطرأت على باله أبحاث لم يكن يتخيلها، وإذا هو في وادٍ متشعب، يرى من الواجب عليه أن يسلكه ويمهده، حتى يَخرج للناس بسِفرٍ هم في أمسّ الحاجة إليه.

فلو علم بادئ [ذي] بدء ما سيلقاه من المشقة والتعب، والصعوبة والنصب، لأبعد عن فكره خيال التأليف، وابتعد عن مسالك التكليف، مفضلاً الراحة والهناء، على نيل الفخر بالعناء، لكنه حاز الشرف والفخار، وأتته السعادة رغماً عنه بعون الله وتوفيقه.

أما ثوابه على عمله وجزاؤه، فهذا موكول إلى الله عز شأنه، فهو الذي لا يَضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، على أنه سبحانه وتعالى قد رفع ذكر العلماء، وأعلى شأنهم في الدارين، وحفظهم من التخريف مهما عمروا وتقدموا في سن الشيخوخة.

وأما تقديره ومكافأته في المجتمع الإنساني، فهذا راجع إلى الوسط الذي يعيش فيه، وإلى القوم الذين ينتمي إليهم؛ فعلى قدر مكانهم في العلم والأدب، وثقافتهم في مختلف الفنون، وخلوّهم من المكر والحسد يكون تقديرهم لمنزلته، ومعرفتهم لمكانته، وأكثر المؤلفين لا يظهر إلا بعد الممات.

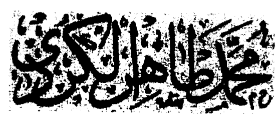
هذا بعض حالات المشتغلين بالتأليف (ولا ينبئك مثل خبير).

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

نسأل الله الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، التوفيق للخيرات، والحفظ من الذنوب والآفات، والسعادة في الدارين، والستر والأمن فيهما، والفوز بالجنة والنجاة من النار، والراحة عند الموت، والعفو عند الحساب، وغفر الله لنا ولوالدينا ولمشايخنا، ولجميع إخواننا، ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات؛ الأحياء منهم والأموات؛ في مشارق الأرض ومغاربها من يومنا هذا إلى يوم القيامة، آمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا، ونبينا، وشفيعنا محمد أبي القاسم الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين؛ وآل كل منهم وصحابتهم أجمعين.

المؤلف



الخطاط بالمعارف بمكة المشرفة

قال مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي المكي الخطاط (في الحكم والأمثال)

الإنسان تاريخ نفسه ،حركات المرء تدل على عقله، الوجوه تفصح عن الأخلاق، حفظ المعروف من المروءة، تقدير الأعمال يزيد نشاط العمال، لا تهد شيئاً لمن لا يقدره، مراعاة إحساس الأصدقاء تقوّي حبل الصداقة، العزيز إذا افتقر هان، دوام العزلة يميت النشاط والهمة، الاعتراف بالإحسان من كمال الإنسان، الاستبداد والقسوة يورثان البلادة والجفوة، إذا افتقر العاقل تعرض للزلل، هضم الحقوق موجب للعقوق، الكريم إذا ضاقت به الأحوال لم يختلط بالناس، المال أساس النجاح، لا ينهض المرء بفقره، الكريم بلا مال كالشجاع بلا سلاح، المال يستر العيوب، الأحمق واللئيم يضيع فيهما المعروف، كثرة الخضوع نفاق، لا يشقى من حالفه الحظ، لا تحتقر ضعيف اليوم فقد يصبح غداً عظيماً، لا تودد إلى من لا يعتبرك، الفوضى عاقبتها الفشل، الصبور إذا انتقم بطش، الانهماك في العمل يؤدي إلى الملل، من احترم غيره احترم نفسه.

ومن نظمه، عامله الله برحمته:

لقد استراح مِن الحياة وكدِّها ... ومِن الهموم ورؤية الأهوال
مَن مات أو مَن جُنَّ أو متبتِّل ... لزم القناعة صادق الأحوال

ومن نظمه أيضاً:

دع الأمرَ تحتَ القضَا والقَدَرْ ... فما ينفعُ العَقلُ لا والحذَرْ
فمَن رامَ سُخطاً على ما جَرى ... فذاك الكفُورُ وشرّ البَشرْ
ومن سَلَّمَ الأمرَ نال المُنى ... ومَا يبْتَغيهِ وَنال الظفَرْ

فصَبراً جَميلاً على مَا قضَا ... الإلهُ عسَاهُ يزيلُ الضَررْ
وَلا تَترُكنّ الدّعَا وَالطلَبْ ... فإنّ اللطيفَ به قد أمَرْ
وَلا تركبَنّ بِحَارَ الهوَى ... فإنّ المعاصِي قرينُ الخَطرْ

ومن نظمه متضرعاً إلى الله تعالى:

زدني بفرط الابتلاء تصبّراً ... والْطف بما قدّرته فيما جرى
يا من له عَنَت الوجوه جميعها ... رحماك فالعبدالذليل تحيّرا
إن لم يكن لي منك لطف شامل ... أو فضل إحسان عليّ مكرّرا
فمن الذي أرجو لكشف بليّتي ... أو مَن إليه أميل مِن بين الوَرى
والكلّ مفتقر إليك وسائل ... مِن فيض جودك نقطة أن تقطرا
لا أرتجي أحداً سواك وأنت لي ... نعم الملاذ ومَن رجاك اسْتبشرا
إني سألتك والهموم تراكمت ... والدهر عانَد والزمان تنكّرا
حاشا تخيّبُ مَن رجاك مؤمّلاً ... مهما جَنى أو كانَ فيك مقصّرا

وقال إقراراً بوحدانية الله تعالى:

الأمرُ لله ليس الأمرُ للفَلكِ ... ولا لزيدٍ ولا عَمْرو ولا مَلكِ
ما شاء كان وَما لمْ لمْ يكنْ أبداً ... فما هنالك مخلوق بمشترِكِ
تنزّهَ الله عن أهلٍ وَعنْ وَلدٍ ... وَعن شريكٍ فما في الأمر من شكَكِ
إليه وَجّهتُ وجهِي دائماً أبَداً ... له صَلاتي وصَوْمي مخلِصاً نسُكي

[ولتكن هذه الأبيات ختام مسك للكتاب]

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾

القسم الرابع

لواحق تكملة كتاب
مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

تقديم

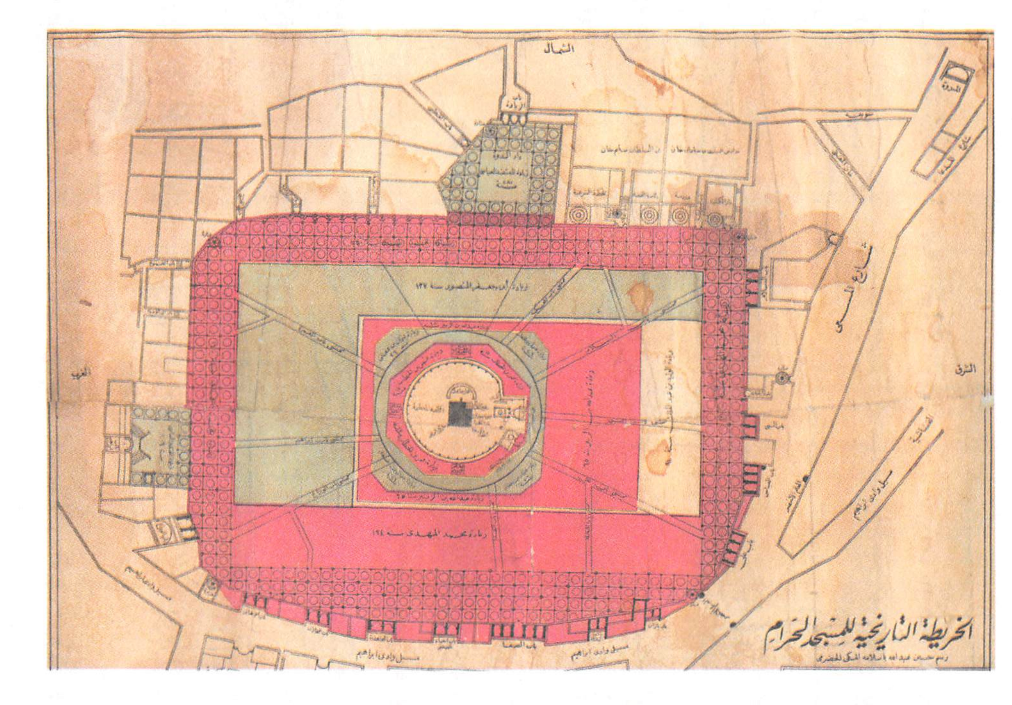
انتهى المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه (مقام إبراهيم) إلى الحديث عن مقام إبراهيم، عليه السلام، وتوقف عند نقطة معينة، وذلك قبل التوسعة السعودية الأولى للحرم المكي الشريف سنة ١٣٧٥هـ [١٩٥٥م]، وقد تم طبع هذا الكتاب قبل حدوث هذه التوسعة.

أما وقد تغيرت مكة المكرمة تشكيلاً جغرافياً، وسكانياً، واجتماعياً، وكل ما تبع ذلك فقد آثر المؤلف - رحمه الله تعالى - أن يكمل مسيرة العرض التاريخي لمقام إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - في كتابه الموسوعي (التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم) وجدير أن يستكمل هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ موضوعه لكل ما حدث بعد طبعته الأولى في هذه اللواحق، فقد حدث في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري مظاهر كثيرة في الحياة الاجتماعية، عكست آثارها على الحياة في مكة المكرمة من هذه المظاهر: كثرة الوافدين على مكة المكرمة للزيارة حجاً أو عمرة، حتى بلغت الأعداد الملايين وضاقت بهم المشاعر، ومن جملة هذه المشاعر، وأهمها المطاف بالبيت الحرام، مما استدعى التفكير في توسعته، وإزالة كافة أسباب الزحام، تمخض هذا عن عدة مشروعات في سبيل تحقيق التوسعة على الطائفين، أُزيل لهذا السبب جميع مقامات المذاهب الأربعة التي كانت تحيط بالمطاف، ومن جملة هذه الإزالات بالمطاف: إزالة مقصورة مقام إبراهيم - عليه السلام -، واحتدام النقاش بين العلماء في جواز تأخيره أو إبقائه في مكانه، هذا ما تحكيه اللواحق القادمة عن مقام إبراهيم - عليه السلام - تاريخاً قديماً بالتفصيل.

اللاحقة الأولى
خريطة الشيخ باسلامة

استعرض المؤلف -رحمه الله تعالى - التوسعات في الحرم الشريف عبر العصور، وقد كان لفضيلة العلامة الشيخ حسين عبدالله باسلامة المكي - رحمه الله تعالى - مزيد اهتمام بمكة المكرمة بعامة، وبالمسجد الحرام والمشاعر المقدسة بخاصة، فألف فيها المؤلفات الثمينة المفيدة، وأصبحت مؤلفاته مصادر يرجع إليها المؤلفون في عصره وبعد عصره، لتميز كتابته بالدقة والاستيعاب، ومن جملة اهتماماته: رسمه توسعات الحرم الشريف عبر التاريخ بأسلوب علمي فني واضح؛ تيسر للقارئ استيعاب ما تم للحرم الشريف من توسعات عبر العصور، وقد اعْتمِد عليها في التوضيح في الدروس العلمية، والمؤلفات.

المؤلف فضيلة الشيخ محمد طاهر الكردي المكي في كتابه هذا لـ(الزيادات التي حصلت في المسجد الحرام) ذكر أنه رسم صورة تقريبية تبيّن تلك الزيادات فيه على نمط خريطة المحقق الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى، قد سبق عرضها، وفيما يلي عرض الخريطة الأصل للشيخ حسين عبدالله باسلامة رحمه الله تعالى:



الخريطة الأصل للشيخ حسين عبد الله باسلامة رحمه الله تعالى

اللاحقة الثانية
اقتراح المؤلف فيما يخص مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

«لقد كان مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في الجاهلية وصدر الإسلام مكشوفاً من دون غطاء، يراه الخاص والعام، ومنذ نحو خمسة قرون عندما كان الحجاز وجميع الممالك الإسلامية تحت حكم الدولة العثمانية، ومن هذا التاريخ جعلت الحكومة العثمانية صندوقاً خشبياً على مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجعلت على هذا الصندوق ستارة من الحرير الجيد، منقوشة بالذهب والفضة، عليها بعض الآيات القرآنية، فأصبح هذا الشكل كأنه تابوت وضع على مقبرة.

فنقترح رفع هذا الصندوق الخشبي وما عليه من الستارة ليكون المقام الكريم مكشوفاً يراه جميع الناس من أهل البلاد والحجاج، وأن يُجعل في داخل مقصورة المقام زجاج سميك يحيط بالمقصورة من جميع الجهات، بحيث لا يكون له منفذ لدخول الغبار، ورمي الأوراق فيه؛ ليحفظ هذا المقام الكريم من كل شيء، وأن تُجعل في داخل المقصورة لمبات كهربائية قوية تنير هذا المقام الكريم ليلاً، وبذلك يكون المقام تحت أنظار المسلمين كافة، فإنه لا معنى لحجبه وستره عن أعين الناس».[١]

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٤٩.

اللاحقة الثالثة
(أول تفكير في تاريخ الإسلام)
لنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن موضعه الأصلي

«لقد فكرت حكومتنا السعودية في نقل مقام إبراهيم - عليه الصلاة والتسليم - عن موضعه الأصلي الذي يبعد من باب الكعبة المعظمة بمقدار اثني عشر متراً، وتأخيره عن موضعه الأول إلى ما يقابله بمقدار الأمتار المذكورة تقريباً لتوسعة المطاف، وذلك في سنة (١٣٧٧هـ) سبع وسبعين [وثلاثمئة وألف] هجرية بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المعظمة.

لقد عزمت الحكومة في نقل هذا المقام الكريم عزماً أكيداً، حتى إنها بنت مقصورة جديدة عند باب بني شيبة بمقدار المقصورة الأولى التي في داخلها حجر المقام، ثم تراجعت، وأبطلت هذه الفكرة، وهدمت هذه المقصورة الجديدة في أسرع وقت بعد أيام من بنائها؛ وذلك في يوم الأحد الموافق ٢٥ شوال سنة (١٣٧٧هـ) [١٩٥٨/٥/١٤م] نزولاً على الرأي العام، فإن جميع الناس في داخل المملكة وفي خارجها لم يرتضوا ذلك، قائلين: إن هذا المقام الكريم وضعه نبينا «محمد» ﷺ في هذا المحل المعروف أو وضعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - فيه لا يجوز نقله من محله الأصلي ووضعه في مكان آخر، ولا ينبغي لنا ذلك ونحن في آخر الزمان مغمورن في بحر الفتن والشرور والفساد.

ثم إن بعض العلماء في المملكة السعودية رأى أنه لا بأس بنقل مقام إبراهيم - عليه السلام - من محله الأصلي، وتأخيره إلى محل آخر توسعة للناس في حال الطواف، ورأى بعضهم عدم جواز نقله من محله الأصلي مطلقاً،

فألف بعضهم في جواز نقله مؤلفاً، كما ألف بعضهم في عدم جواز نقله مؤلفاً أيضاً، فظهر في المحرم سنة (١٣٧٨هـ) هجرية [١٩٥٨م] رسالة صغيرة مطبوعة اسمها «مقام إبراهيم» عليه الصلاة والسلام وهل يجوز تأخيره عن موضعه عند الحاجة لتوسيع المطاف - ألفها الشيخ عبدالرحمن ابن يحيى المعلمي اليماني - مدير مكتبة الحرم المكي - حكم في رسالته هذه بجواز نقل المقام عن موضعه.

ثم إن فضيلة الشيخ سليمان بن عبدالرحمن بن حمدان، قام فألف كتاباً في الرد على رسالة المعلمي اليماني المذكور، وسماه (نقض المباني من فتوى اليماني وتحقيق المرام فيما يتعلق بالمقام) وقد طبع هذا الكتاب في المحرم سنة (١٣٨٣هـ) هجرية [١٩٦٣م] بالقاهرة.

ثم إن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - مفتي المملكة العربية السعودية - ألف كتاباً في الرد على كتاب الشيخ سليمان بن عبدالرحمن المذكور، سماه (نصيحة الإخوان ببيان بعض ما في نقض المباني لابن حمدان من الخبط والخلط والجهل والبهتان) وفي آخر هذا الكتاب رسالة أخرى سماها (الجواب المستقيم في جواز نقل مقام إبراهيم) لسماحة المفتي المذكور أيضاً.

ثم ظهر كتاب رابع اسمه (سبيل السلام في إبقاء المقام) لفضيلة الشيخ إبراهيم نياس الكاولخي - شيخ الإسلام بجمهورية السنغال - برهن فيه على وجوب إبقاء المقام الكريم في محله الأصلي، كما هو ظاهر من عنوان الكتاب.

هذه هي الكتب التي ظهرت عن شأن نقل مقام إبراهيم - عليه السلام - في زماننا هذا عند توسعة المطاف أول مرة في التاريخ، ولم يكن في العصور الماضية من يخوضون في هذه المسألة مطلقاً منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، ومما يجدر بالذكر أن حكومتنا السعودية إلى وقت طبع هذا التاريخ القويم، لم تبد رأياً حاسماً في مسألة نقل مقام إبراهيم - عليه السلام - من محله، والظاهر

أنها صرفت النظر عنه، وخيراً ما فعلت، فإنه وإن رأى بعضهم جواز نقل المقام الكريم من محله إلى محل آخر توسعة للناس، فبقاؤه في محله الأصلي أولى وأفضل، لمرور أربعة عشر قرناً عليه، ولئلا نثير تبلبل أفكار المسلمين في جميع الأقطار، ونحن في زمان الفتن والشرور.

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يؤلف بين المسلمين وينصرهم على أعدائهم، وأن يختم حياتنا على الإيمان التام، واليقين الكامل، والعمل الصالح، ونحن على طهارة ونظافة، براحة تامة، في أبرك الأوقات، وأشرف الساعات، وفي بلده الطاهر الأمين، بفضله ورحمته آمين»[١].

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٥١- ٥٢.

اللاحقة الرابعة
متابعة مقترحات المؤلف حول مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

«كنا اقترحنا في كتابنا «مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام» المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر في سنة (١٣٦٨هـ) هجرية [١٩٤٨م] أول مرة؛ وذلك بصحيفة ١٣١ بأن ترفع الحكومة السعودية الستارة والتابوت الخشبي من فوق المقام الكريم، وتغطيه بغطاء زجاجي قوي سميك، وتقدمنا أيضاً بهذا الاقتراح إلى الجهات المختصة.

ثم قام مشروع توسعة المسجد الحرام بعد ذلك، أي: في سنة (١٣٧٥هـ) هجرية [١٩٥٥م] إلى وقتنا هذا، وقد أوشك على الانتهاء، والآن وما زال المشروع قائماً عزمت حكومتنا السعودية على كشف مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ورفع الستارة والتابوت الخشبي، أي: الصندوق من فوق، وإزالة المقصورة الحديدية عنه توسعة للمطاف لراحة الطائفين، ووضع غطاء زجاجي عليه، ليظهر هذا المقام الكريم لجميع الناس مدى الأيام والأعوام.

وبالفعل فقد نجح اقتراحنا، ولله الحمد؛ وذلك بعد تسعة عشر عاماً من طبع كتابنا المذكور، فلكل أجل كتاب، ولكل شيء وقت معلوم، لقد بقي هذا المقام الكريم بجوار الكعبة المعظمة منذ آلاف السنين، معجزة ظاهرة خالدة، كرامة وذكرى لخليل الله تعالى سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وزيادة في تكريمه وتشريفه أمرنا الله - تبارك وتعالى- أن نصلي عند مقامه الشريف، كما جاء ذلك صريحاً في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وهو واقع أمام باب الكعبة المعظمة،

فالناس يصلون عنده منذ نزول هذه الآية الكريمة إلى قيام الساعة، فما أعظم هذه المنقبة، وما أعظم هذه الذكرى لخليل الله تعالى عليه السلام، وإذا تأملت في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ ظهر لك فضل البيت الحرام، ومقام إبراهيم عليه السلام، فما أكرم خليل الله تعالى على ربه عز وجل!

إذا تأملت في هاتين الآيتين الكريمتين تسبح في آفاق بعيدة من ملكوت الله تعالى، ويظهر لك كثير من دقائق الأمور الخافية على غيرك.

فلقد أحسنت حكومتنا السعودية في كشف هذا المقام الكريم، ووضع غطاء زجاجي عليه، مع المحافظة على محله الأصلي، وعدم زحزحته عنه، ليظهر للعالم الإسلامي حقيقة هذا المقام الكريم، فإن العوام يظنون هذا المقام عبارة عن موضع قبر خليل الله إبراهيم، عليه أفضل الصلاة والسلام والتسليم، وبعضهم يظن أنه موضع صلاته وعبادته، وليس الأمر كذلك، بل إنه عبارة عن حجر من جنس الرخام، طلع فوقه سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ليبني عليه بيت الله الكريم بعد أن ارتفعت جدرانه، فإنه ما كان يستطيع البناؤون وهو واقف على الأرض فكان هذا المقام كالسلم، والسقالة الخشبية التي يعملها البناؤون للوقوف عليه عند البناء...»[1].

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٥٥.

اللاحقة الخامسة
وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ورفع المقصورة الحديدية التي كانت عليه

«لقد قررت رابطة العالم الإسلامي التي تعقد في موسم الحج من كل سنة رفع المقصورة الحديدية التي كانت موضوعة فوق مقام إبراهيم - عليه السلام - منذ مئات السنين، ويوضع بدلاً منها زجاج قوي جميل على المقام الكريم نفسه مع بقائه في محله الأصلي من غير تحريكه ولا زحزحته عن موضعه أبداً، ونرى أن هذا القرار هو نعم القرار، فيه راحة للمسلمين بتوسعة المطاف، مع بقاء المقام الكريم في محله الأصلي القديم.

ولقد نشر هذا القرار في الصحف المحلية، فقد ذكرت جريدة المدينة المنورة الصادرة بتاريخ ٨ صفر سنة ١٣٨٥ هجرية [١٩٦٥/٦/٨م] عن قرار المجلس ما يأتي:

أعلنت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أن المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي قد اتخذ في جلسته الحادية عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٥ من ذي الحجة سنة ١٣٨٤هـ [١٩٦٥/٤/٢٦م] قراراً خاصاً بمقام إبراهيم عليه السلام، وفيما يأتي نصه:

تفادياً لخطر الازدحام أيام موسم الحج، وحرصاً على الأرواح البريئة التي تذهب في كل سنة تحت أقدام الطائفين، وهذا الأمر ينافي سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها، وعدم تكليفها النفس البشرية أكثر مما في وسعها، يقرر المجلس الموافقة على المشروع الآتي ورفعه إلى الجهات السعودية المختصة...

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد فبناء على ما منَّ الله تعالى به على حكومة هذه المملكة العربية السعودية من التوفيق لتوسعة الحرمين الشريفين، توسعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإسلامي، وبناءً على ما أفاء الله على هذه البلاد المقدسة في عهد هذه الحكومة الرشيدة من الخير العظيم، والفضل العميم، وما يسره من توطيد الأمن في ربوع هذه الديار المقدسة، وتيسير السبل لأداء فريضة الله على عباده في الحج إلى بيته الحرام، الذي جعله مثابة للناس وأمناً، فقد أصبح عدد من يؤم البيت الحرام لأداء هذه الفريضة أضعافاً مضاعفة عما شاء الله أن يزداد عدد الحجيج في المستقبل عاماً بعد عام، وإن أشد ما يقع الزحام والضيق الآن بعد توسعة المطاف هذه التوسعة الكبيرة التي شكرها المسلمون جميعاً لحكومة هذه البلاد في الجزء من المطاف الذي يقع بين الركن الذي فيه الحجر الأسود، وبين مقام إبراهيم، ويحصل بسبب ذلك الزحام للطائفين على اختلاف أنواعهم، من الحرج والمشقة ما الله تعالى به عليم، كما يقع الخلل في هذه العبادة الشريفة، وهي الطواف الذي هو أحد أركان الحج التي لا يتم الحج إلا بها، لفقدان ما يطلب به في هذه العبادة من الخشوع، والخضوع، والتذلل لله تعالى، وصدق التوجه إليه حتى إن المرء لينسى من شدة الزحام والمضايقة أنه في عبادة الله عز وجل لا يهتم إلا بتخليص نفسه، وتخليص من معه إن كان معه من يحتاج إلى التخليص من الضعفة، والخصام، والمشاتمة، والعراك، والمضاربة بالأيدي، بل لقد زاد الأمر على ذلك وأدى إلى الموت الزؤام، وإزهاق بعض الأرواح من الضعفة والشيوخ والنساء دهساً بالأرجل، كما حصل ذلك في السنوات الأخيرة، وفي هذه السنة بالذات حيث مات في المطاف بسبب الزحام عدد من الأنفس، وقد ارتفعت هذه الشكوى إلى الله تعالى، ثم إلى ولاة الأمور في هذه المملكة من كل من شاهد بعيني رأسه هذه الأخطار العظيمة، والمضار الجسيمة، التي تلحق الطائفين

في هذا الجزء من المطاف، مطالبين، وملحين بوجوب إيجاد حل سريع لهذه المشكلة التي هي على جانب كبير من الأهمية والخطورة، وعلى ضوء هذه الحوادث البالغة الخطورة، والتي لا يجوز لأهل العلم، وحماة الشريعة الإسلامية السكوت عنها، والتغاضي عنها؛ لأن من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، فقد طلب سماحة رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ طرح هذه القضية على بساط البحث في جلسة المجلس المنعقدة في مساء يوم الاثنين الموافق (١٣٨٤/١٢/٢٤هـ) هجرية [١٩٦٥/٤/٢٥م] أن يبدي حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس التأسيسي آراءهم فيه على هدي نصوص كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأحكام الشريعة السمحة التي جاءت بالخير والرحمة، ورفع الضيق والحرج عن هذه الأمة الإسلامية.

وبعد البحث والمذاكرة وتداول الرأي بين الجميع تقررت الموافقة بإجماع الآراء على ما يأتي:

١- بالنظر إلى ما تدعو إليه الضرورة في أيام مواسم الحج من توسعة المطاف في الجزء الذي بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم فإنه يجب على الفور - حلاً لهذه المشكلة العظيمة - إزالة جميع الزوائد الموجودة حالياً في هذا الجزء من المطاف، كالهيكل القائم على مقام إبراهيم ش، وكالعقد المسمى بباب بني شيبة؛ لأن جميع هذه الزوائد لا تمت إلى مقام إبراهيم بأي صلة، كما أن الهيكل الموجود حالياً فوق مقام إبراهيم لم يكن موجوداً في صدر الإسلام، إنما هو من المحدثات التي أحدثت في القرون الوسطى، كما هو مدون في كتب التاريخ، ومعظم الزحام إنما ينشأ من وجود هذه الزوائد التي لا ضرورة لبقائها، بل بإزالتها يزول عن الطائفين والقائمين والركع السجود كثير من الضيق، والحرج، والمشقة؛ وذلك عملاً بمقتضى قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقوله

تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ وحديث «يسروا ولا تعسروا» وغيره من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى.

٢- أن يجعل مقام إبراهيم ش بدلاً من الهيكل الحالي بعد إزالته في صندوق من البلور السميك القوي على قدر الحاجة فقط، ويكون مدوراً وبارتفاع مناسب لئلا يتعثر به الطائفون، وبذلك تحصل التوسعة لهذا الجزء من المطاف، ويزول كثير من الحرج، والمشقة، والضيق، كما يتسنى للكثير من العامة رؤية مقام إبراهيم من غير أن تصل أيديهم إليه، ومعرفة المقام على حقيقته، وأن الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند رفع القواعد من البيت؛ لأن كثيراً من العوام يظنون أن بداخل الهيكل الموجود حالياً قبر إبراهيم ش.

٣- أن يتقدم بالتماس باسم رابطة العالم الإسلامي إلى حكومة جلالة الملك فيصل المعظم رجاء تنفيذ جميع ما ذكر على الفور، وقبل حلول موسم الحج الآتي، وبالله التوفيق.انتهى من الجريدة المذكورة»[1].

---

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٥٣- ٥٤.

اللاحقة السادسة
يوميات إزالة المقصورة

«وإليك البيان بالتفصيل عن إزالة المقصورة الحديدية القديمة لمقام إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ورفع الستارة والصندوق الخشبي من فوقه، ووضع الزجاج القوي عليه، مع شباك حديدي جديد، أي: مقصورة حديدية بدلاً عن الأولى.

ولقد نيط هذا العمل بمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة برئاسة سعادة الشيخ محمد صالح القزاز، فابتدؤوا في العمل من صباح يوم السبت الموافق الحادي عشر من شهر رجب سنة (١٣٨٧هـ) ألف وثلاثمئة وسبع وثمانين هجرية [١٤/١٠/١٩٦٧م]، فأحاطوا مقصورة المقام الكريم بالأخشاب من جميع الجهات الأربع، وجعلوا فيها باباً للدخول والخروج، وهذه الإحاطة بالأخشاب تمكن العمال من الاشتغال في المقام من دون تشويش من الناس الذين يجتمعون عنده، فلا يدخل عليهم، من باب الأخشاب إلا العمال والخدم، وبعض الأشخاص من الموظفين الكبار، والفضلاء من العلماء والوجهاء، ولقد دخلناه مع الداخلين، ولله الحمد، لنكتب عنه هذا المبحث الفريد في كتابنا [التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم] هذا الذي يطبع الآن في بيروت، وفي كتابنا الآخر المطبوع بمصر، وهو كتاب «مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام» عند إعادة طبعه قريباً للمرة الثانية[١]، إن شاء الله تعالى، وهذه هي المرة الثانية في حياتنا ندخل هذا المقام الكريم، وأما المرة الأولى فقد دخلناه منذ عشرين عاماً، أي: في سنة (١٣٦٧هـ) ألف وثلاثمئة وسبع وستين هجرية

(١) لم يقدر له الطبع مرة ثانية في حياة المؤلف رحمه الله تعالى.

[١٩٤٧م]، وذلك بأمر ملكي عندما بدأنا في تأليف كتابنا «مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام» فالحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين.

وبمناسبة إحاطة المقام الكريم بالأخشاب نقول: إن سيدنا عبدالله بن الزبير - رضي الله تعالى عنهما - هو أول من أحاط الكعبة المعظمة بالأخشاب عند بنائه لها، وذلك سنة (٦٤ هـ) أربع وستين من الهجرة [٦٨٣م] حرمة للكعبة المعظمة أولاً، وليتمكن العمال من الاشتغال في البناء براحة تامة من دون تشويش عليهم من الناس المجتمعين، فصار الناس يتبعون سنته في البنايات المحترمة المهمة إلى يومنا هذا، فنعمت البدعة هذه، البدعة الحسنة، ورضي الله تعالى عن صحابة رسول الله - صلى الله عليه - أجمعين.

ثم إنه في اليوم المذكور، وهو يوم السبت ١١ رجب من السنة المذكورة أزالوا باب بني شيبة، وهو العقد القائم خلف مقام إبراهيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وبجوار بئر زمزم والمنبر، وهو الذي كان يسمى قديماً منذ صدر الإسلام بباب السلام، والذي يسنّ الدخول منه إلى المسجد الحرام، فقد كان رسول الله ﷺ يدخل منه إلى المسجد الحرام، ويخرج منه أيضاً، وقد كان باب بني شيبة حد المسجد الحرام من الجهات الثلاثة، في زمن رسول الله ﷺ وزمن أبي بكر رضي الله عنه، وما وراء ذلك هو من زيادات الخلفاء أمراء المؤمنين، رضي الله تعالى عنهم، وسمي هذا الباب بباب بني شيبة لوقوع دورهم في مواجهته، وكذلك دخول رسول الله ﷺ وخروجه منه إلى المسجد الحرام لوقوع داره في جهته أيضاً، فمحل باب بني شيبة الذي أزيل اليوم هو حد المسجد الحرام، وحد المطاف قديماً أيضاً. ومرادنا بالقديم هو الذي حصل فيه الزيادة اليوم في زماننا؛ لأن المسجد الحرام كان هو المطاف القديم سواء بسواء، فلما زاد الخلفاء بالمسجد الحرام عملوا حداً للمطاف

القديم، وفي زمانا هذا زادوا في المطاف القديم ووسعوه لكثرة الناس، بيَّنَّا ذلك بالتفصيل التام في هذا الكتاب، ولقد تكلمنا على باب شيبة في غير هذا المحل من الكتاب.. (وبعد إزالة باب بني شيبة وضع مكانه رخام أسود إشارة إلى محله).

ثم إنه في يوم الأحد ١٢ رجب سنة ١٣٨٧ هـ هجرية [١٩٦٧/١٠/١٥م] قاموا بإزالة المقصورة الحديدية المحيطة بالمقام الكريم، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وهذه المقصورة، أي: الشباك الحديدي نفسه طولها ثلاثة أمتار، وعرضها مثل ذلك، وارتفاعها مثل ذلك، ومساحة المصلَّى الذي يلي المقصورة مثل ذلك أيضاً، أي: ثلاثة أمتار.

ثم في يوم الاثنين ١٣ رجب من السنة المذكورة قاموا برفع ما بقي من الأنقاض والأحجار والأتربة حتى بلغوا الأساس القديم، ولقد وجدوا أن المقام الشريف مركب على قاعدة من الحجر المربع طوله خمسون سنتيمتراً، وعرضه مثل ذلك، قد حبس هذا الحجر بأربعة أسافين من الحجارة الضخمة، تثبيتاً له حتى لا يتزحزح عن مكانه، فلم يمس العمال هذا الحجر بسوء، بل لم يزل مكانه، وهذا الحجر ينزل عن سطح أرض المطاف بنصف متر، ويظن الذي رأى هذا الحجر أنه من وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، والله تعالى أعلم، فقولنا: «حتى بلغوا الأساس القديم»، أي: بلغوا جوانب الأساس من غير أن يمسوا الأساس نفسه، ومن غير أن يحركوا حجر المقام الكريم نفسه، فكل شيء قديم بقي على ما هو عليه.

ولقد وجدوا في هذا المحل قطعة من خشب الساج القوي، طولها ٢٧ سنتيمتراً، وعرضها ١٦ سنتيمتراً، وسمكها، أي: غلظها سنتيمتران، مكتوب فيها حفراً بالحديد ما يأتي:

«سلطان عبدالعزيز خان حضرتلري زمان سلطنلري إمارة مكة المكرمة الشريف عبدالله باشا حضرتلري، حقي باشازاده أحمد عزت باشا حضرتلري – جدد.... مهندس عبدالعزيز نظارت معماري محمد صديق كابلي معرفتلر خليل إبراهيم..... معلمي رصاص مصري محمد إبراهيم سنة ١٢٨١هـ صفر».

انتهى ما كان مكتوباً على القطعة الخشبية، وهذا النوع من الخشب يقال له: «الساج» وهو نوع لا يوجد أقوى منه من الأخشاب، فلا يدخل فيه السوس ولا يأكله التراب، فإذا نظرنا إلى تاريخ وضع هذه القطعة الخشبية في المقام الكريم وهو سنة (١٢٨١هـ) [نحو ١٨٦٤م]، وإلى هذه السنة التي وقع فيها إصلاح المقام الكريم، وهي سنة (١٣٨٧هـ) [١٩٦٧م] رأينا أنه قد مر على هذه القطعة الخشبية أكثر من مئة عام، وهي سليمة سالمة من السوس والتأكّل، كما رأيناها بأنفسنا.

والكلمات التي لم نتمكن من قراءتها في هذه القطعة الخشبية وضعنا بدلاً منها بعض النقط، كما تراها هنا؛ لأن هذه الكتابة مكتوبة باللغة التركية، وبحروف عربية، بخلاف اللغة التركية في عصرنا اليوم، فإنهم يكتبونها بالحروف اللاتينية، فلقد استبدلت الأتراك بالحروف العربية الحروف اللاتينية بعد الحرب الأولى، أي: من سنة (١٣٤١) ألف وثلاثمئة وإحدى وأربعين هجرية تقريباً [١٩٢٢م] أي: بعد سقوط الخلافة الإسلامية من أيديهم.

(واعلم) أن القطعة الخشبية من الساج التي وجدت في داخل المقام الكريم، لم توضع هناك منذ يوم وضع المقصورة الحديدية القديمة فوق المقام الشريف، وإنما وضعت فيه في زمن حكم السلطان عبدالعزيز خان من آل عثمان الأتراك سنة (١٢٨١هـ) هجرية [١٨٦٤م] كما هو مذكور صريحاً في القطعة الخشبية، فالسلطان

عبدالعزيز خان – رحمه الله تعالى وأحسن إليه – أمر في هذه السنة المذكورة بتطويق الحجر الأسود بالفضة، كما أمر بترميم المسجد الحرام، وأمر أيضاً بزيادة رفع قبة مقصورة المقام الكريم، فرفعوها نحو ذراع ونصف، حتى لا تمس الرفاف التي حول المقصورة من الأعلى رؤوس الناس، فأراد القائم على هذه الأعمال في المسجد الحرام تسجيل هذا العمل للسلطان المذكور، فوضع القطعة الخشبية المذكورة بعد أن كتب عليها التاريخ مع الجملة المذكورة، في أشرف مكان وآمنه، وهو داخل مقام سيدنا إبراهيم الخليل، عليه أفضل الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم، فرحم الله تعالى المتقدمين منا، ورحمنا إذا عدنا إليهم بفضله وكرمه آمين.

ثم في يوم الثلاثاء ١٤ رجب من السنة المذكورة رفعوا الغطاء الداخلي الذي كان موضوعاً فوق المقام الشريف، وهو صندوق خشبي، عليه ستارة من الحرير المكتوب، ثم عملوا حول المقام الكريم من الأرض إلى أعلاه، قاعدة من الرخام تحيط به، وهي على شكل سداسي تقريباً، طوله مئة وستون سنتيمتراً، وعرضه مئة وعشرة سنتيمتراً، وارتفاعه خمسة وسبعون سنتيمتراً، والصندوق المذكور كله ملبس بالفضة، وقد كتب عليها بعض آيات قرآنية، ونحن نذكرها بالتفصيل في كتابنا المطبوع بمصر، وهو كتاب «مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام» وفيه بيانات كثيرة عن هذا المقام الكريم، فليرجع إليه من شاء.

ثم في يوم الأربعاء ١٥ رجب من السنة المذكورة، صار يشتغل العمال بتكميل تركيب القاعدة الرخامية الجديدة المذكورة، والرخام لونه أسود، مأخوذ من جبال تبعد عن مكة المشرفة بنحو مئة كيلو متر.

ثم يوم الخميس ١٦ رجب من السنة المذكورة، وضعوا قاعدة نحاسية مدورة مثقوبة من وسطها، زنتها ستمئة كيلو غراماً، والثقب

على قدر ما يظهر المقام الكريم فقط، وقطر الثقب أربعون سنتيمتراً، وفوق القاعدة النحاسية وضعوا الغطاء الزجاجي على المقام الكريم نفسه، ثم ركبوا عليه المقصورة الحديدية الجديدة، وهي الشبابيك، وهي أصغر حجماً من المقصورة القديمة الأولى، فطولها متر واحد وستون سنتيمتراً، وعرضها متر واحد وعشرة سنتيمترات، وارتفاعها إلى هلالها ثلاثة أمتار، أي: أن حجم المقصورة الجديدة أصغر من المقصورة القديمة لتوسعة المطاف، وقد اشتغلوا يوم الخميس إلى منتصف ليلة الجمعة في العمل في الإصلاح، وتثبيت المقصورة في الأرض.

ثم في يوم الجمعة ١٧ رجب من السنة المذكورة، عملوا في تنظيف ما حول المقام الكريم مما بقي من آثار العمل والشغل، حتى صار المكان في نظافة تامة ليس فيه أثر للأتربة والغبار، والحمد لله رب العالمين.

ثم في يوم السبت ١٨ رجب من السنة المذكورة، رفعوا الأخشاب التي أحاطوا بها مقصورة المقام الكريم في ابتداء العمل، ثم بعد عصر هذا اليوم المذكور صار الاحتفال برفع الستارة عن مقام إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– وذلك بحضور جلالة الملك المعظم فيصل بن عبدالعزيز آل سعود – ملك المملكة العربية السعودية – وبحضور السادة الأمراء والعلماء والوزراء، وأعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وأعيان البلاد وفضلائها وجمع غفير من الناس – ثم قبل غروب الشمس من اليوم المذكور بنحو ساعة، حضر إلى المسجد الحرام جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، فطاف بالبيت الحرام، ثم قصد المقام فصلى عنده ركعتي الطواف، ثم قام يكشف الستارة عن غطاء هذا المقام الكريم إيذاناً بانتهاء العمل فيه، وترك الناس يوالون الصلاة عند هذا المقام الكريم كما كانوا، عملاً بقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، ثم أعطى جلالته مفتاح المقصورة الجديدة لآل الشيبي سدنة

الكعبة المعظمة، وقد عملوا للمقصورة الجديدة قفلاً جديداً، فالحمد لله الذي أرانا هذه التجديدات والتوسيعات العظيمة في المسجد الحرام وفي البلد الحرام، ووفقنا لتأليف أعظم تاريخ لمكة المكرمة، وأصح تاريخ لمقام سيدنا إبراهيم، عليه السلام، والكتابان مطبوعان بفضله ورحمته وإحسانه ومنته»[١].

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٥٧- ٦٠.

اللاحقة السابعة
البيانات عن تجديد مقصورة المقام الكريم والغطاء الزجاجي

«وإليك بعض البيانات أيضاً عن تجديد مقصورة المقام الكريم؛ والغطاء الزجاجي بالتفصيل:

لقد قام مشروع توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة، بعمل الغطاء الزجاجي لمقام سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في فرنسا في مصنع خاص هناك لعمل الكريستال (أي: لصنع البلور) فصنعوا هذا الغطاء بصفة خاصة تناسب هذا المقام الشريف، وقد استغرق صنع هذا الغطاء ستة آلاف ساعة، وإليك وصف هذا الغطاء:

١- شكله كالقبة نصف كرة، في أعلاها في الوسط حلية جميلة كالسدادة من البلور نفسه.

٢- وزنه: ألف وسبعمئة وخمسون كيلو جراماً.

٣- وارتفاعه: متر واحد وثلاثون سنتيمتراً.

٤- وسمكه وغلظه: عشرون سنتيمتراً من كل الجهات.

٥- وقطره من أسفله من الداخل: أربعون سنتيمتراً.

٦- وقطره من أسفله من الخارج: ثمانون سنتيمتراً.

٧- محيط دائرته من أسفله: متران وواحد وخمسون سنتيمتراً.

٨- والقاعدة النحاسية التي فوقها الغطاء البلوري زنتها: ستمئة كيلو جرام.

٩-ولهذا الغطاء الزجاجي البلوري قاعدة نحاسية خاصة مخروقة من الوسط، موضوعة على القاعدة الرخامية السوداء للمقام الكريم، ثم وضع هذا الغطاء البلوري فوق القاعدة النحاسية زيادة في تثبيته وتقويته، فصار المقام الكريم له منظر جميل، وهو يُرى بوضوح من الغطاء البلوري.

إننا أخذنا جميع هذه المعلومات مع الشكر من سعادة الشيخ صالح باخطمة - مساعد المدير العام لمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام - كلل الله تعالى أعمالنا وأعمالهم بالنجاح والتوفيق التام بفضله وإحسانه آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا (محمد) وعلى آله وأصحابه أجمعين»[١].

(١) الكردي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٤، ص٦٢- ٦٣.

اللاحقة الثامنة
موجز تطوير مقصورة مقام إبراهيم في الوقت الحاضر

- «ولقد كان مقام إبراهيم ﷺ حتى سنة ١٣٨٥هـ [١٩٦٥م] داخل مقصورة، وعليه ستار لا يُخلص إليه. وقد قام بذرعه في جمادى الأولى لعام ١٣٧٧هـ [١٩٥٧م] الشيخ محمد طاهر كردي فوجد أن ما بين شاذروان الكعبة المشرفة وبين أول شباك مقام إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – المقابل للكعبة المشرفة أحد عشر متراً.
- لقد كان قرار إلغاء مقصورة المقام واستبدال الصرح البلوري به المشاهد اليوم مبنياً على قرار توصية المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الذي اتخذه في جلسته الحادية عشرة المنعقدة بتاريخ ١٣٨٤/١٢/٢٥هـ [١٩٦٥/٤/٢٦م] والذي جاء في مقدمة نصه: (تفادياً لخطر الزحام أيام موسم الحج، وحرصاً على الأرواح البريئة التي تذهب كل سنة تحت أقدام الطائفين، وهذا الأمر ينافي سماحة الشريعة الإسلامية ويُسرها وعدم تكليفها النفس البشرية أكثر مما في وسعها، يقرر المجلس الموافقة على المشروع الآتي، ورفعه إلى الجهات السعودية المختصة...

ثم عرضت مواصفات المشروع، وكانت الاستجابة من الدولة سريعة جداً، فكان هذا الإنجاز البلوري المشاهد اليوم.

وكلما طـــال البنـاءُ ارتفعـا ... بـه المقـــام فـي الهـوا وَرَفَعـا
بـــه القـــواعـدَ وفيـــه القَـدَمُ ... تُشْـبِهُها للْهاشـــمي قَـدَمُ

وهو حق لا شك فيه؛ لما ورد من الأحاديث الصحيحة، ولما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم، وكان أبو جهم بن حذيفة القرشي الذي حضر بناء الكعبة المعظمة مرتين: في بناء قريش، وفي بناء ابن الزبير رضي الله عنهما يقول: ما رأيت شبهاً كشبه قدم النبي ﷺ بقدم إبراهيم عليه السلام التي كنا نجدها في المقام.

وقال قوم من بني مدلجَ، وهم من أشهر العرب معرفة بالقيافة وبالآثار والعلامات، لعبد المطلب (جد النبي ﷺ) حينما كفله بعد وفاة أمه آمنة: احتفظْ بمحمد فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في مقام إبراهيم منه. (التاريخ القويم ومكة وبيت الله الكريم لمحمد طاهر الكردي المكي، ج٤، ص٢٠).

وتبعاً للترميم الكامل للكعبة المشرفة فقد جاء الأمر السامي الكريم. من خادم الحرمين الشريفين بترميم مقام سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في مكانه مع عدم تغيير في موقعه ولا بمقدار مليمتر واحد.

وقد تم في هذا الترميم التغيير فقط للهيكل والقبة والهلال والكسوة الخرسانية للقاعدة على الشكل الآتي:

- تم تغيير الهيكل المعدني المركب على مقام سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – بهيكل نحاسي جديد ذي جودة عالية، إضافة إلى أن شَبْكَةُ الداخلي مطلي بالذهب، ومن الخارج زجاج مقاس ١٠ مليمتر؛ ليعطي رؤية واضحة، ومن النوع المقاوم للحرارة والكسر.

- كما تم تغيير كسوة القاعدة الخرسانية من الجرانيت الأسود، ورخام وادي فاطمة إلى رخام كرار أبيض صافي ومُحَلًّى بجرانيت أخضر ليماثل حجر سيدنا إسماعيل، عليه الصلاة والسلام، ليصبح بشكل انسيابي بعد أن كان ذا شكل مضلع.

• وقد تم الانتهاء من هذا الترميم في مساء الأربعاء في ١٤١٨/١٠/٢١هـ [١٩٩٨/٢/١٨م]، ونسأل الله أن يتقبل ذلك من خادم الحرمين الشريفين أحسن قبول»[(١)].

لم يقف العناية بتطوير مقام إبراهيم عند وضعه في مقصورة زجاجية بدلاً من مقصورته التاريخية السابقة، بل استمرت العناية بصيانته وإدخال بعض التحسينات على قاعدته؛ رغبةً في إبقائه في موضعه السابق، وعدم مضايقته للطائفين عند اشتداد الزحام، وامتلاء صحن المطاف بهم في المواسم الدينية، وقد وثق هذا الكتاب الصادر من الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بالنص الآتي:

ترميم موضع مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام

«بناء على توجيهات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز – حفظه الله – الصادرة بالأمر السامي الكريم رقم (٨١٣٤١) وتاريخ ١٤١٧/٩/٢٥هـ [١٩٩٧/٢/٢م]، تم الشروع في ترميم محل مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، والمحل الذي يوجد فيه مقام إبراهيم عبارة عن هيكل معدني، ذهبي اللون، تعلوه قبة، وبداخله قفص من زجاج يغطي الركن وفي هذا الترميم:

• تم استبدال هيكل آخر جديد مصنوع من نحاس ذي جودة عالية بالهيكل المعدني الذي كان مركباً على مقام سيدنا إبراهيم ش.

• كما تم تركيب شبك داخلي مطلي بالذهب.

• كما تم استبدال [القاعدة] بقاعدة أخرى مصنعة من رخام كرارة الأبيض، الصافي، والمحلى بالجرانيت الأخضر كساء القاعدة الخرسانية للمقام

---

(١) كردي، عبيد الله محمد أمين، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً (المدينة المنورة: دار الأصدقاء للدعاية والإعلان، سنة ١٤١٩هـ) ص١٨٣– ١٨٤.

التي كانت مصنعة من الجرانيت الأسود، ورخام من وادي فاطمة ليماثل في الشكل حِجر إسماعيل عليه السلام.

وقد أصبح محل المقام بعد هذه التحسينات انسيابياً، وقبل ذلك كان مضلعاً، وشملت التحسينات الهيكل، والقبة، والهلال، إضافة إلى القاعدة الخرسانية. وقد تمت هذه الترميمات مع الحرص الشديد على عدم تحريك المقام من موقعه»[١].

وقد نشرت الصحافة المحلية التنويه بهذا الحدث في الخبرين الآتيين:

«انتهى أمس الأول الخميس «٢٢ من شوال سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٩ فبراير عام ١٩٩٨م] مشروع تجديد وتحسين قبة مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام. حيث تمت إزالة القبة القديمة وتركيب قبة جديدة تتكون من النحاس والكريستال والزجاج المزخرف، وبلغت تكاليف المشروع نحو مليوني ريال...»[٢].

«وتم في عهد خادم الحرمين حفظه الله تجديد قبة مقام إبراهيم عليه السلام، وضع قبة على المقام من الزجاج البلوري القوي الجميل المقاوم للحرارة والكسر، بلغ وزنها (١٧٥٠) كجم، وارتفاع المقام (١,٣٠) م، وقطره من الأسفل (٤٠) سم، وسمكه (٢٠) سم من كل الجهات، وقطره من الخارج من أسفله (٨٠) سم، ومحيط دائرته من أسفله (٢,٥١) م، وقد بلغت تكاليفه مليوني ريال»[٣].

---

(١) باجودة، محمد بن عبدالله، وشبيلي، الهادي بن حسين، الحرمان الشريفان في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (مكة المكرمة: الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، سنة ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م) ص٧٩– ٨٠.

(٢) صحيفة عكاظ، السنة التاسعة والثلاثون، العدد ١١٥٠٦، السبت ٢٤ شوال ١٤١٨هـ الموافق ٢١ فبراير ١٩٩٨م، ص١٠.

(٣) صحيفة المدينة، العدد ١٢٧٢١، الاثنين ١٩ شوال ١٤١٨هـ الموافق ١٦ فبراير ١٩٩٨م.

اللاحقة التاسعة

منظومة مختصرة للمؤلف في تجديد مقصورة المقام الكريم

الحمد لله كثير الحمد ... والشكر لله بغير عدّ
ثم الصلاة والسلام السرمدي ... على نبينا الحبيب «أحمد»
خير البرية نبي الرحمة ... وخير شافع لهذي الأمّة
وآله وصحبه الكرامِ ... قادتنا في حالك الظلامِ
(وبعد) هذه نبذة منظومة ... لطيفة رائعة مفهومة
تبحث عن تجديد شبَّاك المقام ... أعني مقام من له خير مقام
وهو خليل الله إبراهيمُ ... صلَّى عليه ربنا الكريمُ
مقامه هذا أمامَ الكعبة ... إذ كان حقاً بانياً للكعبة
هذا المقام في الكتاب ذكرَا ... ومنذ أعصر تراه سُترا
قد وضعوهُ داخل الصُّندوقِ ... وفوقه الشبَّاك بالتحقيقِ
فلا يُرى المقام في المقصورة ... لأنه كالطُّرفة المحصورة
مرَّت عليه حِقَبٌ من الزمن ... وهو بداخل الستور قد سكن
لا يعرف الناس عن المقامِ ... غير قليل من ذوي الأفهامِ
ثم بدا للملك السعودي ... «الفيصل» المُحنَّك المجدودِ
أن يكشف المقام للأنامِ ... ليعرفوا حقيقة المقامِ
فأصدر الأمر وبذل العَطا ... ليعملوا من الزجاج كالغَطا
يوضع فوق حجَر المقامِ ... وفوق ذا الشبَّاك بانتظامِ

يظهر للناس ويبقى سالماً — لا تصل الأيدي إليه دائماً
وحضر المليك يوم السبتِ — وإنه شهم كبير البختِ
للمسجد الحرام في الأصيلِ — ثامن عشر رجب الجزيلِ
من سنة سبع وثمانين يلي — ألف وثلاثمئة مكمل
وشاهد المقصورة الجديدة — موضوعة محكمة سديدة
فوق المقام للمقام منظرُ — له جمال الشكل وهو يبهرُ
فحمد الناس له هذا العمل — والله لا يُضيع للعبد العمل
قد حَفَلَ الناس بهذا اليومِ — فيا له من مشهد ويومِ
فالحمد لله على التمامِ — والشكر للتوفيق والإنعامِ
هذي خلاصة عن المقامِ — وقد ذكرنا وافرَ الكلامِ
نثراً قبيل هذه المنظومة — بكلمات دائماً مفهومة
ثم الصلاة والسلام العاطرُ — على النبيّ وهو حقاً طاهرُ
وآله وصحبه الأبرارِ — والتابعين منهج الأخيارِ
وكل من مشى على آثارهم — وإنني أمشي على أقدامهم
يا ربّ واختم لي بخير العملِ — عند الممات وبخير الأملِ
وآخرُ الدعا لنا يا ربنا — الحمد لله فقد زال العَنا»[1]

---

(١) الكردي محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود المكي الشافعي الخطاط، التاريخ القديم القويم لمكة وبيت الله الكريم، عام ج٤، ص٦٤ – ٦٥.

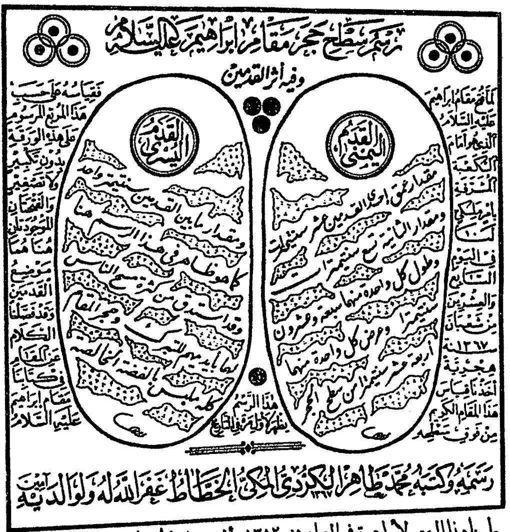
اللاحقة العاشرة
صور متعددة لمقام إبراهيم في مُدَد زمنية مختلفة

يقدم العرض الآتي مجموعة من صور مقام إبراهيم عليه السلام من الداخل أولاً، ثم من الخارج ثانياً، ليكتمل تمام التصور لدى القارئ الكريم عن هذا المشعر المقدس.

جاءت البدء لداخل المقام، حيث إن معرفة حقيقة المقام هي المقصودة بالذات من هذه الدراسة، متبوعة بالعرض من الخارج.

أولاً: مقام إبراهيم عليه السلام من الداخل:

وُضع رسم المؤلف في بدء صور مقام إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – حيث إنه الاكتشاف الأول بالتفاصيل لما عليه مقام إبراهيم عليه السلام..



رسم المؤلف لمقام إبراهيم عليه السلام

مصدر هذه الصورة: اللوحة الخاصة بمقام إبراهيم للمؤلف.



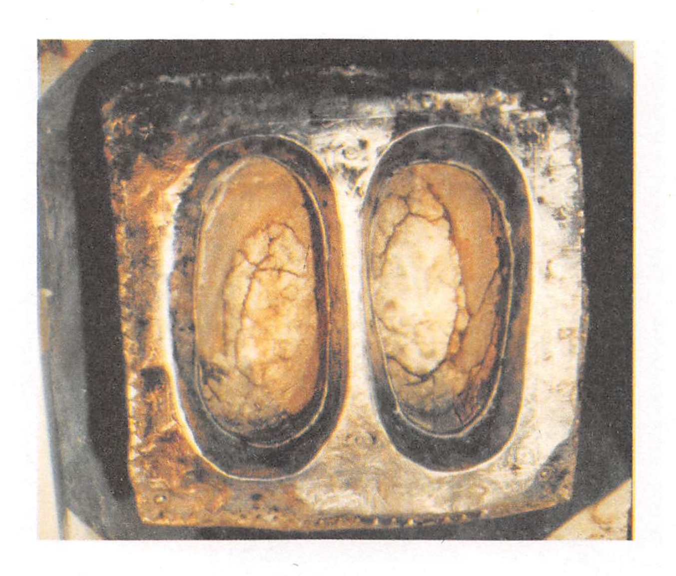
صورة توضح الحجر الذي كان يقف عليه سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند بنائه الكعبة المشرفة والحفرتان الغائرتان هي مكان تأثير قدمي سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد غلف الحجر بصفائح من الفضة للمحافظة عليه من التآكل.

مصدر هذه الصورة: حامد عباس، قصة التوسعة الكبرى، الطبعة الأولى (جدة: مجموعة ابن لادن السعودية، عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) ص١٥٣.



صورة توضح مقام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحلية الفضية السطحية والجانبية الملبسة به وذلك في أثناء بناء القاعدة الخرسانية المحيطة بالمقام لتركيب الهيكل القديم عليه عام ١٣٨٧هـ الموافق ١٩٦٧م.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٦.



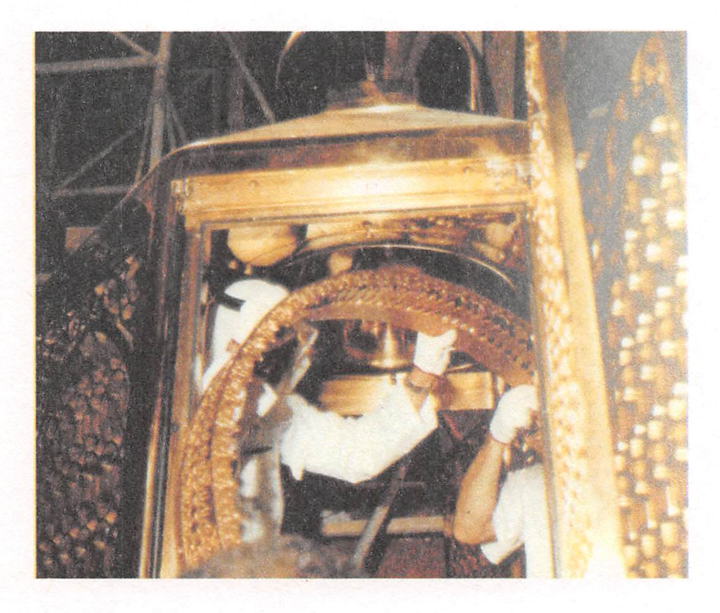
صورة توضح مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد تركيب سطح القاعدة الرخامية الجديدة للمقام.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٥.



صورة توضح جزءاً من الحلية الفضية المحيطة بحجر مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام من الأعلى، ويظهر في الصورة بداية آية الكرسي، كما يظهر بعض النقش.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٦.



صورة توضح تركيب الحزام النحاسي - بعد طليه بالذهب - المثبت لقاعدة القبة الكريستالية المغطية لمقام سيدنا إبراهيم عليه السلام.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٧.



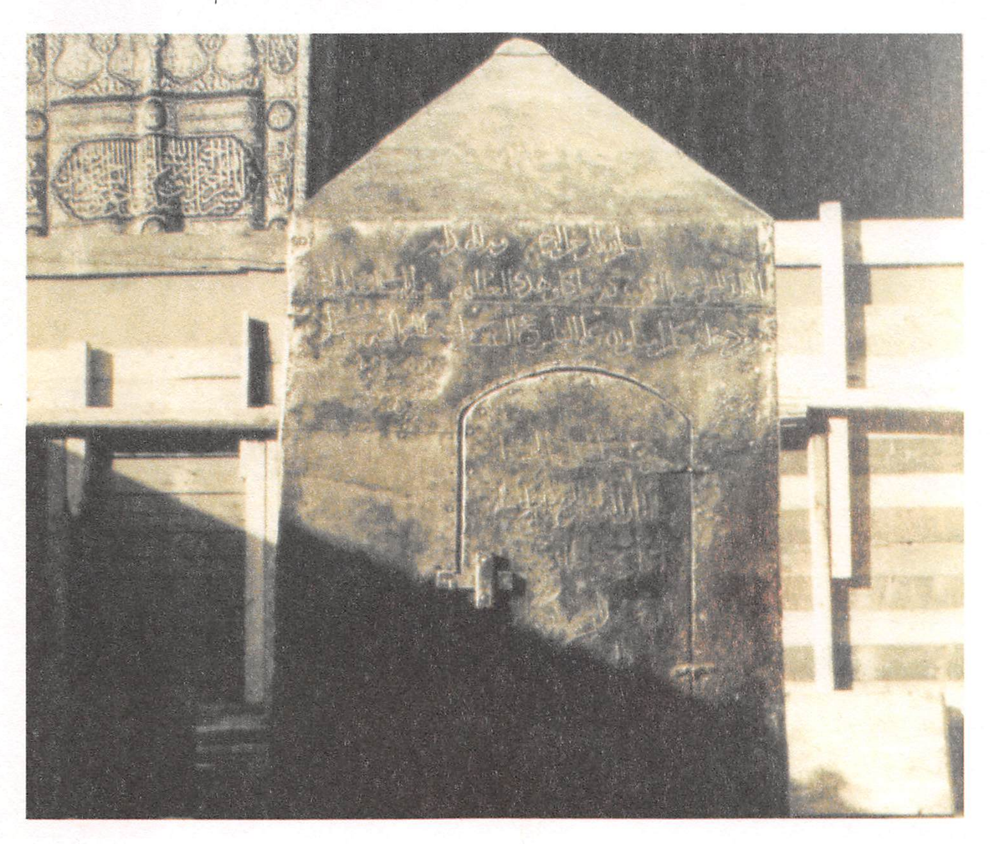
صورة توضح القاعدة النحاسية للقبة الكريستالية المغطية لمقام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ داخل الهيكل ويظهر في الصورة مفتاح الكعبة داخل المخمل الأخضر.

مصدر هذه الصورة:، عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٧.

ثانياً: المقام من الخارج:

اتخذ مقام إبراهيم ش عدة أشكال من الخارج حسب العصور المختلفة؛ محافظة عليه من عوامل الطبيعة، وعبث العابثين، يأتي عرضها فيما يأتي:

يغلب على الظن أن هذه القبة المصنوعة من الحديد هي التي تحدث عنها ابن جبير في رحلته سنة خمسمئة وثماني وسبعين للهجرة «... موضوعة إلى جانب قبة زمزم، فإذا كان في أشهر الحج وكثر الناس رفعت القبة الخشب، ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل للازدحام»[1].

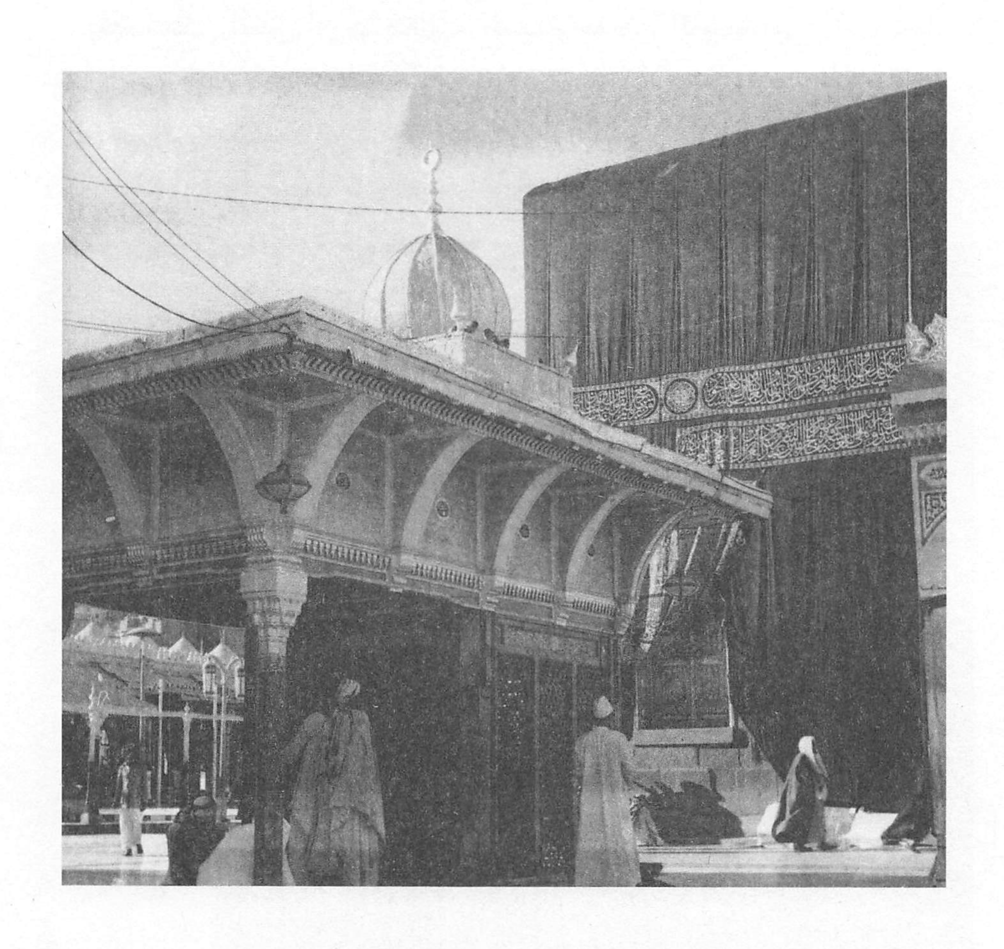


صورة توضح الصندوق الحديدي المغطي مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٥.

---

(١) اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف بـ رحلة ابن جبير، ص٦٩.



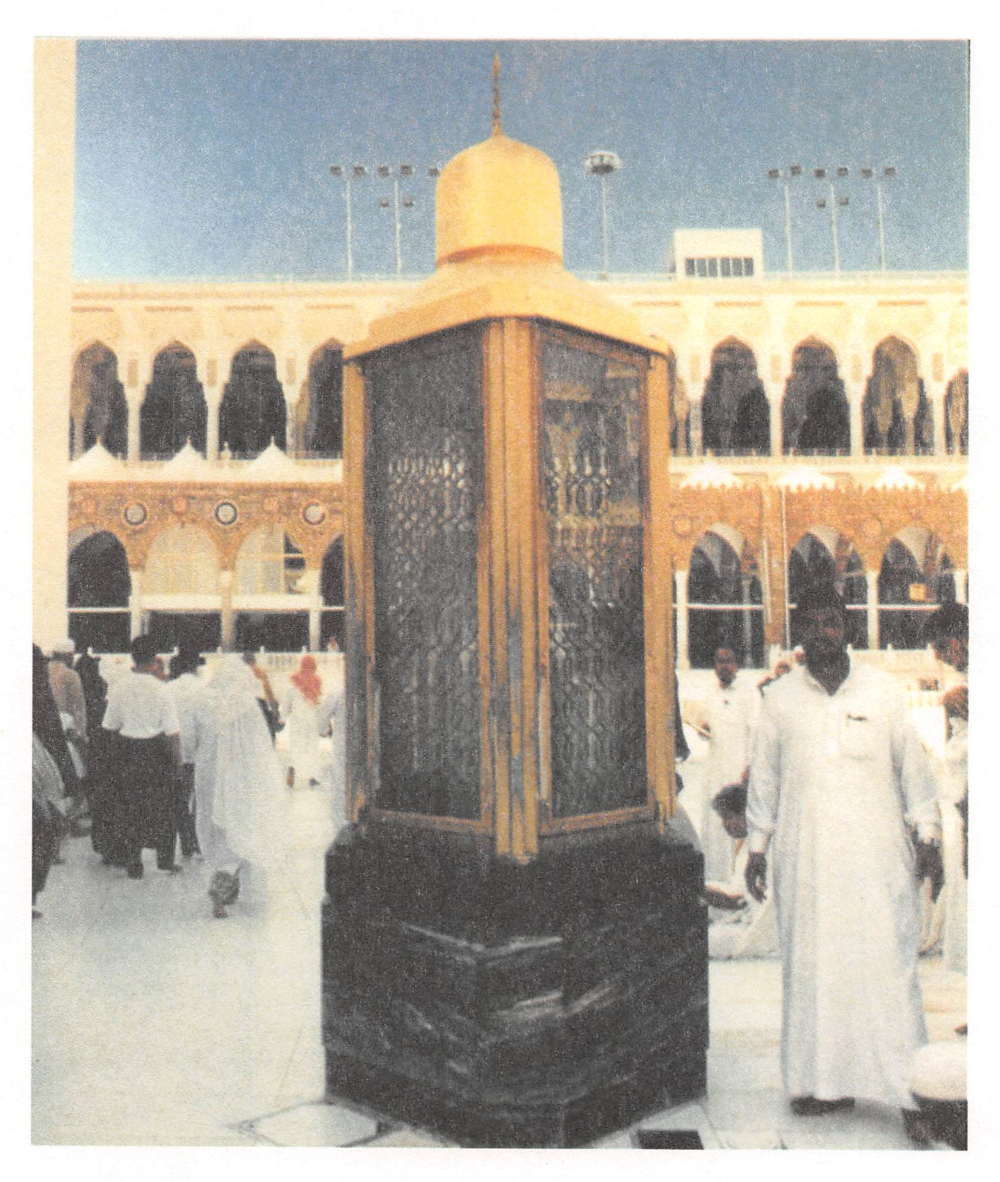
صورة توضح مبنى مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل إزالته، وهي صورة مقربة، وقد أزيل هذا المبنى لتوسعة المطاف.

مصدر هذه الصورة: حامد عباس، قصة التوسعة الكبرى، ص١٥٤.



صورة توضح ساحة المطاف بعد إزالة مبنى بئر زمزم، وقبل إزالة مقام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينتصب في مواجهة باب الكعبة بينها وبين باب بني شيبة والمنبر

مصدر هذه الصورة: حامد عباس، قصة التوسعة الكبرى، ص١٥٥.

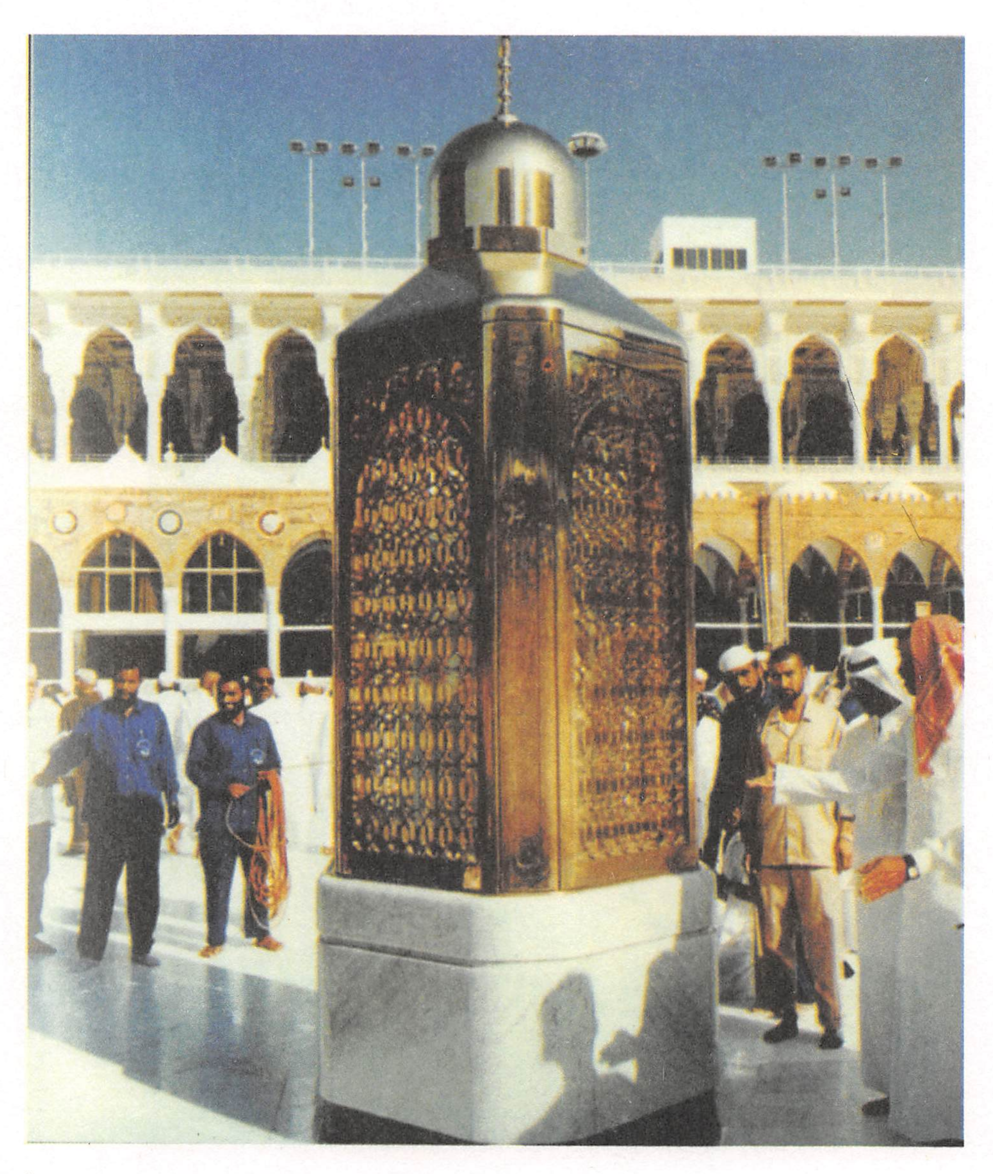


صورة جانبية كاملة لهيكل مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام القديم مع القاعدة الجرانيتية القديمة.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٨.

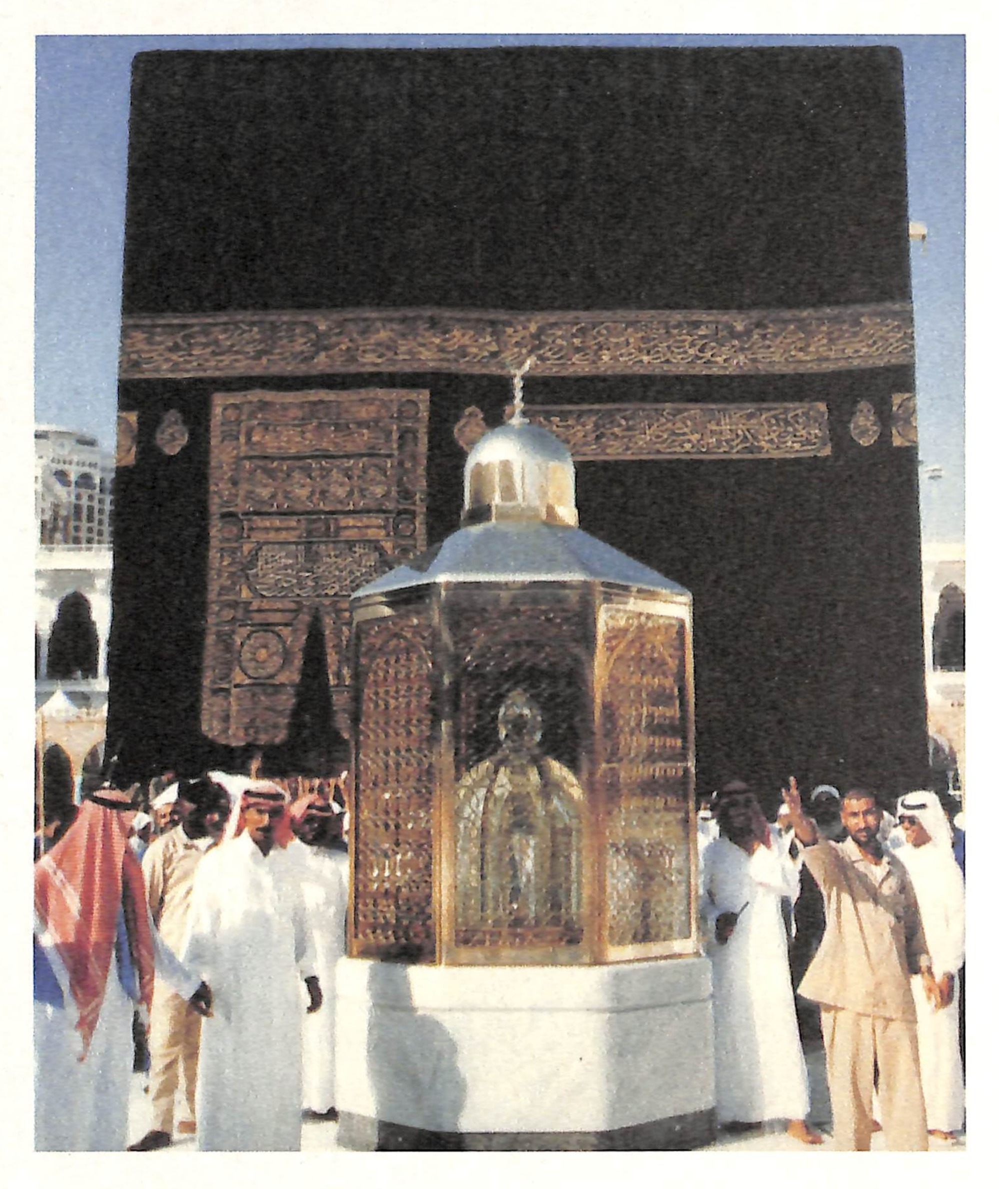


صورة توضح مقام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في شكله الحالي [سابقاً].
مصدر هذه الصورة: حامد عباس، قصة التوسعة الكبرى، ص١٥٦.



صورة جانبية كاملة لهيكل مقام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجديد مع القاعدة الرخامية الجديدة بعد الانتهاء تماماً من تركيب الهيكل الجديد.

مصدر هذه الصورة:، عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٨.



صورة توضح الكعبة المشرفة مع هيكل مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الجديد بالقاعدة الرخامية الجديدة بعد إزالة الحاجز الخشبي المحيط بالمقام والانتهاء تماماً من عملية التركيب.

مصدر هذه الصورة: عبيد الله محمد أمين كردي، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارةً وتاريخاً، ص١٨٩.

اللاحقة الحادية عشرة
مقام إبراهيم عليه السلام تشريعا

استكمل فضيلة المؤلف الشيخ محمد طاهر كردي المكي الخطاط - رحمه الله - العرض التاريخي لمقام إبراهيم عليه السلام، ووفّى الحديث عنه، وتبقت بعض الجوانب ذات العلاقة بالشعيرة التعبدية عند المقام، فإن التعرض لها فقهاً يكمل حلقات الموضوع تاريخاً، وتشريعاً.

الإمامة في مقام إبراهيم:

للإمامة في المسجد الحرام شأن كبير، كانت الإمامة في مقام إبراهيم عليه السلام مختصة بالفقهاء الشافعية، وكانت الصلاة جماعة تتوحد في صلاة المغرب، بإمامة إمام مقام إبراهيم عليه السلام؛ لهذا كان لذكر هذه الإمامة أهمية تاريخية تعد في خصائص المترجم له، وهو ما اعتنى به المؤرخون المكيون، وقد جاء ذكر جملة منهم عند الإمام الفقيه تقي الدين الفاسي، رحمه الله، وهم:

- «أبو بكر بن أبي الحسن الطوسي: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام»(١).
- «محمد بن أبي بكر بن أبي الحسن الطوسي: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام»(٢).

---

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الطبعة الأولى، تحقيق وتعليق ودراسة: محمد عبدالقادر أحمد عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٩هـ(١٩٩٨م) ج٦، ص٢٦٧.

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٢، ص١٢٩.

• «محمد بن علوان بن هبة الله التكريتي الحَوْطي ـ بفتح الحاء وسكون الواو بعدها طاء مهملة مكسورة ـ أبو عبدالله الصوفي الشافعي: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالحرم الشريف»[١].

• «العباس بن الحسين بن العباس العباسي الطبري، نجيب الدين أبو الفضل: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام»[٢].

• «عبدالله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني المقري، أبو محمد المعروف بابن العرجاء: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام»[٣].

• «عبدالملك بن أبي مسلم النهاوندي: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام»[٤].

• «عبدالواحد بن زين الدين محمد بن الزين أحمد بن محمد بن المحب أحمد بن عبدالله الطبري المكي، يلقب أوحد الدين: وأم بمقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام نيابة أوقاتاً كثيرة...»[٥].

وغير هؤلاء كثيرون، يضيق مجال الكتابة لعد أسمائهم.

أداء ركعتي الطواف:

تنتهي عبادة الطواف بأداء ركعتين خلف المقام، أما حكم أدائها خلف المقام فقد ذهب الأئمة الأربعة في هذا الموضوع مذاهب، يأتي النص عليها كالآتي:

---

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٢، ص٢٦٧.

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٤، ص٣١٢.

(٣) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٤، ص٣٩١.

(٤) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٥، ص١٣٣.

(٥) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج٥، ص١٣٩.

مذهب الحنفية:

في عدهم مستحبات الطواف ذكروا الآتي:

«الموالاة بين ركعتي الطواف والطواف، ويستحب مؤكداً أداؤها خلف المقام، ويستحب أن يقرأ في الأولى سورة (الكافرون)، وفي الثانية سورة (الإخلاص)، ويستحب أن يدعو بعدها لنفسه، ولمن أحب، وللمسلمين، على أنه إذا تعذر أداء الركعتين خلف المقام لازدحام الطائفين، وتكاثرت أعدادهم كما هو مشاهد في المواسم الدينية في الوقت الحاضر؛ حيث يصل الطائفون إلى ما وراء زمزم فإن الركعتين تصلى حيثما تيسر من المسجد»[١].

مذهب المالكية:

«...ثم يصلي ركعتي الطواف، ويُستحب له أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. وإن اقتصر على الفاتحة؛ أجزأه. قال المصنف في أصل هذا الكتاب: (والظاهر أنه لابد لهما من نية تخصهما؛ لأنه قد قيل: بوجوبهما مطلقاً. وقيل: بسنتيهما مطلقاً.

وقيل: إنهما تابعتان للطواف في الوجوب والندب. وهذا هو الظاهر. ولهذا لو نسيهما حتى بَعُدَ عن مكة، أو رجع لبلده؛ ركعهما، وبعث بهدي اتفاقاً). انتهى.

ويُستحب له أن يركعهما خلف المقام إن لم يؤد إلى مروره بين يدي المصلين أو مرورهم بين يديه. وحيثما ركع أجزأه إلا في الحِجر، والبيت، وعلى ظهر البيت. فإن صلاهما في أحد هذه المواضع الثلاثة؛ فحكمه كما

---

(١) أبو سليمان، عبدالوهاب إبراهيم، ومعراج مرزا، المسجد الحرام والمسعى المشعر والشعيرة، ص ١٧٤.

لو تركهما، فيؤمر بإعادتهما ما دام بمكة. فإن لم يُعِدْهما، وبَعُدَ عن مكة؛ لزمه الهدي على المشهور، وهذا في الطواف الواجب. وأما غير الواجب، فله أن يركعهما في الحِجر، والبيت. ويُوالي بين الطواف وركعتيه. والتفريق اليسير مغتفر.

فإن فرَّق بينهما تفريقاً طويلاً، أو انتقض وضوؤه؛ استأنف الطواف. فإن صلاهما ولم يستأنفه، وسعى بعده؛ أعاد الطواف والسعي ما دام بمكة»[1].

مذهب الشافعية:

«... إذا فرغ من الطواف صلى ركعتي الطواف، وهما سنة مؤكدة على الأصح، وفي قول: هما واجبتان، والسنة أن يُصليهما خلف المقام، فإن لم يصلهما خلف المقام لزحمة أو غيرها صلاهما في الحِجر، فإن لم يفعل ففي المسجد، وإلا ففي الحرم، وإلا فخارج الحرم، ولا يتعين لهما مكان ولا زمان، بل يجوز أن يُصليهما بعد رجوعه إلى وطنه وفي غيره، ولا يفوتان ما دام حياً، وسواء أقلنا: هما واجبتان أم سنتان فليسا ركناً في الطواف، ولا شرطاً لصحته، بل يصح من دونهما، ولا يُجبر تأخيرهما ولا تركهما بدمٍ أو غيره، لكن قال الشافعي – رحمه الله تعالى – يُستحب إذا أخرهما أن يريق دماً. وتمتاز هذه الصلاة عن غيرها بشيء، وهو أنها تدخلها النيابة، فإن الأجير يُصليهما عن المستأجر، وهذا هو الأصح. ومن أصحابنا من قال: إن صلاة الأجير تقع عن نفسه. ولو أراد أن يطوف طوافين أو أكثر استحب له أن يصلي عقب كل طواف ركعتين، فلو طاف طوافين أو أكثر بلا صلاة، ثم صلَّى لكل طواف ركعتين جاز، لكن ترك الأفضل. ويُستحب أن يقرأ في الركعة الأولى منهما بعد الفاتحة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وفي

---

(١) الحطاب، يحيى بن محمد بن محمد الرعيني المالكي، إرشاد السالك المحتاج إلى بيان أفعال المعتمر والحاج، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق: محمد خميس باموزن (مكة المكرمة: المكتبة المكية، سنة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م) ص٢٣٢– ٢٣٤.

الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ويجهر بالقراءة إن صلاهما ليلاً، ويُسر إن كان نهاراً. وإذا قلنا: إنهما سنة فصلى فريضة بعد الطواف أجزأه عنهما، كتحية المسجد، نصَّ عليه الشافعي - رضي الله تعالى عنه - في القديم. وقال الصيدلاني من أصحابه، واستبعده إمام الحرمين: والاحتياط أن يُصليهما بعد ذلك، والله تعالى أعلم. ويُستحب أن يدعو عقيب صلاته هذه خلف المقام بما أحب من أمور الآخرة والدنيا»[1].

مذهب الحنابلة:

«...ثم بعد تمام الطواف يصلي ركعتين، والأفضل كونهما خلف مقام إبراهيم لقول جابر في صفة حج النبي ﷺ: «حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت» ويأتي سياق حديث جابر في أول باب صفة الحج إن شاء الله تعالى، وقراءته ﷺ الآية المذكورة بيان منه لتفسير القرآن ومراد الله منه، وحيث ركعهما من المسجد أو غيره جاز لعموم: «جعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً». وصلاهما عمر بذي طوى، ولا شيء عليه لترك صلاتهما خلف المقام، وهما سنة مؤكدة يقرأ فيهما بعد الفاتحة في الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لحديث جابر (فصلى ركعتين فقرأ فاتحة الكتاب، و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا» رواه مسلم، ولا بأس أن يصليهما إلى غير سترة ويمر بين يديه الطائفون من الرجال والنساء، فإن النبي ﷺ صلاهما والطواف بين يديه ليس بينهما شيء، وكان ابن الزبير يصلي

---

(١) الهيتمي، شهاب الدين أحمد بن حجر، حاشية العلامة ابن حجر الهيتمي على شرح الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي، الطبعة الأولى (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ت. د) ص٢٧٧- ٢٨٠.

والطواف بين يديه، فتمر المرأة بين يديه فينتظرها حتى ترفع رجلها، ثم يسجد، وكذا سائر الصلوات بمكة لا يعتبر لها سترة، قاله في المغني والشرح، وتكفي عن ركعتي الطواف مكتوبة وسنة، كركعتي الإحرام وتحية المسجد...»[١].

(١) ابن جاسر، عبدالله بن عبدالرحمن بن جاسر النجدي التميمي الوهيبي الأشيقري المكي السلفي، مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام، الطبعة الثالثة (الرياض: شركة ألوان للطباعة والصناعة المحدودة، سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م) ج١، ص٢٦٥– ٢٦٦.

اللاحقة الثانية عشرة
نقد كتابة محمد لبيب البتنوني
فيما يتصل بمقام إبراهيم ﷺ

من أشهر مؤلفات الرحالة إلى مكة المكرمة كتاب (الرحلة الحجازية) لمحمد لبيب البتنوني الذي قص فيه رحلته إلى البلاد المقدسة بأسلوب شائق فحازت على الإعجاب والتقدير، وكان من نتائج ذلك: شهرتها وانتشارها بين أرباب القلم في العصر الحاضر.

بعض المعلومات المدونة في الرحلة عن مشاعر مكة المكرمة ومعالمها التاريخية لا تتطابق مع الواقع والتاريخ، وقد تنبه لهذا علماء مكة وأدباؤها في القديم والحديث، فسجلوا اعتراضاتهم في مؤلفاتهم، من جملة هؤلاء:

العلامة الفقيه الأديب الشيخ عثمان الراضي[1] في كتاب عثر على قطعة

---

(١) ترجمه خير الدين الزركلي: «هو الشيخ الأديب الشاعر عثمان بن الشيخ محمد بن أبي بكر بن محمد الراضي من كبار علماء الأدب في الديار الحجازية، ومن شعراء طبقتها الأولى في عصره، له ديوان شعر يقع في مجلدين، وكتاب في البديع سماه (الأنوار المحمدية) شرح به بديعية لعبدالله فريج فجاء من أكمل شروح البديعيات، وأغزرها مادة، وأكثرها أخباراً عن الأدب والأدباء في مجلد ضخم، صفحاته تقارب ستمئة، خطه جميل لا عيب فيه إلا ركة البديعية المشروحة. ولد الشيخ عثمان سنة ١٢٦٠هـ وتوفي سنة ١٣٣١هـ من شعره: بديعية نبوية قال فيها:

(الاستدراك) قالُوا نَرى لَكَ صَبْراً بعْد فُرْقَتِهِمْ
قالُوا نَرى لَكَ صَبْراً بعْد فُرْقَتِهِمْ
(التوشيع) زَادُوا هِيامِي بِتوْشِيعِ المَلاَمِ لَهُمْ
زَادُوا هِيامِي بِتوْشِيعِ المَلاَمِ لَهُمْ
(المغالطة) غَالَطْتُهمْ حِين قَالوا أَيْنَ منْزِلُهمْ
غَالَطْتُهمْ حِين قَالوا أَيْنَ منْزِلُهمْ =

منه خير الدين الزركلي، وقد نقلها في كتابه (ما رأيت وما سمعت) قائلاً:

«في جملة ما عثرت عليه بالطائف من الكتب المخطوطة قطعة من كتاب للعالم المكي المرحوم الشيخ عثمان الراضي، وضعه في نقد الرحلة الحجازية لمحمد لبيب بك البتنوني، وقد توفي الشيخ عثمان قبل أن ينجز هذا الكتاب، فرأيت أن ألخص ما أصبته منه حرصاً على مادته من الضياع والاندثار، وعسى أن ينظر صاحب الرحلة الفاضل فيما جاء به الناقد فيصلح ما يرى إصلاحه عند إعادة طبع رحلته...»[1]، وعد أربع عشرة نقطة مما عثر عليه في الأوراق التي حصل عليها من الكتاب.

تتابعت الكتابات النقدية للرحلة الحجازية للبتنوني من قبل علماء مكة وأدبائها (فأهل مكة أدرى بشعابها) من أهمها النقد الذي سجله العلامة المؤرخ الشيخ حسين عبدالله باسلامة في كتابه تاريخ (عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك) في العرض الآتي:

«... ومن المدهش المستغرب أن حضرة محمد لبيب بك البتنوني مؤلف الرحلة الحجازية للخديوي السابق عباس حلمي باشا في حجه سنة ١٣٢٧ هجرية [نحو ١٩٠٩م] قد خفي عليه تاريخ مقام إبراهيم، كما خفي عليه حالة المقام الحاضرة، مع أنه قد تصدى في (الرحلة

= (الغيرة) إنّي أغارُ عليهِمْ أنْ أسمّيَهمْ
إنّي أغارُ عليهِمْ أنْ أسمّيَهمْ
(المناقضة) لَهمْ لديَّ عُهودٌ لَستُ أنْقُضُهَا
لَهمْ لديَّ عُهودٌ لَستُ أنْقُضُهَا
(القسم) لاَ بلَّغَتْني المعالِي مِنْ تَنَاوُلِها
لاَ بلَّغَتْني المعالِي مِنْ تَنَاوُلِها

ما رأيت وما سمعت، تقديم وتعليق: عبدالرزاق كمال (الطائف: مكتبة المعارف، ت. د) هامش رقم ١، ص١٥٣.

(١) ص١٥٣.

الحجازية) لذكر مكة المكرمة والمسجد الحرام وما احتويا عليه من آثار وفضائل وغير ذلك، وإليك ما ذكره في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في (الرحلة الحجازية) من الطبعة الثانية صحيفة ١٢٥: «هو قبة قامت على أربعة أعمدة، وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة، يبلغ طول كل ضلع منها نحو متر وستين سنتمتراً.

وهي على آخر المطاف تجاه باب الكعبة، وفي داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حال بناء الكعبة، وبه أثر يقال: إنه أثر قدميه، وذكر أن أثر قدمي إبراهيم في هذا الحجر إنما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة بعد بناء الكعبة، وكان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعاً بالمعجن إلى جوار الكعبة، ثم أُبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هنا أثر للوثنية بالمرة، ودفن بمكانه الحالي وبني عليه فيما بعد القبة الحالية، ويقولون: إن تحته آلة البناء التي كان يعمل بها إبراهيم في الكعبة».

ثم قال: (وربما أخذ العرب قبل الإسلام هذا الأثر من أثر القدم الذي بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف، ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام، وهم يقدسونه ويحترمونه، ومن ذلك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الأقدام).

ثم ذكر الأقدام التي في قبة السيد البدوي، وفي جامع المؤيد، وغيرهما، ثم قال: «وعليه فلابد أن تكون فكرة تلك الأقدام أخذتها العرب عن اليهود، أو الهنود، إن لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين، وبقي أثرها في المسلمين إلى الآن».[1]

هذا ما قاله البتنوني في (الرحلة الحجازية) عن مقام إبراهيم عليه السلام. ويتضح من كل ذلك أن البتنوني من أبعد الناس عن معرفة التاريخ الإسلامي والقاعدة الدينية الإسلامية، في المعتقدات؛ إذ إن الدين

---

(١) انظر: الطبعة الثالثة للكتاب (الطائف: مكتبة المعارف، محمد سعيد كمال، ت. د) ص١٢٤.

الإسلامي في عقائده وتشريعه لم يكن مقلداً للوثنية، ولا لليهودية، ولا للنصرانية، وإنما هو دين جاء بعقائد صحيحة معقولة تنطبق على الحالة الاجتماعية كل الانطباق، كما أن الدين الإسلامي جاء هادماً لعموم الأديان: من وثنية ويهودية ونصرانية، وكل ذلك موضح في كتبه، ومعلوم عند كل من له اطلاع على كتب الإسلام، وأما عدم معرفته بحقيقة مقام إبراهيم عليه السلام من الوجهة التاريخية فهو: لأن المقام قد ذكره المفسرون، وعلماء السنة، والفقهاء، والمؤرخون وغيرهم، كما سبق تفصيله، وقد تناقله الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر إلى العصر الحاضر، وهو موجود بالذات، نراه بالعين ونلمسه باليد؛ ولذلك قلنا: إنه لا يعلم شيئاً عن مقام إبراهيم، ولا عن قواعد الدين الإسلامي، والظاهر أنه قد كتب عن المقام ما كتب وهو لم يره في حجه، ولم يكترث لرؤيته، وعدَّه حديث خرافة، وجزم أن هذا الأمر عمله المسلمون تقليداً للهنود، واليهود، والنصارى، ولم يكن هو أثر إبراهيم عليه السلام كما حققه جهابذة علماء الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى العصر الحاضر، وأنه يشبه الحجر الذي في القدس، والحجر الذي في قبة السيد البدوي، والحجر الذي في جامع المؤيد بمصر، والحجر الذي في قبة الآثار النبوية في الأستانة، وغيرها من الأحجار التي عدها وجزم أن مقام إبراهيم الخليل عليه السلام من نوعها.

ومن أغرب ما ذكره البتنوني في ذلك (آلة البناء) التي كان يبني بها إبراهيم الخليل عليه السلام الكعبة، وأنها دفنت تحت حجر المقام حين دفن معها، ولا أدري من أين نقل ذلك الخبر أهو من كتب الإسلام التي هي مصدر مقام إبراهيم عليه السلام؟ أم من كتب الإسرائيليين أم أنه استكشف ذلك بذاته؟ أم من باب الحدس والتخمين؟ حيث لم يعز هذا الخبر التاريخي المهم إلى كتاب معلوم حتى يعلم ذلك الكتاب الذي نقل منه تلك العبارة أهو من الكتب المعتبرة التي يعول عليها في نقل الأخبار! أم هو من الكتب التي

دونها القصاصون، أم من الأخبار الإسرائيلية التي هي مما لا يعتمد عليها؟ حيث إنه لا حقيقة البتة لوجود آلة البناء المذكورة في كتب الإسلام؛ لأن المقام قد نُقل من موضعه عدة مرات، وأُصلح، وأُعيد إلى موضعه، ولم يذكر أحد ممن تصدى لأخبار المقام تلك العدة الذي ذكرها البتنوني، ولم يدفن حجر المقام كما قاله البتنوني، بل هو موجود، وقد ذكره المرحوم إبراهيم رفعت باشا - أمير الحج المصري - في كتابه (مرآة الحرمين) ووصفه وصف عيان، فقال في الجزء الأول منه بصحيفة ٢٤٦: «ودخلت المقصورة مع المطوف فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين وشربنا منه في حجتنا هذه السنة ١٣١٨هـجرية [نحو ١٩٠٠م]».

فكان من الواجب على البتنوني حينما أقدم على تصنيف (الرحلة الحجازية) أن يتثبت فيما ينقلون؛ لأن المؤلف الثقة من دأبه تجنب الأخبار التي لا صحة لها، وترك الظن والهوى، والأخذ بالحقائق. ألهمنا الله الرشد فيما ننقل وندون، وحفظنا من الخطأ والزلل»[1].

---

(١) ص١٦٤- ١٦٧.

المصادر والمراجع

الكتب

- ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع) ت. د.
- أحمد علي، وعبداللطيف بن عبدالله بن دهيش، محمد طاهر الكردي الخطاط، حياته وآثاره. (الرياض: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون) ت. د.
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الثالثة، تحقيق: رشدي الصالح ملحس. (مكة المكرمة): مطابع دار الثقافة، سنة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش. (مكة المكرمة): مكتبة الأسدي، سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
- الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة الأولى. (مصر: إدارة الطباعة المنيرية) ت. د.
- باجودة، محمد بن عبدالله، والهادي بن حسين شبيلي. الحرمان الشريفان في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز.(مكة المكرمة: الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، سنة ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م).

- باسلامة، حسين عبدالله. تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك. الطبعة الثالثة. جدة: تهامة، سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، الطبعة الثانية، جدة: تهامة، سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، (الطائف: مكتبة المعارف، محمد سعيد كمال) ت. د.
- البوسنوي، علي دده، تمكين المقام في المسجد الحرام، رسالة مقامية في فضل المقام والبيت الحرام، الطبعة الأولى، تحقيق: أحمد جمعة عبدالحميد. (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ٢٠٠٨م).
- ابن جاسر، عبدالله بن عبدالرحمن بن جاسر النجدي التميمي الوهيبي الأشيقري المكي السلفي، مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام. الطبعة الثالثة. (الرياض: شركة ألوان للطباعة والصناعة المحدودة، سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف بـ رحلة ابن جبير، الطبعة الأولى، تقديم: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤٢٤هـ (٢٠٠٢م).
- ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى، ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبدالبر. مصر: المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م).
- الحطاب، يحيى بن محمد بن محمد الرعيني المالكي، إرشاد السالك المحتاج إلى بيان أفعال المعتمر والحاج، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق: محمد خميس بامؤمن، (مكة المكرمة: المكتبة المكية، سنة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م).

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (مصر: مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م).
- الخياط، عبدالله بن عبدالغني، الفضائل الثلاث: فضائل مكة وشرفها، فضيلة الصلاة بمكة، فضيلة الصيام بمكة.الطبعة الأولى، (مكة المكرمة: مطابع الصفا، سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).
- دحلان، أحمد بن زيني، السالنامة المخصوصة بالولاية الحجازية، لسنة ١٣٠٣هـ.الطبعة الثانية، مكة المكرمة: المطبعة الميرية، سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م).
- دحلان، أحمد بن زيني، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، الطبعة الأولى، بيروت: دار صادر، سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).
- ابن دهيش، عبدالملك بن عبدالله، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، الطبعة الأولى، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، سنة ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).
- الزركلي، خير الدين، ما رأيت وما سمعت. تقديم وتعليق: عبدالرزاق كمال، الطائف: مكتبة المعارف، ت. د).
- أبو سليمان، عبدالوهاب إبراهيم، ومعراج نواب مرزا، المسجد الحرام والمسعى المشعر والشعيرة دراسة فقهية حضارية، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الثالث والخمسون، السنة الرابعة عشرة، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤٢٢هـ (فبراير (شباط) – مارس (آذار) – إبريل (نيسان) ٢٠٠٢م).
- السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، الطبعة الأولى، تحقيق: جميل عبدالله محمد المصري، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

- طاشكندي، عباس صالح، وزملاؤه، عمارة الكعبة المشرفة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ين عبدالعزيز، رحمه الله تعالى، مرقوم على الحاسب الآلي.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، أخبار الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، الطبعة الرابعة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: دار المعارف، ت. د).
- الطبري محب الدين، أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر المكي، القرى لقاصد أم القرى، الطبعة الثانية، عارضه بمخطوطات مكة المكرمة والقاهرة مصطفى السقا، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م).
- ابن ظهيرة القرشي، جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، الطبعة الثالثة منقحة ومصححة، (مكة المكرمة: مكتبة الثقافة، سنة ١٣٩٢هـ (١٩٣٢م).
- عباس، حامد، قصة التوسعة الكبرى، الطبعة الأولى. (جدة: مجموعة بن لادن السعودية، سنة ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).
- الغازي، عبدالله بن محمد الهندي المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن عبدالله ابن دهيش، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، سنة ١٤٣٠هـ (٢٠٠٩م).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الثانية، نسخ وتحقيق: أيمن فؤاد السيد، ومصطفي محمد الذهبي، (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، سنة ١٩٩٩م).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الطبعة الأولى، تحقيق وتعليق ودراسة: محمد عبدالقادر أحمد عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

● ابن فهد، عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الطبعة الأولى، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٣م).

● الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الأولى طبعة فنية مرقمة ومصححة، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

● الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (بيروت: المكتبة العلمية، ت. د).

● القطبي النهروالي، قطب الدين بن علاء الدين، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة (تاريخ القطبي).الطبعة الأولى، تقديم السيد محمد أمين كتبي، شرح وتعليق: محمد طاهر ابن عبدالقادر الكردي الخطاط، (مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبدالفتاح فدا وأولاده، ت. د).

● ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن حزم، سنة ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).

● ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، (مصر: مركز البحوث والدراسات العربية بدار هجر، سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).

● كردي، عبيد الله محمد أمين، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً، (المدينة المنورة: دار الأصدقاء للدعاية والإعلان، سنة ١٤١٩هـ).

- الكردي المكي الشافعي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود، تاريخ الخط العربي وآدابه، الطبعة الأولى، (مصر: المطبعة التجارية الحديثة، سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م).
- الكردي المكي الشافعي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود، تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحُكمه، الطبعة الثانية، راجعه: علي محمد الضباع، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م).
- الكردي المكي الشافعي، محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)، الجزءان ٥ و٦ سنة ١٤١٢هـ).
- ما يأبى الشنقيطي، محمد حبيب الله بن سيدي عبدالله، فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم، الطبعة الأولى، (مصر: مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، سنة ١٩٥٤م).
- المجالسي الموريتاني، حماد بن الأمين، تحفة الألباب في شرح الأنساب، الطبعة الأولى، بتعليق: أحمد المختار الجكني الشنقيطي، (قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- المحبي، المولى محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الرابع عشر، (مصر: المطبعة الوهبية، سنة ١٢٨٤هـ).
- المغربي، محمد علي، أعلام الحجاز، (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
- الهيتمي، شهاب الدين أحمد بن حجر، حاشية العلامة ابن حجر الهيتمي على شرح الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي، الطبعة الأولى، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ت. د).

الدوريات:

- صحيفة عكاظ.
- صحيفة المدينة.
- مجلة البحوث الفقهية المعاصرة.

الروابط الإلكترونية:

- http://www.sl-rasch.de/

الكشاف العام

(ب)

(س - ش)

(ص - ض)

(ط - ظ)

(ع - غ)

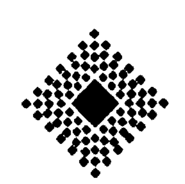
(ف - ق)

(ك - ل)

(م)

(ن - هـ)

(و - ي)



The Center of
Makkah History

ص.ب: ٦٥٣٥ - مكة المكرمة (العزيزية) ٢١٩٥٥

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٠٢٥٥٨٨٨٨٩ - فاكس: ٠٢٥٢٨٦٣٤١

P.O.Box: 6535 Makka - (Al-Aziziya) 21955

Kingdom of Saudi Arabia

Tel: 025588889 - Fax: 025286341



King Abdul-Aziz Foundation
For Research and Archives

ص.ب: ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٠١١٩٩٩ - فاكس: ٤٠١٣٥٩٧

P.O.Box: 2945 - Riyadh 11461 - K.S.A

Tel: 4011999 - Fax: 4013597

موقع الإنترنت : www.darah.org.sa

البريد الإلكتروني : info@darah.org.sa